

دون خوان مانويل

الكوندي لوكانور

كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال المضيدة

لبيبرام : هنا صور الأزبكية
أكبر مكتبة وقصصية



دون خوان مانويل

الكوندي لوكانور
كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال المفيدة

ترجمة وتقديم: عبدالهادي سعدون

مراجعة: د. طلعت شاهين



© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ6401. A112 2016

Manuel, Don Juan, 1282- 1348

[El Conde Lucanor]

الكوندي لوكانور: كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال المفيدة/ تأليف دون خوان مانويل؛
ترجمة عبدالهادي سعدون؛ مراجعة طلعت شاهين. ط. 1. أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة،
كلمة، 2016.

ص.؛ 384 * 12 سم.

ترجمة كتاب: El Conde Lucanor

1- الأدب الشعبي الإسباني - القرن 14.

أ- سعدون، عبدالهادي. ب- شاهين، طلعت. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإسباني:

Don Juan Manuel

El Conde Lucanor

لوحة الغلاف لفنان مجهول من إسبانيا في القرون الوسطى



إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتografي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقرودة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطى من الناشر.



الكوندي لوكانور
كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال المفيدة





مقدمة بقلم المترجم

كتاب الكوندي لوكانور El conde Lucanor المترجم من «الإسبانية» إلى اللغة العربية، يضم حكايات ومواعظ شعبية معروفة في تلك الفترة، وقد جمعها وشذبها وأعاد كتابتها دون خوان مانويل Don Juan Manuel، الأمير السياسي والكاتب البارع وأهم صوت أدبي في آداب إسبانيا في القرون الوسطى. والمؤلف قد صاغها صياغة أدبية أشبه ما تكون بحوارية ومسامرات شخصية بين بطلي الكتاب وهما: الكوندي لوكانور ومستشاره باترونويو. إذ قبل كل حكایة يسأل الكوندي لوكانور مستشاره في معضلة ما وباترونويو يشير على سيده بالصائب منها عبر مثال أو موعظة أو حكایة متداولة.

الترجمة العربية هنا هي الترجمة الأولى الكاملة للكتاب، أي ترجمة الأجزاء الخمسة كاملة، إذ لم يحظ سابقاً بأية ترجمات سوى من بعض النصوص القليلة ضمن أنطولوجيات منتخبة سواء نشرت في كتاب أو في بعض المجلات الأدبية. كما أن ترجمتنا تستخدم طبعة معاصرة للنص مع مقدمة مطولة عن حياة المؤلف وظروف تأليف الكتاب، يضاف لها تعليقات وتسلسل تاريخي عام حافل بالمعلومات، ولا ننسى الهوامش العديدة المكملة لفهم النص، وهي على كثرتها، تعد مرجعاً لا غنى عنه لفهم واستدرارك العديد من المناطق والزوايا الغامضة من الكتاب.

الكتاب المعروف من حكايات الكوندي لوكانور أو كما وضعنا له عنواناً فرعياً مكملاً هو (كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال المفيدة) جاء في جزئه الأول والمتضمن 51 قصة وحكایة ومواعظ، وهي الجزء الأكبر من الكتاب، وهو الأمنع والأغزر بالمعلومات والمصادر والمؤثرات الشعبية الإسبانية أو العربية الإسلامية الواضحة. بعد ذلك أضاف المؤلف في فترات لاحقة أجزاء أخرى للكتاب الأصل، ليكون الكتاب بأكمله مؤلفاً من خمسة أجزاء كاملة، أي أربعة أجزاء أخرى

تضاف للجزء الرئيس الأهم والأكبر. وإن كانت الأجزاء الأربع المتبقية لا تشكل إلا الربع الأصغر من الكتاب الكلي، وهي الأجزاء التي تتمسّك بطبيعة الأمثلة والأقوال الشائعة آنذاك أكثر من إيراد الحكايات والقصص الشعبية. وقد أراد بها المؤلف أن يضيف للكتاب ما تناهه أو ضاع منه في الجزء الأول الرئيس أو ما استدركه فيما بعد من خلال التذكير بالأوضاع والمناسبات المختلفة، أو لزيادة الحس النقدي والتحليلي للظواهر من قبل المؤلف والتي غفل عنها في الجزء الأول، كما جاء على لسانه في تبرير كتابتها.

لقد حظيت قصص وحكايات الحكمة باهتمام الأدباء قديماً، ولعل أبرز تلك القصص ما ضمه كتاب «كليلة ودمنة»، التي يعتقد أن ابن المفعع ترجمها عن لغات شرقية أخرى، فيما يؤكّد البعض أنه هو صاحبها ومؤلفها الحقيقي، ولكنه نسبها إلى مؤلف من لغة أخرى حتى لا يتحمل وزر ما تضمه من قصص وحكايات موحيّة تدين بعض الممارسات السياسية في زمانه لو حاول أحدّهم أن يحمله هذا الوزر. هذا الاهتمام بقصص الحكمة من الشرق إلى الغرب، سواء بترجمة ما تضمه كتب قصص الحكمة الشرقية من اللغات العربية والهندية والصينية والفارسية، أو بكتابة قصص على منوالها، امتد لأزمنة أخرى ومناطق جغرافية مختلفة، وانتقل بفعل التأثير والتاثير من الشرق إلى الغرب، وبشكل خاص أوروبا الغربية التي كانت تتوق إلى الخروج من عصور الظلام التي عاشتها في القرون الوسطى إلى عصر التنوير الذي بنت خلاله أسس حضارتها الحديثة والمعاصرة. ومنها بطبيعة الحال رمز الإمبراطورية الغربية آنذاك إسبانيا.

كانت إسبانيا الكاثوليكية الأقرب إلى التأثير الشرقي من غيرها من دول أوروبا الغربية، وذلك بفضل ما ورثته عن الحقبة الأندلسية التي كانت فيها شبه الجزيرة الأيبيرية منارة للحضارة والعلوم عندما كانت أوروبا غارقة في الظلام، ويعتبر المؤرخون أن الأمير «دون خوان مانويل» أحد أمراء الأسرة المالكة الكاثوليكية الحاكمة في القرن الثالث عشر كان أول من اهتم بفن كتابة القصص والحكايات في إسبانيا الكاثوليكية بعد سقوط الممالك العربية في غرناطة بقليل.

كان معروفاً عن الأمير دون خوان مانويل أنه عاشق لكل ما خلفته الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، وبشكل خاص الأدب الذي كان يقدره ويرى فيه حكمة تعكس فكر هؤلاء الذين أقاموا تلك الحضارة الباهرة في أوروبا، ولم يكن يرى في هزيمتهم واندحارهم أمام الجيوش الغازية الكاثوليكية حطاً من قدر هؤلاء، لذلك أراد أن يستفيد المسيحيون من تلك الحكمة التي

خلفوها، فأمر بجمع كل الحكايات والقصص وصاغها على منواله، وأضاف لها مما عرفه وسمعه وألفه بنفسه من حكايات أخرى جديرة بضمها في الكتاب، وكان أن طبعها فيما بعد في كتاب باسم «حكايات الكوندي لوكانور». وربما كان ذكاء ابن المفعع، أو خانقاً من عاقبة نسب تلك القصص إليه، فقرر إلا تكون تلك القصص على شكلها الذي تم جمعها به، فتقابل بالرفض من الشعب المسيحي الكاثوليكي المتعصب، الذي كان لا يزال ينظر إلى العرب والمسلمين على أنهم أعداء لم تجف في أيديهم الدماء التي أراقوها في حروبهم مع الكاثوليكين، لذلك قرر الأمير أن يضعها في إطار يجعلها أقرب إلى قصص «كليلة ودمنة» من الناحية الفنية، ويقربها من العامة باعتبارها قصصاً تخص نبلاء إسبانيا المسيحية، وإن كان الكثير من أبطال تلك الحكايات من العرب.

اخترع الأمير دون خوان مانويل شخصية «الكوندي لوكانور» وتابعه «باترونوي» ليقرب تلك القصص بحكمتها من العامة، فكان يقص النبيل «الكوندي لوكانور» على تابعه موقتاً من المواقف التي تواجه بعض أصحابه أو رعاياه ردأً على سؤال حول موقف من مواقف الحياة التي يتعرض لها أحد رعاياه، وتنطوي القصة على مشكلة ما والنبيل يطلب من تابعه المشورة حول كيفية نصح الصديق أو التابعين الذين لجأوا إلى الكوندي للتوصل إلى حل معقول ومقبول لمشكلتهم، من دون أن يكلف الصديق أو الرعية جهداً كبيراً في فهم النصيحة.

يبدو في تلك الحكايات والقصص أن «باترونوي» تابع الكوندي كان حكيمًا، وعلى قدر كبير من الخبرة بالحياة، يقدم لسيده المشورة من خلال قصة من القصص أو حكايات من الحكايات القديمة، التي تحتوي على عظة أو حكمة معينة، ولأنه لا يستطيع أن يبدو ناصحاً لنبيل بفعل اختلاف الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، كان يطلب من سيده أن ينصت وأن يستخلص من الحكاية حلاً مشابهاً لما تحتويه مشكلة من طلبوا عون الكوندي. وبما أن التابع «باترونوي» كان شخصية تتمنع بثقافة واسعة، فقد كانت تلك الشخصية في كتاب الأمير دون خوان مانويل تحاول أن تستخلص العذات والحكم من القص الشفاهي في إسبانيا، والتي معظمها متوارث عن الأدب العربي والإسلامي في الأندلس.

ومن تتبع تلك الحكايات، نجد أن التصريح بأن تلك الحكاية وقعت لهذه الشخصية العربية أو تلك من الأمور الطبيعية جداً في هذا الكتاب، الذي يبدو في النهاية كجمع ثري للحكايات العربية التي

كانت منتشرة في الأندلس قبيل سقوطها، أو حتى حكايات وقصص وقعت لشخصيات مسيحية أوروبية عندما وقعت في أسرا بعض القادة المسلمين، وواجهوا الأسر بكرامة، لكنه يبين - على غير العادة في كتابات تلك الفترة التاريخية التي يعود إليها تاريخ نشر الطبعة الأولى من هذا الكتاب - أن قادة المسلمين وبشكل خاص الناصر صلاح الدين عاملوا الأسرى المسيحيين بالقدر الذي يستحقونه، لأن الشخصيات المسيحية في هذه الحكايات في الغالب تنتهي إلى طبقة النبلاء.

والغريب أن بعض تلك الحكايات تشبه كثيراً بعض الإنتاج الأدبي المعروف حالياً في أوروبا، والذي أبدعه أدباء قدامى في التاريخ أقرب إلى الفترة التي نشر فيها الأمير دون خوان مانويل كتابه «الكوندي لوكانور»، مثل بعض الأعمال لثربانتس الإسباني صاحب رواية «دون كيخوتة»، التي تعتبر أول رواية أوروبية وضعت قواعد القص الروائي، أو حتى من أعمال المسرحي الإنجليزي الشهير «وليم شكسبير». ومن أكثر القصص تشابهاً في هذا الأمر قصة بعنوان «ما جرى للفتى الذي تزوج من امرأة عنيدة وسيئة الطباع» التي يضمها كتاب «الكوندي لوكانور»، وتشبه كثيراً مسرحية «ترويض النمرة» للكاتب الإنجليزي الشهير «شكسبير»، ونظراً إلى وجود دلائل تؤكد أن هذا الكتاب، الذي صدرت منه طبعة جديدة هذا العام، لا يعرف أحد ولا حتى الناشر المعاصر رقمها، وهو كتاب تم طبعه في العديد من البلاد الأوروبية، وتمت إعادة طبعة عشرات المرات، بل مئات المرات في إسبانيا، ويعتبر من كتب التراث الأدبي الشهيرة التي تلقى رواجاً، وهناك دلائل تؤكد أن هذا الكتاب تمت ترجمته إلى عدد من اللغات الأوروبية مما يجعل من المستحيل القول إن وليم شكسبير لم يطلع عليه، أو حتى لم يسمع عنه، وهنا لا بد من القول إن هذا الكتاب ربما كان له تأثيره على المسرح الإنجليزي الذي استوحى منه - على أقل تقدير - مسرحيته «ترويض النمرة».

ولو وقع هذا الكتاب بين يدي باحث يغوص في أعماقه وأعمق الأدب الأوروبي بحثاً عن تأثيرات واضحة للأدب العربي لوجد أن هناك العديد من الأعمال الأدبية والفنية التي اتخذت من هذا الكتاب مرجعاً أو ملهمًا لها، وذلك بفضل عشق أمير من الأسرة المالكة الكاثوليكية للثقافة العربية، على الرغم من العداء الذي كان مستحكماً بين الثقافتين المسيحية والإسلامية الناتج عن صراعهما في الأندلس، وأيضاً يؤكد أن الحضارة الإسلامية على الرغم من هزيمتها في الأندلس، إلا أنها استطاعت أن تترك أثراً لا يمحى في عقول الكثيرين، الذين استطاعوا أن يتعاملوا معها كقيمة

إنسانية بغض النظر عن الموقف المعادي سياسياً لمن أبدعواها، لأن التأثر هنا يكون من حضارة سابقة أكثر تقدماً، ويمكنها أن تكون عاملًا مساعداً لبناء الحضارة الجديدة التي هي هنا الحضارة التي كانت تبحث عنها أوروبا المسيحية للخروج من ظلام القرون الوسطى.

على شح ما لدينا من مخطوطات الأدب القشتالي في العصر الوسيط، أن يتم الاحتفاظ كما عليه في حالة (الكوندي لوكانور)¹ بخمس مخطوطات يشير ذلك للشهرة التي تتمتع بها الكتاب. إن عمل دون خوان مانوويل، إلى جانب ذكرى حياته المضطربة والزاخرة بالأحداث، لم يسقط في غياب النسيان.

في القرن السادس عشر يظهر الكتاب مطبوعاً للمرة الأولى في مدينة أشبيليه عام 1575. القليل جداً من أعمال القرن الوسيط كانت قد طبعت بشكل مبكر. أعوام فيما بعد، في 1642، يُعاد طبعه مجدداً؛ ويكون قد قرأه كبار كتاب القرن السابع عشر الإسباني، كما عليه وضع الكاتب المعروف غراثيان بالناسار صاحب العمل الضخم (الناقد *El Criticón*) معجباً به بعمق وكتب عنه الكثير من التقييمات النقدية المهمة. لقد اعتبره رجال القرن الثامن عشر نموذجاً يقتدى به في الأسلوب والمحظى. إن الإعجاب بعمل دون خوان مانوويل وتتابع طبعاته على مدى القرن التاسع عشر، جعل من قيمته الأدبية لا جدال فيها. تعايش الملابين من القراء مع صفحاته المرة تلو الأخرى. وما يزال العمل حياً لأن القراء حفظوا عليه طوال ستة قرون. إن قراءة الكوندي لوكانور اليوم لا تعني العودة إلى الماضي وحسب، بل أن تحمل هذا الماضي إلينا، الماضي الذي مازال يهمنا، و يجعل منه حاضراً في المقومات الحياتية والثقافية التي بذرها والأثر الذي تركته حتى أيامنا هذه.

عندما انتهى دون خوان مانوويل من كتابة الكوندي لوكانور في عام 1335، كان قد بلغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً (ولد في عام 1282). وكان قد كتب أعماله الرئيسة وهي: كتاب الفارس والتابع (حامل الدرع) *Libro del caballero y el escudero* وكتاب الأحوال *Libro de los estados*. في الأعوام التي تتوسط 1330 و 1335 والتي كان فيها في قطيعة مع ألفونسو الحادي عشر، كانت أعوام نشاط أدبي مكثف. لقد كانت حياته السابقة مكتظة بالنشاط السياسي، نتيجة لوضعه الاجتماعي. لقد كان دون خوان مانوويل ابنًا للإلهانتي (الأمير) دون مانوويل وزوجته الثانية بياتريث دي سوابيو (أي أنه ابن أخي الملك ألفونسو العاشر). ولد في إسكاللونا في يوم 5 مايو (آيار)

من عام 1282. بعد موت أبيه وله من العمر أقل من سنتين، بقي في رعاية أمه حتى موتها في عام 1290. لهذا أصبح وريثاً لأملاك واسعة وهو لايزال ابن ثمانى سنوات، وقد حملته طموحاته الكبيرة منذ حينها إلى العمل على توسيعها بكل السبل المتاحة، وهذا الطموح الثابت بجوار تفاخره بمكانته وشعوره كوريث لنسب ملكي، جعل من شخصيته السياسية تكتسب أبعاداً محددة منذ فترة مبكرة لتضعه في المصادف الأول للتاريخ الإسباني.

جرت حياة دون خوان مانوييل في أعوام أزمة مضطربة في وضع شبه الجزيرة الإيبيرية. فمنذ موت ألفونسو العاشر عام 1284، دخلت كل ممالك شبه الجزيرة، خاصة قشتالة، في عصر يسمها بشكل رئيس باسمة التمزق السياسي والذي استمر لوقت طويل. إن الخلافات والنزاعات بين فرق النبلاء المتعددة كانت مستمرة خلال فترة حكم الأقلية في زمن فرناندو الرابع وألفونسو الحادي عشر. في نظرة عامة، تأثرت بالمواجهة والخلاف المتجدد بين النبلاء والشعب، كما أن الانحطاط الاقتصادي كان في وضع قائم.

بعد ألفونسو العاشر صعد إلى العرش سانشو الرابع، الذي ضم دون خوان مانوييل تحت رعايته بعد موت أبيه. لقاوه بالملك يسرده لنا في كتاب الأسلحة. في عمر اثنى عشر عاماً (1294) بعد أن يستقر عند حدود مدينة مرسيه Murcia، ويقول في المؤلف في هذا الشأن: «لقد أرسلني الملك إلى هناك، وقد كان لي فريق جيد من خاصة الجنود والتابعين في مواجهتهم لقوات الحسن بن بكر بن زيان». لم يشترك خوان مانوييل في هذه المعركة لأن حاشيته لم ترغب في أن يشارك معهم لأنه كان مايزال صبياً يافعاً.. لقد تم اللقاء مع سانشو الرابع في مدينة بلد الوليد وقد استقبله بعطف وزاد له من الأراضي وسعى لتزويجه بـالأميرة إيزابيل ابنة ملك مايوركا. بعد استقباله فيما بعد في بينيافيبل Peñafiel، منحه الملك الأموال لبناء قلعته، ومن هناك يمضي إلى مدريد، حيث يحدث اللقاء المؤلم مع الملك المحترض والذي يؤثر فيه بعمق مما يتسبب في إشعال فتيل النزاع على العرش الملكي. على الرغم من سنه الصغيرة التي جعلته لا يتدخل في النزاعات حول السلطة التي نشببت بعد موت الملك سانشو عام 1295 مباشرة، إلا أنه سرعان ما يصبح طرفاً فيها، بحيث إن النزاع، بالإضافة إلى الصراع السياسي، سوف يسيطر على الجزء الأكبر من حياته.

يلتقي في عام 1303 في شاطبة Jativa مع خايمه الثاني، والذي يعرض عليه الزواج بابنته كونستانثا، الطفلة صغيرة السن، والتي يتزوج بها فيما بعد في عام 1311. وحصل بقبوله وعد

الزواج على مهر يتيح له عوائد ووضع اليد على مدن إلشى وسانتا بولا والمودوبار ومقاطعات أخرى. قبل ذلك، في عام 1296، كان قد عقد قرانه على دونيا إيزابيل المايوركينية، والتي ماتت بعد هذا الزواج بستين. وهكذا يقتن مرأة أخرى بالعائلة القشتالية المالكة عن طريق زواجه بابنة الملك. يطمئن النبيل الطموح مجدداً على أملاكه في مواجهة الأخطار الطارئة. ولم يكن هدفه سوى الإبقاء على أحواله بصورة كبيرة أقرب إلى أحوال أية مملكة، معتمداً على تحالفاته مع مملكتي آراغون وقشتالة بصورة متبادلة، كل حسب مصالحه.

بعد سنوات من الحرب، تم إقرار السلام بين مملكتي آراغون وقشتالة. فقد دون خوان مانويل مدينة إلشى نتيجة أنه كان أحد مهندسي هذا الاتفاق، والتي ستلتحق نهائياً بملكية آراغون، لكنه بالمقابل يضم لأملاكه مقاطعة آلاركون (كونيكا) الشاسعة والاحتفاظ بها. لقد تحول النبيل القشتالي إلى رجل ذي نفوذ؛ فأملاكه من الاتساع، بحيث إنه كتب لابنه فرناندو في كتاب الأبد: «يمكنك أن تمضي من مملكة نابارا Navarra حتى مملكة غرناطة، وفي كل ليلة يمكنك النوم في ضيعة مسيجة أو في قلعة مما أملك».

مضت أعوام عديدة لم يتعكر فيها سلام النبيل سوى من بعض المناوشات مع المسلمين، فقد انتهت أوقات التآزم والخلاف التي حدثت في علاقات ملكي قشتالة وآراغون. في عام 1309، وبعد لقاء آريثا Ariza الذي شهدته خوان مانويل، حتى أن الملكين فرناندو وخايمه قررا تنظيم حملة مشتركة ضد غرناطة. إلا أن الفشل الذي نتج عن الحملة زاد من حدة التوتر مجدداً بين الممكتتين؛ ومن ثم فرار خوان مانويل دون خوان (الشقيق الأصغر للملك سانشو الرابع) أمام أسوار الجزيرة الخضراء Algeciras مما أوج الغضب الملكي والمواجهة من جديد مع فرناندو الرابع، هذا الخلاف الذي سرعان ما ينتهي نتيجة لجهود المصالحة التي قامت بها ماريا دي مولينا.

في عام 1312 يتزوج دون خوان مانويل بـ كونستانثا، ابنة خايمه الثاني، التي كانت محتجزة آنذاك في بيينا Villena، لأنها كانت ماتزال صغيرة السن على الزواج. في العام نفسه يموت فرناندو الرابع. ويصبح كاتينا من النبلاء المشهود لهم في السياسة القشتالية، مما يجعله طرفاً مباشراً في النزاعات على السلطة أثناء فترة حكم الصغير ألفونسو الحادي عشر. في عام 1319 يموت في غوطة غرناطة كل من دون خوان دون بيدرو، اللذين كانا رفقة دونيا ماريا مولينا، بعد أن شكل مجلس الأوصياء، كانت الخلافات تبرز بينهما في بعض الأحيان، مما أتاح لـ دون خوان

مانويل القفر إلى الخط السياسي الأول. مما جعله يسبق منافسيه دون خوان تويرتو (الأعور) والإفانتي دون فلييه بإعلان نفسه وصياً ملكياً ووالياً على الأمور، ويعرف به عدد من المدن. وتخيم الدسائس على مدى السنوات التالية. وبموت ماريا دي مولينا في عام 1321، يعلن نفسه وصياً على إكسترامادورا وطليطلة، بينما يعلن منافسوه ذلك في أماكن أخرى. ووجدت مدن وإقطاعيات نفسها في نزاعات كبيرة، تنسحب أحياناً أو تعلن تأييدها لواحدة عن أخرى. في عام 1325 بإعلان بلوغه سن الرشد (كان قد ولد في 1311) يمنح ألفونسو الحادي عشر المناصب الرئيسية في مملكته لنبلاء متضامنين مع عمه الدون فلييه. ويتحالف دون خوان مانويل مع دون خوان التويرتو، إلا أن هذا التحالف تنفص عراه عندما يطلب الملك يد دونيا كونستانثا للزواج، وهو ما دفع دون خوان مانويل الطموح إلى الموافقة في الحال حالماً بروية ابنته جالسة على عرش قشتالة. لكن هذا الزواج لم يتم أبداً، فقد حبس الملك دونيا كونستانثا في تورو وتزوج بالأميرة البرتغالية لإفانتا دونيا ماريا. مما أحبط طموحات دون خوان مانويل، فبقي ساخطاً وجريحاً في كرامته، يضاف إلى هذا موت زوجته (1327) وأبيها، فقد خلع دون خوان مانويل تأييده لمملكة قشتالة وبدأ العمل ضد ألفونسو الحادي عشر في واحدة من أكثر تمرداته دموية. توغل النبييل في الأراضي الملكية، والأماكن المخصصة للقلاع الملكية، وتواترت المواجهات، التي تتخللها فترات من السلام والهدنة على مدى السنين، حتى يحل السلام مع الملك (1329). يشمل التحالف إعادة الأرضي المسلوبة والمناصب الملكية وتحرير ابنته كونستانثا. كان ذلك إعلاناً عن سلام هش لم يستمر طويلاً، بسبب عدم الثقة المتبادل. انفصمت الوفاق بينهما عندما رفض دون خوان مانويل تأييد الملك في حصاره لجبل طارق. فيما استمرت الدسائس والهجمات الدبلوماسية. كان ألفونسو الحادي عشر قد اتفق على تزويج شقيقته ليونور من ملك آراغون وذلك للحد من تأييده لصهره دون خوان مانويل، مما حدا بالنبييل القشتالي الحاذق أن يبادر بالزواج فوراً من دونيا بلانكا نونيث ديل لارا (1327) والتي ينجب منها ولداً هو فرناندو، وأيضاً تزويج ابنته بالأمير إفانتي دون بيدرو، ووريث العرش البرتغالي.

مع استمرار فترات السلام والهدنة: التوتر والشك المتبادل بينهما. في عام 1336 يشتعل فتيل المواجهات والذي انتهى بهزيمة البرتغاليين المؤيدين له، وحصار قلعته في بينيافيل، مما اضطره إلى الهرب إلى آراغون. في النهاية، في العام التالي، كان قد تواافق بشكل تام. مع ألفونسو الحادي عشر واشتراك ولو بصورة متأخرة في انتصاره في معركة ديل سالادو (1340) وفي

احتلال الجزيرة الخضراء (1344). لكنه دون شك لم يغفر للملك، الذي حاول إفحامه في مواجهات مع الأراغونيين والبرتغاليين. عن طريق الدسائس والمؤامرات التي لم تنتهِ إلا بموته في عام 1348. ودُفن جثمانه في دير بينيافيل، الذي كان قد شيد هو بنفسه في عام 1318، وأمر أن يدفعوا معه أيضاً مجلد مؤلفاته كجزء من بقايا رفاته.

على الرغم من الاضطرابات المستمرة، فقد بقي دون خوان مانويلا وفياً على نقل مؤلفاته، فالمجلد الذي يضم أعماله وكان قد راجعه بنفسه وأخفاه في بينيافيل لم يتم العثور عليه. وعلى الرغم من هذا الاهتمام، بنتائج ضميره الفني، فلا معرفة لنا بكل أعماله، وهو الكثير الكتابة نوعاً ما. في الوقت الذي كان فيه الزعيم القشتالي مشغولاً بالنزاعات والدسائس السياسية، كان لديه الوقت الكافي للكتابة، وإن كنا لا نحتفظ له إلا بـ«كتاب الفارس وتتابعه» (حامل الدرع)، وـ«كتاب الأسلحة» *Libro de las armas*، وـ«كتاب الأبد *El libro infinito*»، وـ«كتاب الأحوال *Libro de los estados*»، وـ«كتاب القنص *Libro de la caza*»، وـ«التاريخ المختصر *Libro abreviado*»، وـ«تفسير الارتفاع *Tratado de la Asunción*»، وإن كان الكتاب الأكثر شهرة من بينها وهو كتاب «أمثال الكوندي لوكانور وباترونويو»، كتابه الذي نضع له الترجمة العربية هنا.

إن التحليل الإجمالي يدفعنا إلى اعتبار أننا أمام رجل متثقف - رغم أن التأهيل الذي نلقاه يشمل إلى جانب المعرفة بفنون الحرب، المعرفة بتلك الأشياء التي لها علاقة بالتاريخ واللغة اللاتينية. وكتابه يعتبر الأول في بانوراما الآداب الإسبانية القشتالية - وكان على وعي بأدوات مهنته. هذا الوازع الفني، إضافة إلى الانشغال بمظاهر مادة كتاباته، تنتهي على انشغال عملي مرهف، تجره إلى درجتها القصوى في كتاب اللوكانور، والكمال التدريجي في عمله، باجتماع الوازع الفني مع الطموح والتفاخر، جعله يدرك بدرجة كبيرة أهمية الأدب كوسيلة للسمو بالذات: وهذا ما يشير لكثرة ذكره لأعماله والاقتباسات الذاتية المباشرة. كمقاييس للتمكن في مقابل مما هو معناد من أعمال في العصر الوسيط، أو بصورة غير مباشرة باتباع الابتعاد الظاهر دون أن يترك التجلي الذهني للنبيل الكاتب، والتي تعلي من شأنه في مناسبات عديدة وبلا خجل.

إن كثرة الاقتباسات الشخصية، قد حملت جانباً كبيراً من النقد على تحليل أعمال دون خوان مانويلا، خاصة كتابه الكوندي لوكانور، باعتباره مفتاحاً لسيره ذاتية. لقد تم البحث عن سيرة مدفونة فيها: من السهل العثور على تطابق ما بين شخصه والمشكلات التي يتبعها في عمله، لكن لا يجب

البحث في جميعها عن شخصه فيها. لكن من غير المشكوك فيه أن دون خوان مانوييل يشخص ذاته عبر الكوندي لوكانور، وهذا ما يجعل الشك في كل القضايا المطروحة على باترونيو أنها قضايا خاصة به، إنها حالات أو معضلات وعيه، والتي يتم حلها بالتوافق مع الحكمة الأخلاقية التي تستشف من الحكاية. وهذا ما جعل العديد من الأمثال والحكايات يتم تفسيرها على أساس السيرة الذاتية (البيوغرافية)، خاصة في صلتها مع العلاقات المتآزمه مع ألفونسو الحادي عشر. لكن دون شك، فإن كتاب الكوندي لوكانور، مثله مثل أعماله الأخرى التي نجد فيها حضور المؤلف بشكل مستمر، فلا هو بالذاتي ولا الواقعي ولا المتخيل. لأن دون خوان مانوييل يستخدم دائمًا الإشارة المستمرة إلى شخصه بالقول «وحدث هذا لي...»، والتي تتكرر تقريرياً بصورة ثابتة على مدار جميع الأمثال، كمورد أسلوبي مضاد، مغطياً على أي استفادة أخرى، مما يشكل صيغة مؤكدة للوصول إلى نوعية القارئ الذي يهمه.

من قراءتنا للعمل، لا نعثر على صيغة توثيقية شخصية قوية في كتاب اللوكانور، بل تزهـر فيه الانشغالات الحميمية ومعاناة الكاتب الشخصية. مثل أي شخص آخر، يعرض لمواضيع ومعضلات تشغله ويقحم خبراته في أعماله. هذا التلميح الثابت ليس سوى مظهر من مظاهر أسلوبه التعليمي. بالطريقة نفسها، نجد الإشارة الختامية لدون خوان مانوييل نفسه في كل مثال، لا يجب أن تُفسـر بأكثر من كونها مطالبة لتأكيد أبوته للعمل وكمحاولة للتـأكيد على صلاحية تعاليـمه. لكن دون شك أن شخصيته تبرز لنا بصورة غير مباشرة، كأنـعـكـاس الضـوء، عبر ما يقوله كل من لوكانور وباترونيو، كما عليه عبر شخصـكـتبـهـ الأخرى، وهذه واحدة من العديد من نجاحـاتـ المؤـلفـ: تـكـرـيسـ نفسهـ فيـ مرـكـزـ الأـعـمالـ التـيـ أـفـهـاـ وـالـنـقـلـ عـبـرـهـ عـنـ خـبـرـتـهـ الشـخـصـيـةـ التـيـ يـشـيرـ إـلـيـهـ باـسـتـمـارـ.

على الرغم من حضور مختلف التوجهات فيه - المؤـرـخـ، المـدـافـعـ عـنـ العـقـيـدـةـ، والمـوجـهـ الأخـلاـقيـ. إلاـ أنـ مـيـزـتـهـ كـكـاتـبـ تـكـمـنـ بـصـورـةـ أـسـاسـيـةـ فـيـ الجـانـبـ التـعـلـيمـيـ. إنـ أـعـمـالـ دونـ خـوانـ مـانـويـيلـ تـتـحـولـ بلاـ شـكـ إـلـىـ أـفـضـلـ دـلـيـلـ عـنـ الـولـعـ التـعـلـيمـيـ الأخـلاـقيـ التـيـ يـصـبـغـ وـيـشـغلـ آـدـابـ الـعـصـرـ الوـسـيـطـ. بـهـذـاـ المعـنىـ، كـماـ عـلـيـهـ فـيـ معـانـيـ أـخـرىـ، يـبـرهـنـ عـلـىـ كـوـنـهـ التـابـعـ الـوـفـيـ لـعـمـهـ أـلـفـونـسـ الـعـاـشـرـ. فـهـوـ مـثـلـهـ، إـذـ إـنـ خـبـرـتـهـ وـهـمـهـ التـقـافيـ قدـ حـمـلـاهـ لـيـكـونـ بـمـثـابـةـ قـنـطـرـةـ ماـ بـيـنـ الـمـعـرـفـةـ وـالـطـبـقـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـمـنـتـمـيـ إـلـيـهـ. لـقـدـ تـحـولـ عـمـلـ النـبـيـلـ الـقـشـتـالـيـ إـلـىـ «ـدـلـيـلـ أـصـيـلـ لـلـمـعـلـمـيـنـ»ـ، وـرـبـماـ الـأـكـثـرـ

جذباً وأهمية فيه هي تلك الثنائية التي تقدم الكاتب الأخلاقي والقاص. هذه المظاهر تتقارب في اللوكانور، وفيه تمتزج وتتدخل في محاولة للهروب من التقولب وشحة الكتابات التعليمية - الأخلاقية. إن التعليمية كخيط قيادي تشرط ملامحها الأساسية في كل أعمال دون خوان مانويل. لا يبدو لنا الكتاب وحسب مرجعاً في المعرفة اللاهوتية أو حول الطبيعة، بل وأن المؤلف يستغل الفرصة في كل مناسبة من أجل عملية هضم تعليمي - أخلاقي حول مادة ما، بل دون رابط معين في أحيان عديدة. في المعنى ذاته يمكن تفسير بعض الجمل التوجيهية أو ذات المحتوى العقدي التي تظهر في أمثل معينة، مُضمنة بمهارة وغير منفصلة في طرف منها عن محتواها.

إن النمط التعليمي، المبتكر في اللوكانور منذ المدخل، قد فرض عناصر ذات خصوصية في الكتاب. وهو كصيغة يختار المثال، لأنه يضم العناصر الأساسية التي يسعى إليها ولأنه، من ضمن تقاليد آراغونية قديمة، قد حوله إلى مكمل ضروري بمحتواه الديني والفلسفى والأخلاقي. في اللوكانور يكرر صيغة (باترونيو: المستشار، ولوكانور: الواجب نصحه)، لكنه يحضر فيها الحكايات، مما يحدث توازناً كاملاً ما بين الحكائي والتوجيهي، والذي هو بصفاته الرسمية، يجعلان منه أكثر الكتاب لمعاناً في السرد الأوروبي في عصره. إن الحرص على الغاية التعليمية يفرض أيضاً شروطه على الأسلوب: فكما يقوم الطبيب بتحليلية الأدوية، « بهذه الطريقة - يقول - سيكون هذا الكتاب، فمن قرأه يجد متعة في حكمه وأمثاله، واستفاد منه جل الاستفادة، وأما من لم يفهم منه شيئاً فسيجد في قراءته من الكلمات الجميلة الواعدة، والذين لن يقربوا الكتاب سيفقدون الكثير من الأشياء التي يستفاد منها وهي ممزوجة هناك، وحتى لو لم يشاؤوا، سوف يستفيدين منها: يتم التوجيه أخلاقياً بمصدمة اللطف».

الغاية التعليمية تقيد أيضاً بنية وموضوع الكتاب، وهذا يتم تبريره تبعاً للجمهور الذي يتوجه إليه. خلقت تركيبة الكتاب للنقد معضلات عدة، كما أفرزت تأويلات مختلفة. إن تقسيمه إلى خمسة أجزاء تسبقها مقدمتان، واضح تماماً: الجزء الأول، عادة ما ينشر منفصلاً، يضم واحداً وخمسين مثلاً « وهي بسيطة واضحة ». والجزء الثاني، إضافة إلى برهانه لـ دون خايمه سيد خريكا، « يضم مائة مثل، البعض منها غامض والآخر ليس واضحاً بشكل كافٍ ». والجزء الثالث، شبيه بالسابق، « يضم خمسين مثلاً ومائة مثل ». أما في الجزء الرابع فيقول: « كان علي أن أدون فيها ثلاثة مثلاً من الغموض لو أدركت فهمها لكان شيئاً رائعاً »، وفي الجزء الخامس والأخير، المختلف تماماً عن

الأجزاء السابقة، يظهر بوضوح كاتب العصر الوسيط الأخلاقي القلق لرغبة بخلص الروح من مساوى الحياة الفانية. على الرغم من وضوح التقسيم، فالعمل من الممكن أن يختصر، حسب المادة التي يضمها، إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول منها مكون من الأمثل (حكايات الجزء 1)، وجزء ثانٍ من الأمثل (الأجزاء 2، 3، 4) وجزء ثالث يضم التفسير اللاهوتي (ج 5). هذه الأجزاء الثلاثة تظل متباعدة ومُبررة في النهج المختلف للمادة التعليمية. أي أن الجزء الأول يستخدم الأمثل، والثاني الأحكام، والثالث تجسيد لاهوتي نظري منسق.

بناء الجزء الأول من الكتاب لا يمثل أي تجديد في بنوراما الأدب في عصره. فالكتاب مبني على سلسلة من القضايا التي يعرضها لوكانور على باتروننيو، والتي يجب عنها هذا بطريقة قاطعة وحاسمة. في هذه البؤرة الحوارية تتدخل الحكايات لتشكل نموذجاً مقعاً يستخلص منها بصورة صريحة عبرة تعليمية تشكل بدورها خطة عامة ناجعة بحضور المؤلف. في كل مثال برع العنصر التعليمي في ثلاثة مستويات: حوارية اللوكانور مع باتروننيو، وفي الحكاية أو النادرة التي يقصها وفي أشعار المؤلف، حيث يغادر عبرها دوره راوياً، ضاغطاً ومحتصراً مثالياً الحكاية. الحكاية التي يضمها كل مثال ما تزال حتى اليوم ذات قيمة لا تضاهى. حتى لو كان في البعض منها - وهي قليلة - عرض المشكلة من طرف الكوندي والخلاصة من طرف باتروننيو تشكلان الفضاء الأكبر منها، إذ تقدم محتوى أكثر ثراء من الحكايات نفسها، وهي تلك التي تتركز في كل مثال وتظهر أستاذية دون خوان مانويل وهو يقص علينا ما كان يقصه عليه عصره. إن بنية الكتاب بصورة عامة بسيطة جداً، لكن معنى بها: البعض وهو الرقم الأكبر منها، تتطور خطياً: بعد ظهور الشخص أو الأشخاص وموقعهم في الفضاء والزمان، يطرأ مباشرة إلى العقدة، تطور العالم الحكائي المشيد بالحدث والشخصوص: شخصوص نموذجية تمثل تطوراً ثلاثياً. في أخرى يتقدم جانب من الحل، خالقاً نوعاً من قوس أو جسر حكائي. في النماذج الأفضل، تتحول نادرة بسيطة إلى حكايات واقعية قصيرة، مانحاً إياها مناخاً يدور حول الشخصوص، وخططاً لها أسلوباً يتمثل دقة وحساسية. نعرف عنها كلها تقريراً المصادر المباشرة المؤلدة لها، لكن أيضاً بمقارنتها ببعضها بعضاً، نستطيع التعرف إلى فنها وأصالتها.

لقد ركز النقد اهتمامه بشكل كبير في مادة مصادر المؤلف. من الصعب دون شك في العديد من الحالات، الإشارة إلى المصادر مباشرة، بل من الواجب الحذر في الحديث عن الحكايات

المقابلة: العديد من المواضيع تقدم اختلافات متعددة في نصوص كانت شائعة في العصر الوسيط كما عليه في كتب متنوعة مثل: كتاب القطط Libro de los gatos وكتاب الحب الطيب El libro del buen amor، إضافة إلى مصادر لنصوص فارسية قديمة، والذي يبرز فيه أستاذية دون خوان مانويل بالجمع ما بين مصادر مختلفة من تراث العصر الوسيط والذي يمثل الموضوع فيه بصيغ متباينة ومتعددة. الأكثر قرباً لدون خوان مانويل لا بد أن يكون كتاب «كليله ودمنه»، المجموعة التي أمر بترجمتها في حينه الأمير ألفونسو العاشر. الأكثر وضوحاً كما أسلفنا سابقاً هو تأثير المصادر العربية، والمشار إليها في الأمثل: 10، 15، 20، 21، 24، 26، 30، 32، 35، 41، 46، 47 وغيرها. في أحيان عديدة تتمثل في التقاليد الشفاهية، كما عليه الأمثال أو النواذر البسيطة. على أية حال، التأثير العربي في أعمال دون خوان مانويل لا جدال فيه اليوم وقد كتب فيه النقاد والباحثون العديد من الدراسات، ذلك أن المؤلف الأميركي قد أمضى كل حياته على اتصال مع العرب، كحليف لهم في مرات، ومرات أخرى كعدو. بلا أدنى شك، المهم عند الحديث عن المصادر المستخدمة من قبل مؤلفنا هي تلك الحرافية والفنية المرهفة التي صاغ بها تلك النصوص.

لكن ليس محتوى الحكايات الذي يبدو جديداً ومتنوعاً وحسب؛ بل إن دون خوان مانويل أيضاً صاحب أسلوب مرهف، خبير بالوسائل المتاحة ومدرك لفائدة. من المعتمد فيه استخدام الشخصوص البلاغية، والتقويمات والتردرج الأسلوبي والسيكولوجي في الوقت نفسه، وتناسق العناصر والتقابل وتوزيع الأحكام. فيما يتعلق بالأسلوب، فلا بد من التركيز على معجمه الانقائي الثري، التوصيف المتنوع والمحدد، والجملة المكتنزة بغرضها. إذا كانت اللغة ألفونسو العاشر الحكيم قيمة آلية لا غير، ففي لغة ابن الأخ تحول إلى فن. إن عمله يمثل الانتقال من النثر العلمي إلى النثر الجمالي الذاتي. مثاليته اللغوية تتجلى في الانتقاء، وفي الوضوح والالتزام في الوقت نفسه، كما يستجيب لتلك الغاية في عمله. مقيداً بالجمهور الذي يتوجه إليه، حاول وحقق أن تكون تعليميته لطيفة وسارة: اللغة المزخرفة تستقطب الاهتمام بشكل أفضل. وبهذه الحال وضعت البلاغة نفسها في خدمة الغرض التعليمي والحكائي. الموضوعية البارزة في العمل، على حد سواء مع الأسلوب والبنية، تمضي مقيدة بالغاية التعليمية وبالقارئ الموجه إليه. فالمواضيع التي تطرأ عند دون خوان مانويل هي نفسها التي تبرز في كل التراث التعليمي الأوروبي، لهذا يجب تأطيرها إذاً في إطار السياق المزدهر لآداب العصر الوسيط، حيث التعليم الديني والأخلاقي أو «تربية النساء» يكتسب أهمية كبرى. إن الإيديولوجيا الداعمة لتوجهاته التعليمية، خاصة تفكيره الديني، تعود إلى العقيدة

الدومينيكية: الدفاع عن الانضباط الاجتماعي القائم، المرجعية المتواطدة بالمجتمع، وفكرة المحافظة على الوضع الخاص والأعمال الطيبة المكتسبة منه، تبدو وكأنها تتبع من الفكر المسيطّر في هذه المرجعية الدينية، والتي بطريقة ما تستحوذ إلى طوق نجا للنظام الظبي.

من الصعب تلخيص المواضيع التي تظهر في الكتاب، لأن أغلبية الأمثل تفترض تشكيلاً كوكبية منها. في المخطط الآخر، تبدو المواضيع متعددة الأوجه ومن الصعب تلخيصها. يحاول دون خوان مانويل الإحاطة بكل عناصر التصرف البشري مقدماً لنا معرضاً من الأشخاص والمعضلات التي تشكل الواقع الاجتماعي لعصره والتي هي ذات صبغة عالمية في الوقت نفسه، على الرغم من أن النظرة التي يتبعها هي نظرة النبييل بشكل دائم. وهكذا يبرز موضوع الحرب والسلام والثراء والرذائل والفضائل والوفاء والخديعة والكذب والصادقة. المواضيع التي تظهر في الكتاب لا حصر لها، والعديد منها متداخل مع أمثال أخرى؛ ومع ذلك فهناك بعض المواضيع تبدو واضحة المغزى كما هو عليه موضوع المستشار والشرف والشهرة وال الحرب والمرأة. موضوع المستشار هو موضوع مركزي، ويعتبر دون شك الأكثر أهمية، وعلى الرغم من أنه حاضر في كل النماذج، إلا أنه يبرز بصورة حاسمة في نماذج متعددة.

من المواضيع الأخرى التي من الضرورة أن تظهر بسبب صفات المؤلف الشخصية أو اللحظة التاريخية التي ألف فيها كتابه، كان في زمن الحروب. وعن هذا الموضوع يلجم العديد من المشاهد لتبيّان أثر الحروب، لاسيما أن كل حياته كانت محاطة بالمشاكل والدسائس السياسية، ومنذ وقت مبكر- لم يكن له أكثر من اثنى عشر عاماً- وجد نفسه في خضم النزاع ما بين المسلمين والمسيحيين؛ وهناك وجد فرصاً متعددة ليشارك في المعركة. من المنطقى في مجتمع ينظر إلى الحرب على أنها نشاط أساسى، أن يبرز الموضوع، حتى لو لم يكن بتلك الوظيفة الرئيسة ولا لمكانة «المدافعين» الذين ينتمي إليهم دون خوان مانويل. لقد كانت الحرب للنبييل بمثابة وسيلة للشهرة، واجب دولة ووسيلة للإنقاذ. إن الشرف والشهرة هما عمودان رئيستان في فكر دون خوان مانويل. فهما حاضران بكل الطرق في مجموع الأمثل كلها تقريباً، وقد قرَّنَ كلتا الكلمتين بشكل دائم بأخرى مثل «الفوز» و«جيد» و«الثراء» و«المكانة» و«السلطة».. إلخ.

لقد كان دون خوان مانويل كاتباً مقيداً بزمنه، وبسيرته والطبقة الاجتماعية التي كان ينتمي إليها. بتوجيهه عمله إلى طبقة «المدافعين» قد قيد بنية الكتاب وأسلوبه ومادته. المعضلات يتم طرحها

وحلها من خلال وجهة النظر التطبيقية. في «كتاب اللوكانور»، ينعكس هذا المجتمع بطريقة أقل تنظيمياً لكن ربما بشكل أكثر تعقيداً وثراءً. في هذا الكتاب تبرز بوضوح محاولته في الترفيه؛ فالمذهب القائم في كتبه السابقة يمضي من التنظيري نحو المثالي، لهذا دون خوان مانويل في هذا الكتاب أروع الكلام بما استطاع له من سبيل، ممازجاً ما بين المثال والحكمة والحكاية المتداولة. كل تلك التركيبة التي تجعل من كتابه هذا مرجعاً لفهم عادات وأخلاق وبني مجتمعات بأكملها، وتمكننا نحن القراء فرصة الدخول في عوالم شاسعة وأفكار مهيبة.

كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونويو

هذا الكتاب دونه دون خوان، ابن النبيل الأمير إنفانتي دون مانويل، رغبة منه أن يرشد الناس لما ينبغي عليهم فعله كي يزيدوا من شرفهم وأعمالهم وأحوالهم.² ولি�كونوا أكثر قرباً إلى الطريق المؤدي إلى خلاص أرواحهم. وقد وضع فيه من الأمثال الأكثر نفعاً مما كان قد سمعه، ليعتبر بها البشر ويتعلموا منها. ومن الروعة أن أي شيء يحدث لأي إنسان، أن يجد مثيلاً له هنا مما كان قد وقع لإنسان آخر.

وقد رأى السيد دون خوان وعرف أن الكتب قد تضم العديد من الأخطاء في حال نسخها، فالحروف شبيهة الواحدة بالأخرى، وقد يكتبون حرفًا بدلاً من حرف، فيخطئون ويغيرون المعنى، ومن يقرأها بعد ذلك سيتهم المؤلف دون وجه حق. ولأن دون خوان على علم بذلك، فهو يرجو من يقرأ كتابه هذا أو أي كتاب من تلك التي دونها، إلا يتهمه بالخطأ حتى يطلع على النسخة التي أمر بتدوينها وصححها بيده وبخطه. والكتب التي ألفها، وهي التي كتبها حتى هذه الساعة: التاريخ الموجز، كتاب الحكماء، كتاب الفروسية، كتاب الأمير، كتاب الفارس وتابعه، كتاب الكوندي، كتاب القنص، كتاب العباقرة، وكتاب الأناثيد. وهذه الكتب توجد في دير الرهبان الوعاظ الذي أمر ببنائه في بنیافيل. وعندما تطعون على كتبه هذه، يرجو لا تنسروا الأخطاء التي تقعون عليها إلى إهماله، بل إلى قصر في إدراكه، ذلك أنه تجراً على مواضيع بهذا الشأن.³ لكن الرب يعلم أن غرضه من ذلك هو تعليم من لا حكمة لديهم ولا معرفة بالأدب. ولهذا كتب كل كتبه باللغة الرومانية⁴ وهذا دليل على أنها موجهة للعوام ولمن لهم معارف متواضعة مثله.

ومن هنا تبدأ مقدمة كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونويو:

باسم الرب، أمين.

من بين الأشياء العجيبة الغريبة التي خلقها ربنا والتي أحسن فيها، هو عدم تتشابه وجوه البشر، على الرغم من أن الجميع لهم الملامح نفسها، الواحد مثل الآخر. فالوجوه على صغرها تختلف اختلافاً كبيراً، والأقل غرابة أن تختلف فيما بينها بالإرادة والميول. فلن تجد إنساناً يتتشابه بكل شيء في إرادته ولا في ميوله. سأضع لكم بعض الأمثلة حتى تدركوا ما عنите بشكل أفضل.

إن كل من يحب الرب ويرغب في خدمته، يريد الشيء نفسه. ولكنهم لا يخدمونه بالطريقة ذاتها، ويختلفون في ذلك. وكذلك بالنسبة لمن يخدمون أسيادهم، فكل واحد منهم يرغب في خدمة سيده بشكل مختلف. كذلك بالنسبة لمن يزرون أو يقومون بتربيبة المواشي، فهم يتمتعون ويقومون بالصيد وأشياء أخرى غيرها، وعلى الرغم من أنهم يقومون بالعمل نفسه، إلا أنهم لا يفهمونه ولا ينفذونه بالطريقة ذاتها. بهذا المثال وبأمثال أخرى غيرها من الصعب ذكرها كلها لطولها، تدركون ما أريد قوله إن كل البشر بشر ولكل واحد ميول وإرادة، مما أقل ما يشابه بعضهم بعضاً في هذه الأشياء، كما هي عليها سماتهم. لكن الجميع يتتشابه بقدر كبير على درجة أنهم كلهم يستخدمون ويرغبون ويفضلون من الأمور ما يستحسنونها ويتعلمونها بطريقة أفضل.

لهذا فكل من يرغب في أن يعلم الآخر عنه، عليه أن يقوم بعرضه بطريقة يعلم أنه سيعجب به. لاحظوا أن الأمور الصعبة لا تدخل بعض الرؤوس بسهولة، إما لأن أصحابها لا يفهمونها، أو بسبب نقص في فهمهم. والحال أنهم لا يستمتعون بقراءة بعض الكتب ولا يدركون فحواها. ولعدم استماعهم فهم لا يستفيدون منها ولا يعرفون عنها شيئاً.

لهذا السبب، أنا دون خوان ابن الأمير الإنفانتي مانويل، الضابط الأقدم على حدود مملكة مورسيه⁵ قد كتبت هذا الكتاب بأجمل الكلمات بقدر ما استطعت، وأقحمت بين الكلمات بعض الأمثال كي تكون نافعة لمن يسمعها. وقد عملت بهذا تشبهاً ببعض الأطباء الذين حين يقومون بتركيب دواء نافع للكبد وهو المحب بطبيعته للحلوة، فهم يخلطونه بالسطر أو العسل أو أي شيء حلو آخر. وبما أن الكبد شغوف بكل شيء حلو، فيقوم بجذبه إليه، فينتفع حينها بالدواء الممزوج معه. ويقومون بالعمل نفسه مع أي عضو يحتاج إلى العلاج، مازجین معه ما يملئه عليهم العضو.

بهذه الطريقة، وبعون من ربنا، قد دونت هذا الكتاب، فمن قرأه سيعثر على المتعة في الأشياء التي يجدها فيه. أما من لم يفهمونه جيداً، لا يمكنهم القول إنهم بعد قراءته، لن يقعوا أسرى كلماته الحلوة الرائعة، فلا يتركون قراءة ما يرافقه من أشياء نافعة، ويتعلمون منه دون أن يدركون ذلك، تماماً كما يحدث للكبد والأعضاء الأخرى التي تنتفع من الأدوية الممزوجة بالأشياء التي تميل إليها. لذا أدعو ربنا، التام في كل أفعاله، ببره وإحسانه، أن يهدي الجميع إلى الأعمال الصالحة وأن يعينهم عليها، وأن يرحم ويبارك من يقرأ هذا الكتاب بأن يجعله نافعاً لجسمه ومخلصاً لروحه. والرب يعلم، إنني أنا دون خوان، أقول ذلك بصفاء نية: أما إذا عثروا على أشياء لم أوفها حقها كما ينبغي، فأرجو منهم أن لا يتهموا حرصي واهتمامي، بل إلى جهل مني. وإذا ما عثروا على شيء مفيد ونافع، فليشكروا ربنا لأنه شاء للأقوال والأفعال كلها أن تكون كما ينبغي لها.

وهنا تنتهي المقدمة، ومن الآن فصاعداً سيبدأ محتوى الكتاب، على شكل حوار بين السيد الكبير مع مستشاره. السيد هو «الكوندي لوكانور» والمستشار هو «باترونبيو».

مثال 1

ما جرى لأحد الملوك مع أحد مساعديه

تحدث الكوندي لوكانور ذات مرة مع مستشاره باترونبيو على انفراد، قائلاً:

- باترونبيو، رجل ثري من ذوي الشأن والنفوذ يدعى صداقتى والإخلاص لي، سرني يوماً وقال إنه قد عرض له حادث وكان أن عزم على مغادرة البلاد بلا عودة، وأنه، نظراً لما يكنه لي من مودة وثقة، يريد أن يبيعني أجزاء من أراضيه ويترك الجزء المتبقى في عهدي. ولا أخفيك أن هذا يوافقني ويشرفني، لكنني أرغب في سماع رأيك قبل أن أقرر بشأنه.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- أنت في غنى عن مشورتي ونصحي، ولكنك ما دمت تطلب رأيي، فها أنا أقوم بذلك نزولاً عند رغبتك. في البداية لا بد أن أنبئك بأن ما قاله لك ذلك

الذى تعتقدون أنه صديق لكم إنما ليختبركم فيه، وهو شبيه بما حدث لأحد الملوك مع أحد مساعديه.
رجاه الكوندي أن يحكي له ما حدث.

- سيدى- قال باترونيو- كان لأحد الملوك رجل من رعيته يثق به كل الثقة. لكن البشر مجبولون على حسد الآخرين على ما لديهم من خيرات، وبهذا فقد حسده بقية الرعية على ما له من حظوة لدى الملك. وقد لجأوا إلى كل الحيل الممكنة لتعكير علاقتها. كما اتهموه عند الملك بأشياء جمة، لكنهم لم ينجحوا في الإضرار بسمعته ولا أن يثيروا الملك في مسألة وفائه وإخلاصه. لكنهم عندما فشلوا في كل المحاولات ولم يدركوا أي سبيل إلى ذلك، حذّروا الملك من أن المساعد يسعى لقتله كي يؤول الأمر لابنه الصغير، عندها سيقوم الخائن بالحجر عليه ويسيطر على إرادته ثم يقتله ويستحوذ على الملك. لما سمع الملك هذا الكلام تناهبت قلبه الشكوك والظن السيئ في نوايا مساعد، على العكس من كل المحاولات السابقة التي كانت تخفق بشكل دائم. والإنسان الحازم يسعى للجسم في الأمور العظيمة قبل أن تضيع ويستحيل على المرء استرجاعها، ويفضل بالطبع إنقاء الشر والنأي عنه قبل الأوان. لذا فقد أخذ الملك يحتاط كثيراً من مساعداته منذ أن تناهته الشكوك، لكنه لم يستقر رأيه على فعل شيء حتى يتبين الحقيقة من عدمها. أما المتآمرون، فقد نصحوه بأن يتحقق من قولهم بالحيلة، وكان أن أشاروا عليه بما يفعل، وهو ما كان، وما عزم الملك على تفزيذه.

بعد أيام قليلة اجتمع الملك بمساعده، وبدأ التلميح له في حديث طويل لا نهاية له بأنه قد تعب من الحياة الدنيا وأن كل شيء زائل، واكتفى بتلك الإشارة في تلك المرة. وبعد أيام أخرى، حدثه مجدداً وقال له مرة أخرى وكأنه يكمل ما عناه في المرة الأولى، إن حياته وكل ما يحيط به بدأ يفقد اهتمامه. وكان أنكر عليه الكلام نفسه في مناسبات عديدة وبصيغ مختلفة حتى توصل المساعدحقيقة بأن مليكه قد يئس من الحياة الدنيا وكل ذاتها وكنوزها. عندمارأى الملك أن مساعدته قد اقتنع بما قاله له فأخبره ذات يوم بأنه يسعى لمغادرة البلاد وأنه يبحث عن بلد آخر، حيث لا يعرفه أحد، وهناك يبحث عن مكان منعزل وبعيد ويتوب عن كل ذنبه ويسعى ليتوب عنه الرب ويباركه للفوز بحياة أبدية.

عندما سمع المساعد قول الملك، حاول رده عن عزمه بكل الأسباب والأعذار الممكنة كي لا يقوم بما نوى عليه. فأخبره من ضمن ما قال إنه لا يمكنه أن يتقرب أكثر من الرب بالتخلّي عن

رعاية الناعمين بفضله بالدعة والعدل، وهذا ما سيجلب عليهم الفتنة والنزاعات الأهلية، وهذا ما سيغضب الرب وتخرب بها البلاد، كما أنه إذا لم يجد في كل ما قاله سبباً مقنعاً للرجوع عما اعتزم عليه، فليفكر ولو لمرة واحدة في أمر زوجته وابنه الصغير وما يتهدد حياتهما وأموالهما.

فرد عليه الملك بأنه قد فكر بطريقة يحفظ بها مملكته من الفتن، وهو أن يترك الأمر بيد زوجته وابنه وبها تستمر رعايته على ولائها له. وأخبره بأنه يريد أن يترك الزوجة والابن تحت كفالته وعهده على أن يسلم له أمور كل القلاع والمدن حتى لا يتمرد أحد على ابنه. ثم عبر له عن رضائه بخدمته له وثقته الكبيرة فيه وأنه قد خصه بذلك لثقة به أكثر من أي شخص في العالم، خاصة أنه قد رياه بنفسه وقدم له الكثير مما هو عليه اليوم. كما أضاف الملك قائلاً إنه على يقين تماماً بأنه حين يقرر العودة سيجد كل شيء قد تركه في عهده على أحسن حال، وإذا ما وافته المنية فهو على ثقة بأنه سيخدم المملكة بكل إخلاص وسيربي ابنه أحسن تربية، ويحافظ على سلامة المملكة وأمنها حتى يؤول الحكم إلى ابنه.

حين سمع المساعد بأن الملك يرغب في ترك كل شيء تحت إمرته بما فيها الملكة والابن، فرح بشدة وراح يحدث نفسه بأن يحكم كيفما شاء حتى يجد الأمور مناسبة ويخلو له الأمر.

وأتفق أن كان للمساعد في بيته عبداً أسيراً يخدمه وهو رجل حكيم وفيلسوف كبير وكان من عادته التشاور معه ويطلب نصحه في كل الأمور التي تهمه، دون أن يعارضه في شيء منها. وعندما خرج ذلك اليوم من عند الملك، أسرع إليه وأخبره بكل ما جرى له، ولم يخف فرحة أن الملك يرغب في ترك الحكم والأمير تحت رعايته. عندما سمع العبد الأسيير ما جرى لسيده مع الملك، ورأى ما ينتويه من الاحتفاظ بالابن والمملكة لنفسه، عرف أنه قد أوقع نفسه في الشرك، فأنبأه على ذلك بشدة وحذر من أن حياته وأملاكه قد صارت في خطر، لأن كلام الملك ليس حقيقياً، كما أنه لم يكن يفكر في فعل ما قاله له، بل لا بد وأن أحداً قد دفعه لاختباره، وأنه على وشك أن يرسب في هذا الاختبار. شعر مساعد الملك بالحزن كثيراً إذ تأكد له أن ما يقوله أسييره هو عين الصواب. ولما رأه العبد الحكيم حزيناً ومهموماً أشار عليه بأن يقوم بحيلة تتقذه مما هو عليه.

قام المساعد على النحو التالي: إذ عمد تلك الليلة على حلق شعر رأسه ولحيته، وبحث له عن ثياب مهلهلة مما يلبس الشحاذ المتスクع في الطرق وعلى عصا وحذاء ممزق، وأخفى في بطانية

تلك الثياب كمية كبيرة من الدوبلات النقدية⁶. وفي الصباح الباكر ذهب إلى القصر وطلب من الحاجب أن يوقظ الملك قبل أن يستيقظ أي أحد آخر، وأن ينتظر منه الإذن بالدخول. تعجب الحاجب لحال المساعد، لكنه مضى إلى الملك وقال له ما طلبه منه المساعد. وكان قد أمره الملك بأن يدخله فوراً وهو في دهشة من حاله، وسأله لماذا ارتدى هذه الأسمال. فما كان من المساعد أن يذكر الملك بكلامه وإصراره على مغادرة البلاد، ولأنه لا ينسى أبداً إحسانه له، فقد قرر أن يرافقه ويقاسمه حياة الحرمان والنأي التي يريد أن يفرضها على نفسه كما قاسمها من قبل المجد والعظمة. وإذا كان الملك نفسه لا تعز عليه زوجته وابنه ومملكته، وهو الملك والأب والزوج، فلن يعز عليه هو أي شيء. لهذا قرر أن يرافقه وأن يخدمه بشكل لا يلاحظه فيه أحد. كما أنه قد ملا بطانة لباسه بكمية من المال تكفيهما طول العمر. وأخبره بأن عليهم أن يغادرا فوراً دون أن يتعرف إليهما أحد.

عندما سمع الملك كل ما قاله له مساعدته، اعتقد أنه يفعل ذلك لوفائه الصادق، فأجزل له المزيد من الشكر، وحكي له نية الآخرين اتهامه وأن الأمر لم يكن سوى اختبار له. لقد كان المساعد على وشك الانخداع بسبب طموحاته، لكن الرب قد أنعم عليه بفضل نصيحة الأسير الحكيم في بيته.

وكما ترى سيد الكوندي، إذ ليس من اللائق أن يخدعك من تحسبه صديقاً وفيأ، ولكن على ثقة بأن ما قاله لك ليس سوى اختبار منه لك. لذا عليك أن تقفعه ما أن تلتقيه المرة القادمة، بأنك لا ترغب سوى في مصلحته وأنك لا تطمع في شيء من أملاكه، وأن الصداقات التي تشوبها مصلحة وشك فهي صدقة لا تدوم طويلاً.

ما أن رأى الكوندي أن باترونبيو قد نصحه بأفضل نصيحة، فكان أن عمل بكلامه ومضت أموره على أحسن ما يرام.

ولما وجد الكوندي أن هذا المثال جيداً، عمل على تدوينه في هذا الكتاب، وكتب ما يشير لهذه العبرة في بيتنين شعريين يقولان: لا تنخدعوا، ولا تعتقدوا أنه بلا سبب يؤذى الإنسان نفسه وعن قناعة من أجل آخر.

وبستان آخران يقول فيهما:

بعون من الرب ورأي سيد
يزول هم الإنسان ويحقق مراده.

وحكایة⁷ هذا المثال هي التالية:

مثال 2

ما جرى لرجل طيب مع ابن له

حدث مرة أخرى أن تحدث الكوندي لوكانور مع باترونبيو، فحکى له عن انشغاله بأمر يربى
القيام به. وقال إنه يعرف أن الكثير من البشر سيعيرون عليه فعلته، وسيعيرون عليه إن لم يفعل
أيضاً، وربما يكونون على حق. وبعدهما أطلعه على ما يشغلها، رجاه أن يخبره بما هو فاعل لو كان
في مكانه.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- أعلم جيداً أن هناك من باستطاعته أن ينصحك
أفضل مني، أعلم أن الرب قد منحك رجاحة في الرأي وأنك في غنى عن نصحي. لكنك ما دمت
ترغب في ذلك، سأخبرك بما أراه مناسباً. ولكن قبل ذلك أسمح لي أن أقص عليك ما جرى لرجل
طيب مع ابن له.

رجاه الكوندي أن يخبره بما حصل. قال له باترونبيو:

- سيد، حدث أن كان لرجل طيب ابن، وهذا الابن كان حاد الذكاء على الرغم من صغر
سنّه. وكان كلما رغب الأب في فعل شيء (لأن أشياء قليلة لا تحدث بسبب انتكاسة ما)، حتى يتبهه
الابن للمساوئ التي قد تترجم عن ذلك. وبهذا كان الابن يرد أباً حتى عن ذلك الذي ينفعه، فلا شيء
عنه لا يخلو من عيب مهما اكتمل. وكما تعلم، فإن الشباب الأذكياء لديهم الاستعداد لفعل ما لا
يوافقهم، إذ إن ذكاءهم دائماً ما يدفع بهم لعمل أمور قد لا يدركون كيفية إنهائها. وعلى الأغلب ما
يقعون في الخطأ إذا لم يجدوا بالقرب منهم من ينصحهم. وعليه ففي مناسبات عديدة، أصبح الفتى

عائقاً في طريق أبيه بسبب ذكائه وقلة تجربته. لقد تحمل الأب ابنه طويلاً على الرغم من الإزعاج من الأضرار التي لحقت به بسبب امتناعه من فعل بعض الأمور لانتقادات الابن المستمرة. في النهاية فر الرجل أن يقوم بما سأقصه عليك الآن لتكون عبرة له وليدرك ما عليه أن يقوم به بعد ذلك.

كان الرجل الطيب وابنه فلاحين يعيشان قرب إحدى القرى. في يوم ما طلب الأب من ابنه أن يرافقه إلى السوق لشراء بعض الأشياء التي يحتاجانها، وأخذها معهما دابة. وسار الاثنان إلى جانب الدابة ولم تكن تحمل على ظهرها أي حمولة، ومر بهما بشر قادمون من تلك البلدة التي يقصدانها. وبعد أن تبادلوا التحية وافترق كل في طريق، قال أولئك البشر إن الأب والابن أحمقان تماماً لأنهما يسيران على أقدامهما بينما الدابة في راحة. عندما سمع الرجل الطيب كلامهم، أراد أن يعرف رأي ابنه فيما قالوه. فقال له الفتى إنه من غير المعقول ألا تحمل الدابة أي شيء على ظهرها. عند ذلك أمره الرجل الطيب أن يقوم برکوبها.

وبينما هما على تلك الحال، مر بهما أناس آخرون، فقالوا بمجرد أن ابتعدوا عنهما بأنه ليس من الصواب أن يسير هذا الرجل على قدميه وهو رجل مسن ومتعب ويركب الدابة الفتى القوي. عند ذلك سأله الرجل الطيب ابنه عن رأيه فيما يقولون. فقال له الفتى إنهم على حق فيما قالوه. فقام بإinzاله وركب هو مكانه على متن الدابة.

بعد وقت قصير صادفاً أناساً آخرين، فقالوا إنه من الحماقة أن يمشي الفتى على قدميه وهو مازال غضاً ولا قدرة له على تحمل مصاعب الطريق، بينما يركب الأب وهو قادر على تحمل المصاعب. عندئذٍ سأله الرجل الطيب ابنه عن رأيه فيما قالوه. فأجاب الفتى بأنهم على حق. فكان أن أمر الرجل الطيب ابنه بأن يركب معه على ظهر الدابة حتى لا يبقى أي واحد منهما ماشياً على قدميه.

فكان أن تابعاً طريقهما على تلك الحال حتى صادفاً أناساً آخرين، فقالوا لهما إن الدابة هزيلة جداً وإنها بالكاد تستطيع السير وحدها، وبهذا يقتربان ذنبًا كبيراً برکوبهما معاً على ظهرها. فسأل الرجل الطيب ابنه عن رأيه فيما قالوه. فأجابه ابنه بأنهم على حق فيما قالوه. عند ذلك قال له الأب: - يا بني، تعلم جيداً أنه عندما خرجنا من البيت مشياً على الأقدام ترافقاً الدابة دون أي حمل، وافت

على الأمر. وعندما التقينا بشراً في الطريق وانتقدوا حالنا ذاك، أمرتك بالركوب وبقيت أمشي مرتجلاً، ووافقت على ذلك أيضاً. بعدها صادفنا بشراً آخرين وقالوا إن ذلك ي جانب الصواب، فنزلت أنت وركبت أنا مكانك، وقد بدا لك أمراً صائباً أيضاً. ثم تصادفنا بقوم آخرين قد عابوا علينا ذلك فأمرتك أن ترک خلفي على الدابة، فقلت في حينها إن ذلك الحل أفضل من أن تمشي على قدميك وأركب على الدابة وحدي. والآن هؤلاء الذين التقيناهم يقولون إنه ليس من الصواب أن نركب معاً على متن البهيمة، فتوافقنا معهم في رأيهم أيضاً. وبما أنك لا تستطيع إنكار أي شيء من كل هذا، لذلك أرجوك أن تخبرني ما علينا أن نفعله حتى لا يُعب علينا شيء: لقد وجدوا أننا نخطئ بمشينا راجلين معاً، ونخطئ بينما تركب أنت وأمشي أنا، ونخطئ في حال صعدت أنا على الدابة وأنت تمضي ماشياً، والآن ونحن نمضي معاً على ظهر الدابة يرون أننا خاطئين. تعرف جيداً أن علينا أن نفعل شيئاً واحداً من هذه الأمور، وهم يعيبون علينا كلها. وفي هذا عبرة لك كي تعرف كيف تمضي أمور أعمالك، ولتكن على يقين بأن لا شيء يلقي قبول جميع البشر. فإذا قمت ب فعل الخير، سيعيب عليك الأشرار ومن لا مكسب لهم من وراء ذلك. وإذا قمت ب فعل السوء، فسيعارضك الآخيار على ذلك ولن يوافقوا على السوء الذي قمت به. عليه إذا شئت أن تقوم ب فعل ما يليق بك، فافعل ما تراه مناسباً ونافعاً لك، على شرط ألا يكون عملاً سيئاً. ولا تترك شيئاً عليك أن تقوم به خشية أقوال البشر، ذلك إنهم يقولون أول ما يخطر على بالهم دون تريث أو تفكير بما يناسب حقاً.

- لهذا سيدى الكوندي، وأنت تطلب مني النصح في شأن تريده، لكنك تخشى أن ينتقدك الناس، وأنت متتأكد أنهم سيقومون بالفعل نفسه إذا ما تركته. لذلك أنصحك بهذا: أن تنظر إلى الأمر فيما ينجم عنه ضرر أو فائدة قبل أن تشرع فيه، وألا تثق تماماً بقراراتك حتى لا تندفع بغير ادراك، بل أطلب النصح من أهل الرأي القادرين على كتمان الأسرار. وإذا لم تعثر على أحد من هؤلاء الناصحين، فإني أحذرك أن تتخذ قرارك تحت سطوة الغضب، بل اصبر يوماً وليلة على الأقل، إذا كان الشأن يتقبل التأجيل ولا يضيع مع الوقت. بعد هذه الأشياء التي عليكم فعلها، وترون إن كانت جيدة ومناسبة، أنصحكم بأن لا تدعوا فعل ما يوافقكم خشية مما يقول الناس.

رأى الكوندي أن باتروننيو قد أحسن نصحه. فعمل بكلامه وسارت الأمور على خير ما يرام.

وعندما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه في الكتاب، وألف هذين البيتين الشعريين ملخصاً فيما كل حكمة هذا المثال. والبيتان يذكران التالي: إن لم يكن عملاً سيئاً ما تقوم

فلا تخشى من الناس، وافعل ما يأمرك به عقلك.

مثال 3

عن وثبة ملك إنكلترا إلى البحر في حربه ضد المسلمين

اختلى يوماً الكوندي لوكانور بمستشاره باترونويو وقال له:

- باترونويو، أثق كثيراً في رأيك وأنا على يقين تمام بأنك لن تفعل إن لم تعرف شيئاً أو لم تتوصل إلى فهمه، لكن لا أحد آخر غيرك قادر على ذلك. لذا أرجو أن تتصحن بأفضل ما تستطيع فيما سأعرضه عليك: تعلم جيداً أنني قد تجاوزت سن الشباب، وأنني ولدت وعشت دائماً وسط الحروب، ضد المسيحيين أحياناً وأخرى ضد المسلمين،⁸ ضد ملوك آخرين وضد سادتي وجيرانى. وعلى الرغم من محاولتى الدائمة إلا أذكي الحروب بين المسيحيين، لكنها تتشبّه وتصيب شرارتها العديد من الأبرياء. لهذا وللتکفير عن معاصٍ أخرى ارتكبها في حق الرب، ولأن لا شيء ولا أحد في هذه الدنيا يمكنه أن يضمن لي أنى لن أموت اليوم، أو أن أعيش طويلاً مهما امتد بي العمر. وبما أنني على يقين تمام أنني سأقف بعد موتي لأحاسب أمام الرب، وحينها لن تنفعني حيلة لسانى عما سينظر فيما فعلته من شرور أو خير. فإذا ما غضب الرب مني، فلا نجاة لي من عذاب الجحيم الأبدي. وإن شفعت لي أعمالى الحسنة وكتبت لي أن أكون في الفردوس رفقة العادلين، فلا شيء في الدنيا يعادل ذلك النعيم والخير الذي لا يمكن إدراكه إلا بالعمل الصالح. لذا أرجو منك أن تفكّر وأن تتصحن، حسب مكانتي وشرفي، عن أفضل توبة أتوجه بها لرضاء الرب عن كل زلاتي.

- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونويو - لقد سرني كلامك جداً، خاصة وأنك تطلب مني النصح تبعاً لشرفك ومكانتك، فلو أنك قد طلبت غير ذلك لظننت أنك تحاول اختباري، كما فعل ذلك الملك الذي حدثتك عنه في مرة سابقة مع أحد مساعديه. يسرني جداً أنك تتوبي التوبة تبعاً لمكانتك،

فالحق يا سيدي الكوندي أنك لو أردت اليوم أن تغادر العالم لتعانق الدين أو لتعيش في عزلة، فلا مفر لك من أمرين: الأول أنك سوف تتعرض لهجوم البشر الذين سيعيرون عليك ضعف العقل، لا سيما أن قلبك قبل اليوم لم يكن يحب رفة الصالحين. أما الثاني، فمن الصعب عليك أن تتحمل الحياة الحشنة في الديار فتنسحب منه أو أن تبقى فيه دون تقيد بقواعده كما يجب أن يكون، وبهذا ينبع ضرر لروحك ولجسدك وسيلحق بك عار كبير ويتطاخي شرفك. لكن بما إنك تريد التوبة تبعاً لمكانتك، فإنني أود أولاً أن تعرف ما أسر به الرب راهباً تقياً عن وقائع كانت ستحصل له ولملك إنكلترا.

طلب منه الكوندي أن يحكى له ما جرى.

- سيدي الكوندي- قال باترونبيو- كان هناك راهب يعيش حياة تقوى وزهد، وكان مكثراً من أفعال الخير والتوبة طمعاً في غفران الرب ورضاه. فكان أن استجاب له الرب وبشره بالفردوس. شكر الراهب الرب على هذه البشارة، وبعد أن تيقن مما حصل عليه، سأله الرب عمن يمكن أن يكون رفيقه في الجنة. وكان الرب قد أرسل له مرات عدة بملائكة كي ينبهه إلا يسأل عن هذا، إلا أن الراهب كان لوحجاً إلى درجة أن الرب قرر أن يجيئه بما أراد. فقال له عن طريق ملائكة أن رفيقه في الجنة سيكون ريتشارد ملك إنكلترا. عند هذا حزن الراهب بشدة، فقد كان على معرفة بسيرة هذا الملك المملوءة بالحروب والقتل ونهب البشر، وهي بعيدة كل البعد عن طريق خلاص الروح، ولذلك استاء من هذه الإجابة.

عندما رأى الرب حالته، بعث إليه بالملك ليأمره إلا يتشكى من ذلك ولا يتعجب مما قيل له، لأن الملك ريتشارد قد قام بوثبة عظيمة قد نفعته واستحق عنها الجنة أكثر بكثير من كل أعماله الصالحة الأخرى. وهذا ما زاد من عجب الراهب فطلب من الملك أن يوضح له ذلك.

قال له الملك، إن ملوك فرنسا وإنكلترا ونابارا، أبناء توجههم إلى الأرضي المقدسة، وقد وصلوا الميناء مدججين بالسلاح وعلى أهبة النزول إلى اليابسة، كانوا قد رأوا عند الساحل حشدًا هائلًا من المسلمين فتهييوا الأمر. وكان أن بعث ملك فرنسا بطلب ملك إنكلترا ليجتمعوا على مركبه ويتشاورا في الأمر. بعد أن سمع ملك إنكلترا دعوة رسول ملك فرنسا، أمره وهو على صهوة جواده بأن يعود ليخبر ملكه أنه غارق في ذنوب الدنيا، وأنه قد دعا الرب دوماً أن يوفر له الفرصة للتکفير

عن كل خطاياه، ولا بد أن اليوم قد حان. فهو إن لقي الموت فهو واثق من رحمة رب ذلك أنه قد تاب أمامه وقام بواجب الاعتراف قبل أن يغادر دياره. أما إذا تمكّن من هزيمة المسلمين فسيكون من المحظوظين وستكون تلك خدمة للرب كبيرة. وعندما انتهى مما أراد قوله، وهب روحه وجسده للرب ورجاه المعونة ومن ثم رسم علامه الصليب على صدره وأمر رفاته أن يتبعوه. لكي الحسان بمهمازيه ووتب معه إلى البحر. وعلى الرغم من قربهم من الميناء إلا أن البحر كان عميقاً بحيث إن الملك وفرسه غطساً فيه للتو. لكن الرحيم القادر على كل شيء، وهو الذي يذكر في الإنجيل⁹: أنه لا يريد الهاك للمذنب، بل أن يتوب ويُعمر. لهذا أعاذه ملك إنكلترا وأنقذه من الموت في الحياة ومنه الحياة الدائمة في الآخرة، ونجاه من خطر المياه. فتوجه لقتال المسلمين.

عندما رأى الإنكليز ما فعله ملکهم، وثبوا خلفه وهجموا معاً على المسلمين. ما أن رأى الفرنسيون أنه من العار أن يقفوا مكتوفي الأيدي، فكان أن دبت فيهم روح المنافسة النبيلة، فوثبوا إلى المياه هم أيضاً. أما المسلمون وقد رأوا هم يندفعون باتجاههم بكل شجاعة وإصرار غير متهيدين من الموت، خافوا منهم أشد الخوف وهرموا تاركين الميناء خالياً من الجيش. وما أن حل المسيحيون في الميناء حتى قتلوا الكثير من الفلول المتاخرة عن الهرب وحققوا نصراً مبيناً. وبذلك قدموا خدمة جليلة للرب، وقد كان سر النصر يكمن في تلك الوثبة التي وثبها ملك إنكلترا في البحر.

عندما سمع الراهب كلام الملك فرح به فرحاً عظيماً، وأدرك أن رب قد مَنْ عليه برفة
رجل قد خدم الرب والعقيدة المسيحية خدمة لا تضاهى بأخرى.

وأنت سيدи الكوندي لوكانور، إذا شئت أن تخدم رب وترضيه لتكفر عن ذنوبك التي ارتكبها، فالحرص قبل خروجك من ديارك، على أن تصلح كل ما تسببت به من أضرار وتتوب توبة نصوحًا عن كل ذنبك ولا تلتقط إلى الدنيا وأحوالها فهي دار غرور. ولا تصدق من ينصحك بالحرص على زيادة في نفوذك وسلطتك، ذلك أنه لا يفكر في الصعوبات والمشاق التي تترجم عنها، ولا يأخذ بعين الاعتبار كيف انتهى كل أولئك الذين اتبعوا الطريق وإلى أي حد قد صمدوا هم ونفوذهم وكل ما يملكون من أطيان.¹⁰

وأنت سيدي الكوندي لوكانور تقول إنك تريد رضاه وخدمة رب، فأنا صاحب ألا تتبع طريق الغرور والتجبر وقد منحك رب أطياناً وأملاكاً يمكنك أن تدفع بها أخطار المسلمين في البر وفي

البحر، لذا ابدل ما في وسرك لكي تحافظ على كل ما لديك، فإذا ما فعلت ذلك وكفرت عن ذنوبك فسيرضي عنك الرب ويجازيك خيراً، ويمكنك حينئذ أن تزهد في كل شيء وتتقرّغ لخدمة الرب. وهو ما أراه كأفضل طريق لخلاص روحك دون أن ينال ذلك من مكانتك وشرفك. وتأكد كذلك أنك بخدمتك للرب بهذه الطريقة فلن تموت قبل أجلك، كما أنك لن تعيش أكثر مما هو مقسم لك لو مكثت في ديارك. وإذا ما سقطت ميتاً في خدمة الرب، وأنت على تلك الحال التي وصفتها لك، فستموت شهيداً وتدرك الجنة. ولو أنك لم تسقط صریعاً في المعركة لكن رغبتك في ذلك وأعمالك الصالحة ستجعل منك شهيداً.¹¹ وعندها لن يستطيع أحد الانتقاص منك، ذلك أنه يرى بعينه أنك لم تتخلى عن عملك كفارس نبيل، ويرى رغبتك الكبيرة أن تكون واحداً من فرسان الرب لا من فرسان الشيطان والحياة الدنيا الفانية. لقد ذكرت لك سيدى الكوندي، كما طلبت مني، نصيحتي في إنقاذ روحك دون أن تؤدي بمكانتك. وبهذه الطريقة ستتفاوض وثبة ريتشارد ملك إنكلترا السعيد وعمله البطولي عند نزوله البحر.

أعجب الكوندي لوكانور كثيراً بنصيحة باترونبيو، ودعا الرب أن يوفقه لما يريد أن يفعل وفق ما قاله له باترونبيو. والسيد خوان وقد رأى العبرة الصائبة في هذا المثال، فقد أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات التي تقول: من يعد نفسه فارساً

فما عليه سوى أن يقوم بالوثوب،

وإلا فليكن الدير مرقده

والاختباء خلف جدار عالٍ.

مثال 4

ما قاله رجل من مدينة جنوا
لروحه وقد وافته المنية

في يوم آخر تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باتروننيو، وقصّ عليه الأمر على النحو الآتي: - باتروننيو، لقد أنعم علىّ الرب بأراضٍ خصبة ومنحي السلام وأعطاني كل ما أحتاج إليه لأسدّ به حاجتي حسب ما تتطلبه مكانتي بل وأكثر. ورأيت أن البعض ينصحني بأن أقوم بمخاطر لست على ثقة في نجاحها، وعلى الرغم من مليء إليها إلا أنني ارتأيت ألا أعمل شيئاً حتى أتحدث إليك وأستمع لنصحك فيه.

- سيدِي الكوندي لوكانور- قال باتروننيو- لكي تقوم بما يوافق رغبتك، أود لو تعرف ما حدث لرجل من مدينة جنوا¹² وقد وافته المنية.

فرجاه الكوندي أن يحده عما كان من ذلك الأمر.

فحدثه باتروننيو قائلاً:

- سيدِي الكوندي لوكانور، كان في مدينة جنوا رجل ثري جداً ومحظوظ لدى أصحابه. وكان أن أصيب بمرض عضال وشعر بأن ساعته قد أزفت وأنه قد بدأ يحضر. فأرسل يطلب أهله وأصحابه. ولما اجتمعوا كلهم عنده بحضور زوجته وأبنائه، اتخذ لنفسه مجلساً بينهم في قاعة رائعة تطل على البحر وعلى جزء من الشاطئ. وطلب إحضار كل ثروته من مال ومجوهرات، وبدأ يتحدث إلى روحه مازحاً وهو يقول: - أيتها الروح أرى أنك تريدين مفارقتي ولا أعلم لماذا؟ فإذا كنتِ تبحثين عن زوجة وأبناء فها هم أمامك فهلا رضيت بذلك. وإذا كنتِ تبحثين عن أهل وأصحاب، فأمامك الكثير منهم وجلمهم أمناء مخلصون؟ وإن كنتِ تبحثين عن الذهب والفضة والأحجار الكريمة والمجوهرات والطناfas وبضائع للمتاجرة، فلما هنا ما يغريك عن أي شيء آخر؟ وإن كنتِ تبحثين عن السفن والمراكب لتتأتيك بالثروات والجاه الكبير، فها هي أمامك، وما لا ترينـه من هذا القصر فلأنـها تمخر في البحر الآن؟ ولو كنتِ تبحثين عن الضياع والبساتين الغناء، فانظري منها ما لديك من هذه النافذة. وإذا كنتِ تبحثين عن الخيول والبغال والطيور وكلاب الصيد للتسليـة، أو تبحثين عن الشعراء المنشدين ليدخلوا عليك السرور والشجن، أو عن مضاجع مملوءة بالأسرة والفراش وكل ما تحتاجـين إليه، فلن ينقصك منها شيء. لكنـك لا ترغـبين في أن تستـمعـي بكلـ هذه الثروـات والـخيرـات علىـ كثـرـتها، وتقـضـلـين السـيرـ إلىـ حيثـ لا تـعرـفـينـ، فـسـحقـاًـ لكـ منـذـ الآـنـ وـبـعـدـ حينـ ولـيرـاقـكـ غـضـبـ الـربـ، وـسـأـكـونـ منـ السـخـافـةـ بشـيءـ لوـ حـزـنـتـ عـماـ سـيـلـحـقـ بـكـ منـ شـرـورـ وـأـذـىـ.

- وأنت سيدى الكوندي لوكانور قد أنعم عليك الرب بالسلام والراحة والجاه، فلا أرى من الحكمة أن تمضي في مغامرة غير مؤكدة سوى أنهم قد نصحوك بذلك. إذ ربما أخبرك من أشار عليك بها لعلمه بأنك سوف تضطر إلى الخوض فيها تلبية لرغبته، لا أن يلبوا هم رغباتك كما عليه في آمن الأيام. وربما ظنوا أنهم سيزدادون قوة وربحاً للغائم المحروميين منها وقت السلم، وعندها يحدث لك ما جرى لرجل جنوا مع روحه. وأنصحك فيها بأنك ما دمت قادراً على العيش بدعة سلام فلا تلقي بنفسك إلى التهلكة في أمور تخاطر فيها بكل ما تملك.

أعجب الكوندي بنصيحة باتروننيو، وعمل بها فسارت أمره على خير ما يرام.

ولما كان المثال من الروعة، فقد عن له ألا يكتب هنا أي بيت شعري، بل يذكر عيرة متداولة ترددتها عجائز قشتالة، والمثل يقول: من يجد الراحة في مجلسه، فلا يقوم عنه.

مثال 5

ما جرى لثعلبة مع غراب يحمل قطعة جبن في منقاره

في مناسبة أخرى تكلم الكوندي لوكانور مع مستشاره باتروننيو، فقال له:

- باتروننيو، واحد من يدعى صداقتى جاء يمدحني ويقول إننى ذو شرف وجاه ونفوذ. وبعد مدحه لي اقترح علىّ أمراً في تجارة، للوهلة الأولى، اعتقد أنه يوافقني.

ثم أخبره الكوندي بما اقترحه صديقه من تجارة. وعلى الرغم من أن الأمر بدا نافعاً للوهلة الأولى، لكن باتروننيو فطن إلى ما يخفيه من خداع تحت طيات كلماته المعسولة، فقال للكوندي: - سيدى الكوندي لوكانور، أعلم أن هذا الرجل إنما يريد خداعك، زاعماً أن جاهاك ونفوذك أكبر مما هو عليه في الحقيقة. ولكي تنجو من سوء عقاب الخديعة التي يدبرها لك، أرغب في أن تستمع إلى ما حصل للغراب مع الثعلبة.¹³

فسأله الكوندي ما كان من ذلك الأمر.

- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونيو - يُحکى أن غرابةً عثر على قطعة جبن كبيرة فحملها وحط بها على شجرة ليتلذذ بأكلها براحة وبعيداً عن أي إزعاج. ووافق أن مرت من هناك ثعلبة ورأت بعينيها الغراب مع قطعة الجبن، وراحت تفكر في حيلة لتسليها منه. فراحت تحدثه: - سيدى الغراب، لي زمن وأنا أسمع عن كمال خصالك وعن جمالك الفريد. وقد بحث عنك كثيراً، لكن حظي العاثر أو ربما هي إرادة الرب، قد شاءت ألا التقيك حتى هذه الساعة، وهذا أنا أجده أفضل مما توقعت. ولكي تعرف أنني لا أتزلف إليك، فلن أكتفي بذكر صفاتك التي يمتحنك عليها الناس، بل سأذكر لك أيضاً نقصان ما يعيبونك فيها. يذكر الجميع أن ريشك وعينيك ومنقارك وساقيك وقائمتيك ومخالبك كلها سوداء اللون، والأسود لون قبيح يجعل منك دمياً جداً. لكنني لا أرى أنهم على صواب فيما يقولون، لأنهم لم يتمعنوا في بريق ريشك وانعكاساته الزرقاء الشبيه بريش الطاووس، وهو من أزهى طيور العالم. كما أن العيون السود هي من أجمل العيون قاطبة، بالإضافة إلى أن السواد يقوى النظر، وليس للعيون من وظيفة غير الرؤية. كما أنه لون مناسب لها، ثم ألا ترى عيون الغزلان وهي الأكثر سواداً بين الحيوانات، والتي تلقى القبول والاستحسان عند كل البشر. ثم إن منقارك ومخالبك أقوى بكثير من أي طائر آخر في حجمك نفسه. وأنت أيها الغراب عندما تطير تمضي بخفة كبيرة ممزقاً الريح مهما كانت شديدة، وهذا ما لا تفعله الطيور إلا بمشقة وصعوبة جمة. بعض النظر عن كل هذا، فأنا متأكدة أنك مخلوق كامل للغاية، ولم يحررك الرب، خالق كل شيء، من موهبة الغناء، التي أنت بها أحسن بكثير من بقية الطيور الأخرى. والآن وقد تمت نعمة الرب برؤيتك، وقد وجدت فيك كمالاً أكثر مما توقعت، سأكون مبتهجاً وممتناً لك لو سمحت لي بسماع صوتك المفرد.

لاحظ سيدى الكوندي لوكانور، أن نية الثعلبة هي خداع الغراب، لكنها مع ذلك كانت صادقة في كل ما قالت له. فتذكر أن الخداع السيئ والأشد ضرراً يُقال بصدق خادع.

لما سمع الغراب مدح الثعلبة وصدقها في أشياء عديدة مما قالت، اعتقد أنها تقول الحقيقة في كل شيء، فاعتبرها من الأصحاب ولم يشعر بطعمها في قطعة الجبن. فكان أن استجاب لطلباتها متأثراً بمديحها ففتح منقاره ليغرد، لكنه ما أن فتح فمه حتى سقطت قطعة الجبن على الأرض

فتناولتها الثعلبة وهربت من فورها. وهكذا انخدع الغراب بما قالته الثعلبة، متوهماً بكلامها أنه جميل وكامل الخلقة مما هو عليه فعلاً.

وأنت سيدи الكوندي لوكانور، لقد أنعم عليك الرب بكل شيء، غير أن ذلك الرجل حاول أن يقنعك بأنك تستحق أكثر مما هو عندك وأن نفوذك أكبر بكثير. وهو لا بد أنه يرحب في خداعك، ومن الفطنة أن تحترس منه.

استحسن الكوندي ما قاله له باترونبيو واتبع نصيحة ولم يقع في الشرك.

ولما فهم دون خوان بأنه مثال جيد، فقد أمر بتدوينه. وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية: من
يمدحك بما ليس فيك
فاعلم أنه يريد سلبك ما لديك.

مثال 6

ما جرى للسنونو مع الطيور الأخرى
عندما حل موسم زراعة الكتان

تحدى الكوندي لوكانور يوماً مع مستشاره باترونبيو، فقال له:

- باترونبيو، قيل لي إن جيراناً لي، وهم أكثر نفوذاً مني، يجتمعون بالخداع والفنون الشريرة للإيقاع بي ويستعدون لإيذائي. أنا لا أصدق ذلك كما لا أهابهم. ولأنني أثق بك، أسألك أن تخبرني ما يجب فعله في هذه الحالة.

- سيدي الكوندي لوكانور- أجاب باترونبيو- لكي تعمل ما أراه موافقاً لك، أرغب في أن
تعرف ما جرى للسنونو مع الطيور الأخرى.
فسأله الكوندي لوكانور عما جرى له.

- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونبو - شاهد السنونو رجلاً يقوم ببذر حبوب الكتان، ففهم بذاته الثاقب أن الكتان إذا نما فسوف يصنع منه الرجل شيئاً وحبلاً لصيد الطيور. فمضى مباشرة، حيث الطيور الأخرى وجمعها وقال لها إنه شاهد رجلاً يزرع الكتان، وأكدها أنه حين ينمو سوف يتسبب لهم في متاعب جمة. وكان أن نصحت الطيور بأن تقتضي على المحصول قبل أن ينمو، وأن الوقاية من الداء أفضل في البداية وإنما فمن الصعب مواجهته فيما بعد. لكن الطيور الأخرى لم تكرر له ولتحذيره، وامتنعت عن فعل كل ما اقترحه عليها. راح السنونو يصرّ عليها كثيراً حتى يئس من الطيور التي لم تكرر له بالمرة. وحين نما الكتان ولم يعد بإمكان الطيور اقلاعه بمخالبها ومناقيرها، ورأة أن الوقت قد أزف لدفع الخطر المحدق بها، ندمت جداً على عدم سماعها نصيحة السنونو، ولكن لا ندامة بعد حين.

قبل ذلك، كان السنونو وقد رأى عدم اكتراث الطيور الأخرى بالأخطار المحدقة بها، مضى إلى زارع الكتان ووضع نفسه تحت حمايته، فرحب الأمان له ولطيور السنونو الأخرى، ومنذ ذلك الحين وطيور السنونو تعيش بأمان وفي حماية البشر. أما الطيور الأخرى التي لم تهتم بالأمر، فقد أصبحت عرضة للصيد بالحبال والشباك.

- أما أنت سيدى الكوندي لوكانور، فإذا رغبت في حماية نفسك مما تخشى أن يصيبك، فلاتحترس ولتحذر الأمور قبل وقوعها، وليس من يحترس ذلك الذي يرى الأشياء عندما تقع، بل هو من ينتبه للضرر من إشارات صغيرة أو أي حركة ليتفاداه قبل وقوعه.

ولما فهم دون خوان بأنه مثال جيد، فقد أمر بتدوينه. وكتب هذين البيتين القصيرتين لتلخيص هذا المثل. والبيتان يذكران: **على المرء ومنذ البداية**
أن يتتجنب وصول الضرر إليه.

مثال ٧

ما جرى لامرأة تدعى دونيا تُثوهانا

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونبيو فقال له:

- باترونبيو، نصحي رجل في أمر ما، وبين لي كيف يمكنني أن أفعله، وأؤكد لك أن به مفعمة كبيرة، وسأستفيد كثيراً فيما لو تحقق بمشيئة الرب، حيث ستهال على الأرباح والفوائد الواحدة تجر الأخرى حتى تصير عظيمة.

وبعد أن حكى لباترونبيو عن ماهية ذلك الأمر، أجابه باترونبيو قائلاً:

- سيد الكوندي لوكانور، دائماً ما سمعت أنه من الحزم التمسك بالواقع على حقيقته، وليس كما نتوهمه، فكثيراً ما يحدث لمن يثق في خياله أن يحدث له ما وقع للسيدة دونيا تروهانا.

فسأله الكوندي ما جرى لها.

- سيد الكوندي لوكانور - قال باترونبيو - كان هناك امرأة تدعى دونيا تروهانا، وهي أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى، مضت ذات يوم إلى السوق حاملة جرة عسل على رأسها. وراحت تفكر وهي في الطريق بأنها لو باعتر جرة العسل تلك وتشتري بثمنها بيضاً فينفس عن دجاجات، وبثمنها تشتري نعاجاً، ثم راحت تشتري بالأرباح ما تشتري حتى رأت نفسها وقد أصبحت أكثر ثراءً من جاراتها.

وفكرت في أنها بتلك الثروة المزعومة سوف تزوج أبناءها وبناتها، وتسيير في الشارع محاطة بأصحابها وكناتها وسوف يتكلم الجميع عن حظوظها السعيدة وقد صارت ثرية بعد أن عانت الفقر المدقع.

بينما كانت تفك في كل ذلك بدأ تضحك بسرور وهي تخيل كل ذلك، ثم ضربت بكتها على جبهتها من فرط السعادة، فسقطت الجرة وتهشممت على الأرض إلى قطع كثيرة. عندما رأت جرتها مهشمة، بكاء حاراً وكأنها فقدت كل ما كانت ستحصل عليه لو أن الجرة لم تقع على الأرض وتحطم. كانت قد ركزت ثقتها في آمال باطلة ولم تحصل منها في النهاية على أي شيء.

وأنت سيد الكوندي، إذا رغبت في تحقيق كل تلك الأمور التي حدثوك عنها والتي فكرت أنت نفسك فيها، فاحرص على أن تكون ممكنة الحدوث وليس مجرد آمال باطلة ومشكوك فيها.

وإذا أردت أن تجرب تلك المحاولة، فلا تخاطر بأي شيء من أجل الحصول على ربح لست متيناً منه.

استحسن الكوندي ما قاله له باترونبيو وعمل به فسارت أمره على خير ما يرام.

ولما أعجبه هذا المثال فقد أمر بتدوينه، ثم كتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

تمسّك بالأشياء المؤكدة

وابعد عن الآمال الباطلة.

مثال 8

ما جرى لرجل اضطروا إلى غسل كبدة

مرة أخرى كان الكوندي لوكانور يتحدث مع مستشاره باترونبيو، فقال له:

- باترونبيو، إن الرب قد منَّ عليَّ بنعِمٍ وفيه وفيرة ومتعددة، لكنني مع ذلك أجد نفسي اليوم في حاجة ماسة إلى المال. وقد يضطرني ذلك إلى بيع إحدى الضياع العزيزة عندي أو لعمل شيء يزيدني ألمًا وسيكون ضرره مثل ذلك تماماً. ولن أتخلص من الضائقـة التي ألمت بي إلا بعمل ذلك. وفي هذه اللحظات العصيبة التي قد أضطر فيها إلى فعل ما يشق عليَّ، جاء منْ يطلب مني المال وأنا على يقين بأنهم ليسوا في حاجة ماسة إليه. وبما أنني على ثقة بمعرفتك ورأيك الصائب، فأرجو أن تخبرني بما عليَّ أن أقوم به من وجهة نظرك.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- أعتقد أن ما يحدث لك مع هؤلاء الناس هو ما حدث لرجل مريض جداً

فسألـه الكـونـدي عـما جـرى فـي ذـلـكـ.

- سيدى الكوندي- قال باترونبيو- لقد مرض رجل مرضًا شديداً فقال له الأطباء إنه لن يشفى من علته إلا إذا فتحوا له خاصرته واستخرجوا كبده وطهروه بأدوية نافعة لتخلصه مما أصابه. وأنثاء العملية الجراحية والرجل يتأنه من الألم بينما الطبيب يعالج كبده بين يديه، راح رجل كان بجانبه يطلب منه أن يقطع من كبده قطعة ليمنحها لقطه.

وأنت سيدى الكوندي لوكانور، إذا أردت أن تجني على روحك بإعطاء أموالك لمن ليسوا في حاجة إليها، فذلك سيكون بإرادتك وليس بنصح مني أبداً.

شكر الكوندي ما قاله له باترونبيو وحرص على الاقتداء به في المستقبل وكانت أن سارت أموره على خير ما يرام.

ولأنه رأى أنه مثال جيد، فقد أمر دون خوان بتدوينه في كتابه هذا، وكتب فيه هذه الأشعار:
إن لم تعرف ما عليك أن تهبه
سوف ينقلب عطاوك شرّاً عليك.

مثال ٩

ما جرى للجوادين مع الأسد

تحدى الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونبيو ذات يوم وقال له:

- باترونبيو، لقد طال العداء بيني وبين أحد الناس وتبادلنا السوء بالسوء حتى فسدت علاقتنا وصار خلافنا عميقاً. وحدث الآن أن ثالثاً يفوقنا فوة قد بدأ في عمل أشياء نخشى أن تعود علينا بمضررة كبيرة. واقتصر عدوي هذا علىّ أن نتصالح لكي نسعى لحماية أرواحنا، وباتحادنا نستطيع أن نقوم بذلك، أما إن بقينا على حالنا من التنازع، فسيُقضى على كل واحد منا على حدة بسهولة خارقة. ولا أعرف كيف يمكنني أن أتصرف، لأنني أخاف من عدوي أن يخدعني إذا ما تصالحنا ووثقت به، وما أن تحين له الفرصة حتى ينقض علىّ ويهزمني ويقتلني، وهذا ما يدخلني في حيرة كبيرة. ومن

جانب آخر أدرك أننا لو لم نتصالح كما يرجوني، فهذا سوف يضعنا في موقع الخطر كما أخبرتكم سابقاً.

ولأنني أثق بك وبفهمك السيد ورأيك الراوح، فإنني أرجوك أن تشير عليّ في هذا الأمر.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- إنه لأمر عظيم وخطير، ولكي تدرك ما عليك فعله، فأرجو منك أن تستمع مني إلى ما حدث في تونس لفارسين كانوا يعيشان مع الأمير الإنفانتي أوريكه¹⁴.

فأسأله الكوندي أن يسرد عليه ذلك.

- سيد الكوندي- قال باترونبيو- عاش مع الأمير الإنفانتي دون أوريكه فارسان تجمعهما صداقة عميقة ويعيشان معاً بشكل دائم. ولم يكن لفارسين سوى جوادين، وبقدر المحبة الكبيرة التي تجمعهما، كان الجوادان يتباuginان. لم يكن الفارسان ثريين بما يكفي حتى يستقل كل منهما في بيت خاص به، وهذا ما عكر عليهما صفو حياتهما. وكان قد مر وقت طويل على تلك الحالة حتى اقتنع الفارسان باستحالة العثور على حل، فقصا المعضلة على دون أوريكه وطلبا منه أن يسمح لهما بإلقاء الجوادين إلى أسد كان في حوزة ملك تونس.

شكرهما دون أوريكه على ذلك كثيراً وكان أن تكلم في الأمر مع ملك تونس، فدفع هذا مبلغاً مناسباً لقاء الجوادين وأمر بحملهما حتى فناء الأسد. عندما وجد الجوادان نفسيهما في الفناء وحيدين، ولم يكن الأسد قد خرج بعد من عرينه، فقد هجم الواحد على الآخر بكل شراسة. وحين وصل عراكمهما أوجه، فتحت البوابة وأطل الأسد بهامته، فارتعد الجوادان وراحَا يقتربان الواحد من الآخر. وعندما أصبحا متلاصقين، لبثا للوهلة الأولى ساكنين، ثم اندفعا معاً نحو الأسد وأشبعاه ركلأ وعضاً حتى أجبراه على التقهقر إلى عرينه. وبهذا الحال بقيا بمنجى من خطر الأسد. وبعد ذلك أصبح الجوادان صديقين، يأكلان معاً من المعلف نفسه وينامان معاً بكل سرور. وقد ولدت صداقتهما هذه نتيجة خوفهما الكبير من الأسد.

وأنت سيد الكوندي لوكانور، إذا كنت تعتقد أن عدوك يخشى الآخر ويحتاج مساعدتك، ناسيأً نزاعكم السابق، لأنه لا يجد في نفسه قدرة على التصدي للأخر إلا بمساعدتك، فأنا أنسرك بأن تقوم بما فعله الجوادان اللذان راحا يتقربان من بعضهما بعضاً حتى ذاب ما كان بينهما من

تناحر وخوف ليحل بدلاً منه الأمان كي تسود الثقة بينكما شيئاً فشيئاً. وإذا ما وجدته ثابتاً على الخير والإخلاص للعلاقة بينكما، وتطمئن إلى أنه لن يعود إلى الإساءة إليك مهما بلغ أمر الأمان بينكما، فلا بد لك أن تساعده وتطلب منه بالمقابل أن يقوم على مساعدتك حتى لا يقضي عليك عدو ثالث. ذلك لأنه علينا أن نقوم بهذا ونتحمل الكثير من الأقرباء والجيران ونقوم بحمايتهم حتى يدافعوا عنا ضد الغرباء متى احتجنا إليهم. أما إذا كان الأمر عكس ذلك، ورأيت أن طباع عدوك ستدفعه للعدول عن الأمر بعد أن تقوم بمساعدته كي يبلغ الأمان ويخلص من الأخطار، ولا يمكنك أن تثق في نوایاه، فإنك ستخطئ بالطبع إذا ما رغبت في مساعدته وأعتقد أنه من الخير لك أن تبتعد عنه، ذلك أنه لا يتخلّى عن نوایاه السيئة حتى وهو في أحوال الظروف، وينتظر أن يسمح له الوضع للإساءة إليك من جديد، فلا ينبغي عندها أن تعينه بالمرة للتخلص من الأخطار المحدقة به.

استحسن الكوندي ما قصه عليه باترونبيو وعمل بنصحه.

ولما رأى دون خوان أنها عبرة جيدة، فقد أمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية: أحْم نفسك من تقارب الغريب
ما دمت قد حفظتها من شروره.

مثال 10

¹⁵ ما جرى لرجل اضطره الفقر والعوز إلى أكل الثرميس

تحدث الكوندي لوكانور في يوم آخر مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- أترى أن الرب قد منَّ عليَّ من نعمه ما لا أستحق، كما أعلم أنني رجل ذو نفوذ وثروة، لكنني أحياناً أمر بضائقه مالية وتشتد بي الحال حتى أتمنى الموت على الحياة. فأرجو منك أن تصحي في هذا الأمر.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونيو- حتى تجد العزاء في مثل هذه الأحوال، أتمنى عليك أن تعرف ما جرى لرجلين ثريين جداً.

فرجاه الكوندي أن يقص عليه أمرهما.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونيو- واحد من هذين الرجلين وصلت به الحال من الفقر أنه لم يجد ما يقتات به من طعام. وقد عمل المستحيل لعله يعثر على ما يسد به رمقه ولم يحصل سوى على قصعة من حبات الترمي.¹⁶ وعندما تذكر ما كان عليه من ثراء وفکر في الجوع الذي يطحنه ويُجبره على أكل الترمي المُر وسائط الطعم، بكى بحرقة. لكن جوعه كان شديداً، لذلك مدد إلى حبات الترمي وأكل منها حفنة ملقياً بالقشور ورائمه. وبينما هو على تلك الحال من القنوط، شعر بشخص يمشي خلفه، فالتفت ورأى رجلاً يلتقط من الأرض قشور الترمي التي يرميها ليقوم بأكلها. لم يكن ذلك الرجل سوى الرجل الثري الآخر الذي ذكرته لك.

لما رأى أكل الترمي ذلك سأله لماذا يأكل القشور. فأجابه بأنه قد ابتلي بفقر مدقع، وقد كان أكثر ثراء منه من قبل، وأن الجوع قد أهلكه إلى درجة أنه يشعر بسعادة بالغة إذا ما عثر على تلك القشور التي كان يلقي بها إلى الأرض. عندما سمع أكل الترمي كلام الرجل الآخر، شعر ببعض العزاء، فهناك من هو أشد فقرأً منه. وبهذا العزاء بذل ما بقدرته للخروج من الفقر وقد نجح في ذلك بفضل الرب وعاد ليصبح ثرياً كما كان عليه من قبل.

وأنت سيدى الكوندي لوكانور، يجب أن تعرف أن قدرة الرب شاءت ألا يحصل أي أحد على كل شيء. ولكن بما أن الرب قد منَّ عليك من نعمه الأخرى ووهبك نفوذاً وجاهة، فإذا ما أعزوك المال وضاقت بك السبل فلا تحزن، وكن على يقين تمام أن آخرين أكثر ثراءً منك وأعلى مكانة قد يكونون في مثل ضائقتك، ولعلهم يسرّون لو استطاعوا أن يمنحوا ذويهم أقل مما تمنحه لذويك.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو، ولقي فيه بعض العزاء، وبذل كل جهده حتى خرج من ضائقته بفضل الرب.

ولما رأى دون خوان أنها عبرة جيدة، فقد أمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية: من العوز لن يغشى عليك

فَكُمْ مِنْ فَقْرٍ أَشَدُ سُوفٍ تَرِى بَعْيَنِيكَ .

مثال 11

ما جرى لكاهن ¹⁷ سانتياغو الأقدم
¹⁸ مع السيد إيان، معلم طليطلة الأكبر

تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باتروننيو في يوم آخر قائلاً:

- باتروننيو، لقد جاءني شخص يرجوني أن أساعده في أمر يحتاجني فيه، وقد وعدني أن يفعل كل ما أمره به بعد ذلك. وقد ساعدته قدر ما أستطيع. وقبل أن يحصل على كل ما يرغب فيه، يعكس ما يظن، طلبت منه أن يقوم لي بأمر ما يوافقني فأعتذر. ثم إنني طلبت منه خدمة أخرى واعتذر مجدداً. وهذا ما كان منه في كل ما طلبت. غير أنه لم يحصل مني بعد على كل ما رغب فيه ولن يكون باستطاعته عمل شيء دون مساعدتي له. ولأنني أثق في رجاحة رأيك، فأؤمني منك أن تصحي ما ينبغي عليّ عمله.

- سيد الكوندي- قال باتروننيو- لكي تقوم بما عليك فعله، لا بد لك أن تعرف مني ما جرى لكاهن سانتياغو الأقدم مع السيد دون إيان، معلم طليطلة الأكبر.

فـسـأـلـهـ الكـونـدـيـ عـمـاـ جـرـىـ لـهـ.

- سيد الكوندي- قال باتروننيو- رغب كاهن سانتياغو الأقدم بشغف معرفة فن السحر المسمى نوغرامانثيا¹⁹، وسمع أن الدون إيان المقيم في طليطلة هو أعرف الناس به، فقدم إلى المدينة ليتعلم على يديه من تلك العلوم. وتوجه فور وصوله إلى بيت السيد إيان فوجده يقرأ في قاعة منعزلة. استقبله السيد إيان ورحب به بأدب جم، وأخبره بأنه لن يستمع إلى ما جاء له حتى ينتهي من الأكل، وكان أن استضافه في بيته، وقدم له كل وسائل الراحة وعبر له عن سروره برفقته.

وبعد أن أكلا وبقيا وحدهما، رجاه الكاهن أن يعلمه من تلك العلوم لرغبة الكبيرة بالتعمع فيها. فقال له السيد إيان إنه كاهن له مكانته في الكنيسة ولعله قد يصل في يوم ما إلى أعلى المراتب، وإن البشر عندما يرتفون إلى المراتب العليا سرعان ما ينسون ما فعله الآخرون من أفضال عليهم. لذلك فهو يخشى أن يترفع عن شكره بعد أن يتعلم منه ما يرغب في تعلمه ويتمتع بعد ذلك عن فعل ما يعده به الآن. لكن الكاهن الأقدم أكد له أنه مهما بلغت المنزلة التي قد يصل إليها فلن يفعل إلا ما يأمره به.

وظلا يتحدثان في ذلك الأمر من الغداء حتى وقت العشاء. وبعد أن اتفقا على كل شيء، قال له السيد إيان إن ذلك العلم لا يمكن تعلمه إلا في مكان منعزل ووعده بأنه سيريه في تلك الليلة نفسها المكان الذي سيعمله فيه. ثم قاده من يده حتى قاعة معزولة، ونادى على الخادمة وطلب منها أن تحضر لهما حجاجاً للعشاء وألا تقوم بشيء حتى يأمرها بذلك.

بعد أن قال ما قال، نادى على الكاهن وقاده عبر سلم حجري محفور بإحكام، ونزلوا عبره حتى بدا له أن نهر الناج قد أصبح فوقهما لا محالة. عندما وصلا نهاية السلم، أشار المعلم إلى غرفة واسعة وصالة جيدة التأثير مملوءة بالكتب التي عليه أن يقوم بقراءتها كلها. وما أن جلسا وراحوا يبحثان في الكتب التي ستبدأ بها الدروس حتى دخل عليهما رجلان وسلموا الكاهن رسالة من رئيس الأساقفة، وهو عمه، يخبره فيها بمرضه الشديد ويرجو منه أن يعود إلى سانتياغو حالاً إذا أراد أن يراه على قيد الحياة للمرة الأخيرة. امتنع الكاهن لمرض عمه خاصة أنه سيضطر لترك الدروس التي لم يكن قد بدأها بعد. ولكنه قرر ألا يتوجه في الأمور وكتب إلى عمه يخبره بقراره.

بعد ثلاثة أيام أو أربعة وصل رجال آخرون يحملون رسالة إلى الكاهن تعلمهم بأن رئيس الأساقفة قد توفي، وأنهم في الكاتدرائية قد أجمعوا على اختياره خلفاً له، ويتمنى الجميع من الرب أن يقع اختياره عليه. لذلك فهم ينصحونه ألا يسرع بالعودة إلى سانتياغو، إذ يرون أنه من الأفضل أن يتم تنصيبه وهو غائب عن الكنيسة.

بعد مرور سبعة أو ثمانية أيام وصل فارسان في أبيه الثياب، مدججين بالسلاح وممتدين جوادين فارهين، وما أن حل أمام الكاهن حتى قبل بيديه وسلماه رسالة تخبره بأنه قد تم اختياره للمنصب. عندما سمع السيد إيان ذلك، اقترب من رئيس الأساقفة الجديد وشكر الرب الذي شاء أن

تصله البشري وهو في بيته، وطلب منه بصفته الجديدة أن يمنح ابنه منصب الكاهن الذي بقي شاغراً. رجاه رئيس الأساقفة ألا ينزعج لأنه قد قرر أن يعطي منصب الكاهن لآخر له، ووعده بأن يمنح ابنه منصباً آخر غيره، وطلب منه أن يرافقه إلى سانتياغو مع ابنه، فوافق السيد ديان على ذلك.

وهكذا مضوا جميعهم إلى سانتياغو وتم استقبالهم باحتفاء كبير. وما أن مضى وقت على وصولهم، حتى جاء رسل البابا برسالة إلى رئيس الأساقفة، يخبرونه فيها بأنه قد عينه أسقفاً في مدينة تولوز، ويترك له الخيار بأن يمنح منصب رئيس الأساقفة لمن يشاء. عندما علم السيد إيان بذلك، وقد تذكر وعد رئيس الأساقفة، رجاه أن يمنح المنصب لابنه. لكن رئيس الأساقفة تمنى عليه ألا ينزعج لأنه يرغب في منح المنصب لأحد أعمامه. فأجابه السيد إيان بأنه لا يرى الأمر عادلاً، لكنه مع ذلك يقبل بشرط أن يجازيه على ذلك لاحقاً. فما كان من رئيس الأساقفة إلا أن وعده وعداً أكيداً ورجاه أن يأتي معه رفقه ابنه.

عندما وصلوا تولوز، استقبلهم نبلاء وكوئنديات المدينة. وبعد أن قضوا قرابة السنطين في المدينة، زار رسل البابا الأسقف من جديد وأخبروه بأنه تم تعيينه كاردينالاً مع الإذن له بتعيين من يشاء خلفاً له في منصبه. عندئذ تقدم منه السيد إيان وقال له إنه قد أخلف وعده أكثر من مرة، وإنه لم يعد هناك مجال للمزيد من التسويف، وطلب منه أن يمنح الأسقفي الشاغرة لابنه. فرجاه الكاردينال ألا ينزعج منه لأنه يرغب في منح الأسقفي لأحد أخواله، وهو رجل مسن وطيب الشمائل، ورجاه، وقد أصبح كاردينالاً، أن يمضي معه إلى بلاط روما، زاعماً أنه لن تتعدم هناك الفرص الكثيرة لتقديم خدمة له. شعر السيد إيان بالحسرة، لكنه لم يجد بداً من الموافقة، فكان أن ذهب مع الكاردينال إلى البلاط.

عندما وصلوا هناك استقبلهم الكاردينالات ومدينة روما بأسرها أفضل استقبال. وهناك عاشوا لفترة طويلة، وكان السيد إيان يوماً بعد آخر يطلب من الكاردينال أن يفي بوعده وينعم على ابنه بمنصب ما، والكاردينال بدوره يقدم له الأعذار المختلفة حتى مات البابا. عندئذ اختاره جميع الكاردينالات أن يشغل منصب البابا. فتقدم إليه السيد إيان وقال له إنه الآن لا يستطيع تقديم أي عذر كي يفي بوعده. لكن البابا طلب منه ألا يزعجه كثيراً وأنه سينصف ابنه ما أن يرى فرصة متاحة لذلك. شعر السيد إيان بالحسرة وذكره بوعوده الكثيرة التي لم يف بها، وأضاف قائلاً إنه قد تخوف

منذ أول لقاء بينهما، وبما أنه قد وصل إلى أعلى المناصب ولم يف بوعده، فقد جزع منه ولم يعد ينتظر أي خير منه. انزعج البابا كثيراً من كلام السيد إيان، وبدأ يسيء في معاملته وقال له إنه إذا لم يترك مضايقته فسيزوج به في السجن لأنه زنديق وساحر وإنه لم يكن له من وسائل العيش في طليطلة سوى تعليم السحر الأسود.

عندما أيقن السيد إيان ما أعده البابا له، ودعه، ولم يمنه البابا ما يسد رمه في الطريق. عندئذ قال السيد إيان للبابا إنه مadam لا يملك أي طعام يشبع جوعه، فسيرجع لذلك الحجل الذي أمر خادمته بإعداده تلك الليلة، وكان أن نادى على المرأة وأمرها بشيء. وب مجرد أن خرجت هذه الكلمات من فم السيد إيان حتى وجد البابا نفسه في طليطلة وقد رجع من جديد كاهناً لسانтиاغو كما كان عليه يوم وصوله. خجل الكاهن خجلاً شديداً مما جرى، ولم يجد في معينه ما يعتذر به عن سلوكه. فأمره السيد إيان أن يمضي إلى حال سبيله، قائلاً إنه مadam لا يتوقع أي خير فيه، فمن المؤسف أن يسمح له بالمشاركة في أكل الحجل.

وأنت سيد الكوندي لوكانور ترى أن الشخص الذي قدمت له كل ما أراده منك دون أن يبدي لك الشكر، فمن الأحسن ألا تجهد نفسك أكثر ولا تخاطر بأي شيء لرفعه إلى المكانة التي لن يجازيك فيها إلا بما جازى ذلك الكاهن السيد إيان.

فوجد الكوندي هذه النصيحة حسنة واتبعها فحالفة التوفيق.

ولما رأى دون خوان أنها عبرة جيدة، فقد أمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية: من ساعدته كثيراً ولا يشكرك على أفعالك
فلا خير فيه عندما يصل إلى مكانة عالية.

تحدى الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- باترونبيو، تعلم أن لي أرضاً شاسعة وكل ذلك بفضل الرب، لكنها موزعة هنا وهناك ومعزولة بعضها عن بعضها الآخر، وعلى الرغم من أن بعض أملaki حصينة وصامدة، إلا أن أخرى ليست كذلك وأخرى بعيدة جداً. وعندما أكون في حرب مع الملوك، أو مع جيراني الأقواء، الكثير من يدعون صداقتي أو يدعون النصيحة، يثرون الخوف في قلبي وهم يخبروني بأن عليّ أن أتجنب البقاء طويلاً في الأماكن البعيدة، وأن ألجأ إلى الأماكن المحسنة في وسط أملaki. وبما أنني على معرفة بإخلاصك وولائك لي ونباهة رأيك في هذه الأمور، فأتمنى عليك أن تشير عليّ بما ينبغي أن أقوم به.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- ليس بالهين النصح في الأوقات العصيبة، فأفضل الناصحين قد يخطئ في تقديراته لأنها لا يعرف النتيجة. وكثيراً ما نتوقع حدوث شيء ويحدث شيء آخر. ونخشى أحياناً أن تنتهي الأمور بسوء لا بخير. أو أن نتوقع أن تنتهي بخير وتعود علينا بالسوء. لذلك فمن شاء أن يُبدي النصح، وهو مخلص وغرضه أن ينجح، فإنه يجد نفسه في ضيق شديد، فإذا انتهى نصحه على خير فالشكر الذي سيقابل به لن يزيد على أنه قد أدى واجبه بإسدائه تلك النصيحة. وإذا لم يصب فالاحتقار وتقليل الشأن من نصيبه. لذلك من الأفضل لا أضطر لإبداء النصيحة في مثل هذه المسألة العميقة، إذ مهما قلبتها وفحستها وجدتها مكتظة بالأخطار المحدقة. لكن بما أنك ترغب في نصيحتي وأنا لا يمكنني أن أمتنع عن إبدائها، فأرجو منك أن تسمع ما جرى للديك مع الثعلبة.

فسألته الكوندي عما جرى.

- سيد الكوندي- قال باترونبيو- كان لرجل طيب بيت في الجبل، وكان له عدد كبير من دجاجات وديكة إضافة إلى حيوانات أخرى. وحدث أن كان أحد تلك الديكة بينما كان يتجلو ساهماً في الحقل، بعيداً عن البيت، أن رأته ثعلبة وجاءت بقربه لتمسّك به دون أن يشعر بها. لكن الديك انتبه إلى الأمر وصعد على شجرة معزولة نوعاً ما عن بقية الأشجار الأخرى. ولما رأت الثعلبة أنه قد نجا من براثنها، تحسرت كثيراً وراحت تفكّر في حيلة للإيقاع به. فاقتربت من الشجرة وراحت تمدح الديك وتترنّج إليه وتطلب منه النزول ليتنزّه معها في الحقل كما كان يفعل قبل لحظات. لكن

الديك امتنع عن الاستماع إليها. ولما رأت الثعلبة أنها لم تتمكن من خداعه بالإطراء، فقد هدّته قائلة إنه سيندم لأنه لم يثق بها. لكن الديك الذي كان في مأمن منها، لم يكتثر لتهدياتها ولا لطمئناتها.

عندما أدركت الثعلبة أن الديك لن تنطلي عليه الحيلة بتلك الطريقة، اقتربت من الشجرة وراحت تقرض الجذع بأسنانها وتضرب عليه بذيلها. فكان أن جزع الديك المسكين وهو لا يعرف أنها لن تشكل أي خطر عليه. لكن خوفه حمله على الهروب من شجرة إلى أخرى لكي يكون بمأمن منها. فطار حتى شجرة أخرى لكن دون أن يصل إلى الأشجار الكثيفة. ولما رأته الثعلبة جزاً، تبعته وراحت تطارده من شجرة إلى أخرى حتى ظفرت به وأكلته.

وأنت سيدِي الكوندي لوكانور، عندما تجد نفسك غارقاً في حروب كثيرة وعليك أن تدافع عن ممتلكاتك، فلا ينبغي أن تجزع أبداً دون سبب ولا تخشى التهديدات ولا من الأقوال. كما لا ينبغي لك أن تضع ثقتك في أحد قد يسيء لك. مع ذلك عليك أن تبذل ما في وسعك للدفاع عن أراضيك البعيدة. وتأكد أن رجلاً مثالك، ما دام بحوزته السلاح والجنود، فحتى لو لم تكن القلعة محصنة جداً، فلا خطر عليها. وإذا ما غادرت إحدى أراضيك البعيدة دون سبب معين فتأكد أنهم سيسعون لإخراجك من الأماكن الأخرى حتى لا يبقى بحوزتك منها شبر واحد. لأنه ما أن يرى أعداؤك أن الخوف قد حملك على التخلّي عن أحد المواقع، تزداد رغبتهم وحماسهم بالحصول على كل ما عندك. أما أنت فكلما رأيت إصرار أعدائك فسوف تهن وتفشل أنت وصاحبك، إلى أن يسلبوك كل ما لديك. أما إذا دافعت بحماسة عن المكان الأول، فتق أنت لهم لن يواصلوا الهجوم على الأماكن الأخرى، وكذا الأمر بالنسبة للديك لو بقي صامداً على الشجرة الأولى. وهذا المثال يجب أن يعرفه كل من له حصون تحت نفوذه، فلا يجزع دون سبب عندما يحفر الأعداء الخنادق أو يهجمون عليه بأبراج من خشب أو أي آلة حربية أخرى؛ لأن الهدف الوحيد منها هو إخافة المحاصرين. وسأخبرك بشيء آخر حتى ترى مقدار صوابي. فلا يمكن الاستيلاء على حصن إلا بارتفاعه جدرانه أو حفر أنفاق من تحته: فإذا كان السور عالياً لن تطاله السالم. أما حفر الأنفاق فيحتاج لوقت وهدوء طويلين. لهذا السبب فالاستيلاء على أحد الحصون يتم بسبب من نقص شيء لدى المحاصرين أو لأنهم يجزعون دون سبب. وأعتقد أن رجلاً مثالك، وحتى من هو ليس بقوتك ومكانتك، يجب عليه أن يصبر كثيراً فيما عليه أن يفعله وألا يقرر فعل شيء إلا إذا اضطرته الظروف واستحال عليه تجاوز الأمر.

عليه حين تقوم بالفعل فلا ينبغي عليك أن تخشى أي شيء في العالم حتى لو كان لديك كل الأسباب لذلك، لأنه من المرجح أن من يدافع عن نفسه في وقت الخطر يكون له من حظوظ النجاة أكثر من يلوذ بالفرار. للاحظ أن الكلب الصغير الصادم في مكانه قد ينجو عندما يكشر عن أنيابه وذلك حين يحاول كلب الدرواس الضخم الفتك به، لكن الكلب الذي يهرب سرعان ما يدركه ويفتك به مهما كان كبيراً.

استحسن الكوندي ما قاله باترونبيو وعمل به فسارت الأمور على خير ما يرام.
ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية: لا تجزع
من الأمور لأتفه الأسباب
بل دافع عن نفسك كرجل شجاع.

مثال 13

ما جرى لرجل كان يصطاد حجاجاً

مرة أخرى تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- باترونبيو، يُلحق بي أحياناً البعض من ذوي السلطة وآخرون أقل نفوذاً منهم، أضراراً في ممتلكاتي وأتباعي، وبعدها يتأسفون للأمر ويزعمون أنهم اضطروا إلى ذلك ولم يكن بمقدورهم في تلك الساعة فعل شيء آخر. فأتمنى عليك أن تخبرني رأيك فيما عليّ أن أقوم به.
- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- هذا الذي تخبرني بأنه قد حدث معك وتطلب نصحي، هذا يشبه كثيراً ما جرى لرجل كان يصطاد طيور الحجل.

فترجاه الكوندي أن يخبره بما جرى من ذلك الأمر.

- سيدى الكوندى- قال باترونىو- وضع رجل فخاً لصيد الحجل وعندما وقع بعضها فيه، اقترب منها وراح يخرج الحجل واحداً بعد الآخر ويقتلها فى الحال. وكانت الريح فى تلك الساعة تنفس بشدة فى وجهه حتى أن عيناه دمعتا.

فقال طير حجل حى فى الفخ لرفاقه:

- لتأملوا أيها الصحب فيما يفعله هذا الرجل، إنه يقتلنا لكنه يبكي إشفاقاً علينا.

فقال حجل طليق، وكان أكثر حكمة من ذلك الذى تكلم منهم، لذلك نجت من الفخ:

- إيه أيها الصاحب، الحمد لله الذى نجاني من الوقوع في الفخ، وأرجو أن يحفظنى دائماً أنا وكل رفاقتى من ذلك الذى يقتلنا ويؤذينا ثم يريد أن يقنعني بتلالمه من فعلته.

وأنت سيدى الكوندى لوكانور، احذر دائماً ممن يسعى لإيذائك وبعدها يظهر حسرته. أما إذا لحقك الضرر من أحدهم عن غير عمد ولم يكن ضرراً أو خسارة كبيرة وكان قد ساعدك ذات مرة أو قدّم لك خدمة، فتكتم على الأمر بشرط ألا يتكرر كثيراً إلى حد الإهانة والإضرار بمصلحتك. وأما من ينوي لك الشر فابعده عنك حالاً لتحافظ على ممتلكاتك وتصون هيبتك.

استحسن الكوندى ما قاله باترونىو وعمل به فسارت أمره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية: صن نفسك قدر ما تستطيع

ممن يؤذيك ويتأسف بعد حين.

مثال 14

المعجزة التي قام بها القديس سانتو دومنغو
في صلاته على روح رجل جشع

ذات يوم تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- باترونبيو، ينصحني البعض بأن أجمع أكبر قدر من الأموال، وقد زعموا أنه من أفضل ما يمكن أن أقوم به. لهذا أرجو منك أن تقول لي رأيك فيما تراه.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- إن السادة الكبار يحتاجون بالفعل لأموال طائلة وذلك للقيام بأعبائهم ولكي يفعلوا ما يوافق مرامهم. لكنني أحذرك من الحرص على جمع الأموال إلى درجة إهمال حاجات ذويك ومتطلبات مكانك وشرفك، وإلا فقد يقع لك ما وقع لأحد اللومبارديين²⁰ في بولونيا.

فأسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدى الكوندي- قال باترونبيو- عاش في مدينة بولونيا أحد اللومبارديين وقد جمع مالاً كثيراً دون أن يهتم بمصدره، بل عمل على ادخار أكبر قدر منه. وذات يوم مرض الرجل اللومباردي مرضاً خطيراً. وعندما رأه أصحابه على تلك الحالة السيئة، نصحوه بأن يعترف بذنبه للقديس سانتو دومنغو²¹ الذي كان في ذلك الوقت في بولونيا. فبعث فعلاً من يستقدمه. عندما تسلم القديس دومنغو الدعوة، جاءه إلهام بأن الرب لن يخلص ذلك الرجل من العقاب الذي استحقه بسبب جشه. فقرر ألا يستجيب لدعوته، وأرسل بدليلاً عنه راهباً آخر. لما علم أبناء الرجل اللومباردي بأن أباهم قد بعث بطلب القديس دومنغو، قلقوا كثيراً وخسروا أن ينجح القديس بإقناع أبيهم بالتنازل عن كل ما استولى عليه بغير حق مقابل خلاص روحه، ويبقون هم دون أي شيء. لذلك قالوا للراهب إن أباهم قد انتابته نوبة تعرق شديدة وإنهم سيبعثون في طلبه في وقت أنساب من هذا.

لم يمر وقت قصير على ذلك حتى فقد اللومباردي القدرة على الكلام ومات في الحال. ولم يتح له فعل أي شيء مما ينبغي لتخلص روحه. وعندما جهزوه في اليوم التالي للدفن، طلبوا من القديس سانتو دومنغو أن يصلّي على روح ذلك اللومباردي. وهو ما قام به القديس سانتو دومنغو. لكنه في صلاته على ذلك الرجل قال جملة من الإنجيل وهي التالية: «Ubi est thessaurus tuus ibi es cor tum» والتي تعني: «حيث يكون كنزك، يكون قلبك». وعندما قال هذا التفت إلى الحشد وقال لهم: - أيها الصحب، لكي تتأكدوا من صدق الإنجيل، ابحثوا عن قلب هذا الرجل ستجدونه في الصندوق الذي كَنَزَ فيه أمواله وليس في جسده.

فراحوا يبحثون عن قلبه في جسده ولم يوجدوه، بل عثروا عليه في صندوق أمواله كما قال لهم القديس سانتو دومنغو. ووجوده مملوءاً بالدود وتبعثر منه أنتن الروائح.

وأنت سيد الكوندي لوكانور، على الرغم من أهمية الأموال إلا أن عليك أن تحرص جيداً على أمرين اثنين: الأول أن يكون ما تجمعه حلالاً وبوسائل شرعية؛ والثاني ألا تتعلق به إلى درجة أن تفعل ما لا ينبغي فعله متناسياً مكانك وشرفك، فالكنوز التي عليك جمعها هي تلك الأعمال الصالحة التي ترضي رب وتحللك طيب السمعة بين الناس.

- استحسن الكوندي ما قاله باترونبيو وعمل به فسارت أمره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية: /حصل على الكنوز الحقيقة ولا تقرب الكنوز الفانية.

مثال 15

ما جرى للسيد لورنشو سواريث في حصار إشبيلية

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- باترونبيو، حدث أن وقعت عداوة بغيضة بيني وبين أحد الملوك المقدرين. وبعد أن دام النزاع بيننا زمناً طويلاً، رأينا أن الأوفق لنا في التصالح. وعلى الرغم من أننا في سلام ودون نزاع، لكننا مازلنا يخشى كل من الآخر. كما أن بعضًا من جماعته كما عليه مجموعة من جماعتي يزرعون في داخلي الخوف ويؤكدون لي أنه يبحث عن ذريعة ليهاجمني. ولمعرفتي برجاحة آرائك، أرجو منك أن تصحي بما ينبغي عليّ فعله في هذه الحالة.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- ستكون نصيحة عسيرة على لأسباب عده، إذ يمكن لكل من يريد أن يورطك في المصاعب أن يقوم بذلك بسهولة تامة واهماً إياك بأنه يقوم بهذا

لمصلحتك، فيحذرك من ضرر ما قد يصيبك، كما يدخل الريبة على قلبك. وقد تضطر لاتخاذ التدابير اللازمة فيكون عند ذلك بداية حرب، ولن تستطيع حينئذ أن تُلقي باللائمة على من نصحك بذلك، لأن منْ نصحك بعدم الحذر لا يبدو مكرثًا بحياته. ومنْ ينصحك بعدم الاهتمام بقلاءك والحفظ عليها وتعزيزها يبدو أنه لا يهمه أن تحافظ على أملاكك. ومنْ ينصحك بالإكثار من الأصدقاء والتابعين والتواصل معهم بالعطايا والمحافظة عليهم، إنما لا يهتم بشرفك وسلامتك. وإذا لم تفعل كل هذا فقد وضعت نفسك في خطر كبير وستكون بداية للفوضى. لكنك تطلب رأيي، لذا أود منك أن تعرف ما جرى لأحد الفرسان النبلاء.

رجاه الكوندي أن يخبره ما جرى له.

- سيدи الكوندي- قال باتزونيو- عندما حاصر الملك القديس المبروك دون فرناندو مدينة إشبيلية، كان رفقة عدد من الفرسان، ثلاثة منهم كانوا يُعدون من أفضل فرسان السلاح في العالم كله. الأول هو لورنثو سواريث غايتانو، والثاني هو غارثيا بيريث دي بارغاس والثالث لم أعد أذكر اسمه.²² وذات يوم اختلف الفرسان الثلاثة فيما بينهم حول أيهم الأفضل من بين فرسان السلاح. وعندما لم يتوصلا لقرار، اتفقوا على أن يتسلحوا ويقتربوا من بوابة إشبيلية ليقرونوها برماحهم.

في صباح اليوم التالي، تسلحوا جيداً وتوجهوا ناحية المدينة. عندما رأى المسلمون من فوق الأبراج أنهم لا يزيدون على ثلاثة، ظنوا أنهم رسّل فلم يخرجوا لمقارعتهم. اجتاز الفرسان الثلاثة الخندق والتحصينات الأولى ووصلوا حتى بوابة المدينة وقرعواها ببنال رماحهم، وبعد أن قاموا بذلك، قادوا جيادهم ورجعوا إلى المعسكر.

عندما رأى المسلمون لم يخبروهم بشيء، عدوا المسألة استهزاءً بهم وقرروا اللحاق بهم. وعندما فتحت البوابة، الفرسان الثلاثة الذين قفلوا راجعين ببطء، كانوا قد أصبحوا بعيدين. خرج من خلفهم أكثر من ألف وخمسمائة فارس وأكثر من عشرين من المشاة. وعندما رأى الفرسان الثلاثة أنهم يقتربون منهم، استداروا على أعقابهم وانتظروهم. عندما أصبح المسلمون قربهم، هجم عليهم ذلك الذي نسيت اسمه، بينما بقي لورنثو سواريث وغارثيا بيريث ساكنين. وعندما اقترب المسلمون أكثر، هجم عليهم دون غارثيا بيريث دي بارغاس. وبقي دون لورنثو ساكناً ولم يقدم على مهاجمتهم حتى شن المسلمون هجومهم عليه. عندئذ توسع لهم وعمل فيهم الأعاجيب بسلاحه.

عندما رأى جنود المعسكر أن المسلمين قد أحاطوا بأولئك الفرسان، أسرعوا لنجذتهم. وعلى الرغم من أن الثلاثة مروا بلحظات عصيبة وقد أصيبوا بالجراح، إلا أن مشيئة الرب قد أنجتهم كلهم. وكانت المعركة شديدة بين المسلمين والمسيحيين، وقد شارك فيها الملك دون فرناندو بنفسه، وكان النصر من نصيب المسيحيين.

عندما عاد الملك إلى خيمته أمر بالقبض عليهم؛ لأنه رأى أنهم يستحقون الموت بسبب فعلتهم المتھورة، فقد وضعوا الجيش في خطر ودون أمر من الملك، والأمر الآخر أنهم قد خاطروا بحياة أفضل ثلاثة فرسان. وعندما شفع لهم كبار رجال الجيش أمام الملك، أمر بإطلاق سراحهم.

وما أن علم الملك بأنهم قد قاموا بذلك ليعرفوا من فيهم الأفضل، أمر باستدعاء عدد من أفضل رجاله ليحكموا معه أيهم الأفضل. وعندما اجتمعوا طال الجدال بينهم: فبعضهم رأى أن الجهد الأكبر جاء مع الأول الذي بادر بمحاجتهم. آخرون قالوا إنه الثاني وآخرون أشاروا إلى الثالث منهم. وكان الجميع يقدم البراهين المناسبة حتى ليُظْنَ أن الحق معه. وفي الحقيقة إن ما فعله الفرسان الثلاثة كان مدهشاً ويستحقون جميعهم المديح. ولكن الحكم النهائي كان كما يلي: لو كان عدد المسلمين الذين هاجموهم أقل مما كان عليه، بحيث يمكن للفرسان الثلاثة هزيمتهم، فالأشجع من بينهم هو الأول الذي بادر بالهجوم، لأنه قد بدا له أن الأمر سينتهي بخير. لكن عدد المسلمين كان كبيراً بحيث يستحيل عليهم هزيمتهم، ومن الواضح أن أول من هاجمهم لم يكن في نيته ذلك، لكنه كان قد خجل من الفرار فلم يهرب، مما دفعه الخوف وغصة القلب إلى محاجتهم. أما الثاني بمحاجتهم فقد بقي ينتظر أكثر من الأول، فرأوا أنه الأفضل لأنه تحمل وعاني الجزع أكثر من الأول. أما دون لورنثو سواريث، فقد تغلب على الخوف كله وانتظر بصبر حتى هاجمه المسلمون، وحكموا على أنه أفضـل فارس.

وها أنت ترى سيد الكوندي لوكانور أنهم يحاولون إدخال الخوف إلى قلبك وأن المعركة لو نشبت فلن تستطيع حسمها بما لديك من قوة. وتأكد إذن أنك إذا تحملت الجزء وثبتت على نفسك فستكون أكثر شجاعة وحكمة. وطالما كانت ممتلكاتك في أمان ولا أحد يملك القدرة على إلحاق الضرر الكبير بك، فنصيحتي لك أن تحافظ قدر الإمكان على هدوئك. وبما أنه لا يمكن أن تتلقى أي خسارة كبرى بشكل فجائي، فعليك بالصبر حتى يهجم عليك الآخر فربما اتضحت أن خوفك بلا مبرر. ومن قال لك تلك الأشياء لم يفعل ذلك إلا لطمع ولمصلحته الخاصة، وأولئك هم من يتباون

المناصب في الأجزاء العكرة. وكن على ثقة بأن أصدقاء عدوك وأصدقائك الذين يحاولون أن يدخلوا الرعب إلى قلبك، فهم لا يرغبون في الحرب ولا السلام، فلا وسائل عندهم لخوض الحرب ولا يرغبون في سلام تام، بل يريدون الفتنة التي تتيح لهم سلب أراضيك ونهب خيراتها وإرغامك أنت وذويك على منحهم كل ما تملكون وما لا تملكون، دون خوف من نيل العقاب على أفعالهم هذه. لذا أعود وأسدي النصيحة أنه حتى لو قام عدوك بفعل شيء ضدك، لتنظر بصدر رحب أن يبادر بالحرب أولاً، لأن الصبر كله مزايـا: فأولاً سيكون الرابـلـيـاـجـوـرـاـكـ، وهذا ضروري في مثل هذه الأمور. وثانياً، سيمنحـكـ الناسـ الحقـ. وقد لا يهاجمـكـ أيـ أحدـ إذا لمـ تـفـعـلـ ماـ لـاـ يـنـبـغـيـ عـلـيـكـ فعلـهـ، فـتـعـيـشـ فـيـ سـلـامـ وـتـخـدـمـ الـرـبـ وـتـنـفـعـ أـهـلـ الـخـيـرـ وـلـاـ تـضـرـ نـفـسـكـ إـرـضـاءـ لـأـهـلـ الشـرـ، وـمـاـ أـقـلـ مـاـ سـيـتـحـسـ هـؤـلـاءـ عـلـيـكـ فـيـماـ لـوـ مـسـكـ السـوـءـ.

استحسن الكوندي ما قاله باترونبيو وعمل به فسارت أمره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

لا تهاجم وقد غلبك الخوف

فالنصر دائمًا حليف الصبور.

مثال 16

جواب الكوندي فرنان غونثالث لقربيه نونيو لابنث

تحـدـثـ الكـوـنـدـيـ لـوـكـانـورـ ذاتـ يـوـمـ معـ مـسـتـشـارـهـ بـاتـرـوـنـيـوـ قـائـلـاـ:

- باتروننيو، أنت على علم بأنني لم أعد شاباً، وقد مررت بالعديد من المشاق حتى وصلت لما أنا عليه اليوم. والآن أرغب في الراحة لما تبقى لي من عمر، وكذلك أرغب في ممارسة الصيد لتجنب العمل ومشاقه. وكما أعلم عنك دائماً بأنك أهل للنصح والرأي السديد، أرجو منك أن تقول لي ما علىّ أن أفعله.

- سيدى الكوندي- قال باترونيو- على الرغم من أن كل ما تقوله صحيح ومحق فيه، إلا أنني أرغب في أن تعرف مني ما قاله الكوندي فرنان غونثالث لـ نونيو لاينث.

فترجمة الكوندي أن يخبره عن ذلك.

- سيدى الكوندي- قال باترونيو- عاش الكوندي فرنان غونثالث في مدينة بُرغش بعد أن دافع عن أراضيه دفاعاً مستميتاً. وبينما كان في دعوة وسلام، قال له قريبه نونيو لainت أن عليه من الآن ولاحقاً لا يجازف بالدخول في صراعات أخرى، وأن يستريح ويدع ناسه تستريح أيضاً.

فأجابه الكوندي بأنه لا أحد في الدنيا أكثر منه حباً للراحة والدعة متى استطاع إلى ذلك سبيلاً، لكنه يعرف جيداً أن قومه في حرب مع المسلمين والليونيين والناباريين²³، وأنهم لو ركروا إلى الراحة فسيهاجمهم الأعداء. وإذا أرادوا هم التسلية بقتال الطيور الفارهة عند نهر لانثون صعوداً وهبوطاً، أو على متن بغالهم السمينة عوضاً عن التفرغ للدفاع عن أراضيهم، فيمكنهم عمل ذلك، لكن سيحدث لهم ما قاله المثل القديم: «مات الرجل ولم يمت اسمه». وكانا سنذوق الموت، مزهوين أو تعساء، ولن ينجو منه أهل الدعة والتسلية، فلا أرى الخير في ألا نتصرف بما يضمن لنا السمعة الطيبة بما عملنا.

استحسن الكوندي ما قاله ياترونيو و عمل به فسارت أموره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان انه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الآيات الشعرية:

إذا ما أصاغ الماء سمعته

بِاللّٰهِ وَالرَّاحْمٰنِ

فالحالة فانية لا مجال

ولن نحصل فيها حينئذٍ غير الخزي.

مثال 17

ما جرى لرجل أهلكه الجوع
وقد دعاه آخرون²⁴ لمشاركتهم الطعام بلا حماس

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، جاءني رجل ليقول لي إنه مستعد للقيام بعمل ما يرضيني. وعلى الرغم مما قاله، إلا أنني وجدت في عرضه قولًا بلا حماس يذكر سوف يجعله فرحاً إن لم أقبل مساعدته. وأنا من جانبي، يروقني جداً أن يعمل لي ذلك الذي يرجوني به، ولكن من جانب آخر، يحز في نفسي أن أتقبل منه عرضه، لأنني وجدته ي قوله بلا حماس. ولأنني واثق من إدراكك للأمور، أرجو منك أن تخبرني بما علىّ فعله في هذا الشأن.

- سيدى الكوندي لوكانور - أجاب باترونيو - لكي تفعل ما نراه مناسباً لك، أود منك أن تعرف مني ما حدث لرجل دعى إلى طعام من قبل رجل آخر.

فرجاه الكوندي أن يحكى له عن ذلك.

- سيدى الكوندي - قال باترونيو - حدث لرجل أن كان ثرياً وأصابه الفقر مصاباً شديداً. وكان يخجل من طلب أي شيء وعلى الأخص خجله من طلب الطعام. لهذا عانى الجوع والعوز الدائم. واشتدت تعاسته ذات يوم عندما لم يجد ما يسد به رمقه، فمر بيته أحد معارفه بينما كان يأكل، وعندما رأه يمر من أمام الباب، دعاه لكي يأكل معه بلا حماسة. فراح الرجل، وكان بحاجة كبيرة للأكل، يغسل يديه وقد قال للرجل:

- يا فلان²⁵ بما أنك تلح عليّ كثيراً وتترجاني أن أشاركك الطعام، فلن أسيء الأدب معي ولن أقف ضد رغبتك.

قال هذا ثم جلس وأكل حتى قهر جوعه. وبعد ذلك، منَ عليه الرب بالبركة وألهمه طريق الخلاص من الفقر الشديد الذي ألمَ به.

وأنت سيدِي الكوندي، بما أن الرجل يعرض عليك شيئاً يوافقك، لتفهمه بأنك تقبل به إرضاء له ولا تشغله بالك إن كان يفعل ذلك عن رغبة أم لا. ولا تنتظر منه أن يلح عليك أكثر، وإلا فقد لا يعود إلى الحديث عن ذلك وسوف يكلفك بعد ذلك الكثير أن تطلب منه ما جاء يعرضه عليك بنفسه.

استحسن الكوندي ما قاله باتروننيو وعمل به فسارت أمره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

ما تستطيع الحصول عليه لمنفعتك
لا تنتظر منه توسلًا وإلحاحًا.

مثال 18

ما جرى لـ دون بيدرو دي بالديس عندما كُسرت ساقه

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باتروننيو قائلاً:

- باتروننيو، تعلم أنني في خدام مع جار لي، وهو رجل قدير وبمحاجة، وقد اتفقنا أن يتجه كل واحد منا نحو بلدة فمن وصل أولاً ستكون من نصبيه ويخسرها الآخر. كما تعلم أن قومي مستعدون وواثقون بمشيئة رب أنني سوف أفوز بها وبذلك أزداد شرفاً ونفوذاً. لكنني لا أستطيع فعل ذلك بسبب التعasse التي أصابتني بتوعكي. وعلى الرغم من أن فكري البلدة سيكون خسارة كبيرة، لكن ما يشغلني أكثر هو أنه سوف يفوز بمديح الناس بينما أنا أتقرع لهم. ولثقتى الكبيرة بك، أرجو منك أن تخبرني ما عليّ أن أفعله.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- لك كل الحق في الشكوى، ولكي تفعل الأفضل دائمًا في مثل هذه الحالة، أود أن تعرف مني ما جرى للدون بيبرو ملنديث بالديس.

رجاه الكوندي أن يخبره بما جرى.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- كان الدون بيبرو ملنديث بالديس فارساً شريفاً من مملكة ليون، وكان معتاداً في كل مرة تحدث له مصيبة، أن يقول: «مبارك هو الرب، ما دامت هذه مشينته فلا بد أنه خير».

وكان الدون بيبرو ملنديث مستشاراً ومن خاصة ملك ليون. والبعض من أعدائه وقد كانوا يغارون منه، اتهموه زوراً بأشياء سيئة كثيرة حتى أن الملك قرر قتله.

وبينما كان الدون بيبرو في منزله إذ أتاه أمر من الملك بالمثول أمامه. وكان المأمورون بقتله على بعد فرسخ واحد من بيته. وعندما أراد دون بيبرو ملنديث امتطاء جواده للذهاب إلى الملك، سقط من على السلم وكسرت ساقه. وعندما رأه جماعته، وكانوا يريدون المضي معه، ما حدث له من مصيبة، تأسفوا كثيراً وعاتبوه على هذا النحو:

- إيه دون بيبرو ملنديث، دائمًا ما تقول إن ما يفعله الرب فهو خير، إذاً لتنقبل الآن ما أعطاك.

فرد عليهم بأن يكونوا على ثقة أن ما حدث له من مصيبة، سيرون بعد ذلك أنه خير لأنها مشيئة الرب. وحاولت جماعته أن يقتعوه بخطئه فلم يفلحوا.

أما أولئك الذين كمنوا لقتله بأمر من الملك، عندما رأوا أنه لم يأت وعرفوا ما جرى له، عادوا إلى حيث الملك وأخبروه لماذا لم يستطيعوا تنفيذ أوامره.

مر وقت طويل والسيد بيبرو ملنديث لا يستطيع امتطاء جواده، وبينما كان في ذلك العسر، علم الملك بأن الاتهامات التي كالوها لدون بيبرو ملنديث كانت ملفقة، فألقى القبض عليهم. ومضى بنفسه ليزور دون بيبرو ملنديث في داره وقصّ عليه الاتهامات الملفقة التي اتهموه بها وكيف أنه قد أرسل بمن يقتله. ثم أنه قدم اعتذاره بسبب الخطأ الذي كان سيعترف به حقه، وأحسن إليه وأغدق عليه بالعطايا. ثم إنه أمر بالقصاص من أولئك الذين اتهموه زوراً.

وهكذا أنقذ الرب دون بيبرو ملنديث لأنه لم يكن مذنبًا ولأن الكلمة التي يرددتها «ما دامت هذه مشيئة الرب، فلا بد أنها الأفضل» كانت كلمة حق.

وأنت سيدи الكوندي، فلا تتشكي من الصائفة التي ألمت بك، ولتكن على يقين في صميم قلبك أن ما يفعله الرب هو الأفضل دائمًا. وإذا اعتقدت بهذا، فإنه سيحسن إليك في كل الأحوال. لكن يجب أن تعلم أن الحوادث التي تلم بنا قسمان: قسم يمكن علاجه، وقسم لا حيلة لنا به. أما الحوادث القابلة للعلاج، فينبعي على المرء أن يبحث فيها عن الحلول الممكنة لا أن ينتظرها تستقيم وحدها بالمصادفة أو بمشيئة الرب؛ لأن كل ذلك سيكون بمثابة اختبار له. وبما أن البشر قد وُهِبوا الفهم والإدراك لكي يبذلوا كل جهدهم للوصول إلى مخرج من محنتهم. وأما الحوادث التي لا حيلة لنا بها، فعلينا أن نؤمن إيماناً حقيقياً بأنها نافعة لنا ما دامت تحصل بمشيئة الرب. وبما أن المرض الذي ألم بك لم يكن لك حيلة لتفادييه، فلتكن واثقاً أنه جاء بمشيئة الرب ولا بد أن يعود عليك بالخير، كما أن الرب سيجعل كل الأشياء تنتهي مثلاً تتوقعها.

استحسن الكوندي ما قاله باترونبيو وعمل به فسارت أمره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

لا تشكوا مما قدره الرب لك

فهو خير لك متى شاء.

مثال 19

ما جرى للغربان مع البُوم

تحدى الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- باترونبيو، تعلم أن لي خصومة مع رجل مقتدر، وقد عاش في بيت عدوي واحد من أقربائه وقد وجد منه كل عناء. ذات يوم نشب خلاف بينهما فقسما عليه عدوي ذاك وأهانه قولهً وفعلاً على

الرغم مما لديه من واجبات عليه. وعندما رأى ذلك القريب ما لحق به من أضرار، نسي أنه مدين له بالكثير، وراح يبحث عن طريقة ينتقم بها منه. وقد جاءني ليعرض على خدماته، وهذا ما يوافقني تماماً، فهو يعرف عدوه جيداً وسوف يطعنني على أفضل طريقة للإيقاع به. وبما إنني أثق بك وبإدراكك كثيراً، لذا أرجو أن تشير عليّ بما يجب أن أفعله.

- سيدи الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- من البداية أقول لك أن ذلك الرجل قد جاء ليخدوك، ولكي تعرف كيف سيذكر بك، أود أن تعرف ما جرى للبُوم مع الغربان.

فرجاه الكوندي أن يخبره بذلك.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- كانت الغربان والبُوم في نزاع. وقد كانت الغربان الخاسرة في المواجهة؛ لأن طيور البُوم معتادة العيش في الليل وتختبئ نهاراً في الكهوف المحسنة، إذ كانت تأتي تحت جنح الظلام إلى حيث تعيش الغربان في أشجارها وتقتل العديد منها وتجرح المتبقى. وأمام هذا الوضع من المعاناة، قام غراب يعتبر حكيمًا بينها، وقد أحزنه كثيراً ما يحدث لها من شرور أعدائه طيور البُوم، وتحدث مع أقربائه الغربان وبحث معها عن خطة تستطيع بها التأثر لنفسها.

- والخطة كانت على النحو التالي: طلب أول الأمر من الغربان أن تتنف ريشه كله حتى لا يبقى عليه سوى القليل في الأجنحة ليساعده على الطيران بصعوبة وبشكل سيئ. - وتوجه من فوره إلى طيور البُوم وهو على حالته تلك وحدثها بما فعلته به الغربان، خاصة أنه قد أخبرها بيته لا يشارك في حربها ضد الغربان. وبين لها عن استعداده أن يدلها على طريقة لتنقم بها من الغربان وتلحق بها ضرراً بالغاً.

عندما سمعت طيور البُوم ذلك فرحت كثيراً وظنت أن وجود ذلك الغراب بينها قد ساهم في حل المعضلة، وبدأت تثق به ولا تكتم الحديث أمامه عن أفعالها وأسرارها.

لكن من بين الغربان الأخرى، كان هناك بُوم عجوز وقد مرت به العديد من الأحداث، ورأى ما قام به ذلك الغراب وعرف الخديعة التي يريد تمريرها على البُوم، فذهب إلى زعيم طيور البُوم وأخبره متأكداً من أن ذلك الغراب لم يأت إلا للاحراق الشر بها ولكي يعلم عنها وعن أشيائهما الكثير. لكنه لم يلق منهم تصديقاً، وعندما رأى ذلك منها هجرها إلى أرض بعيدة ليبحث عن مأوى لا تصله

الغربان. أما بقية البوّم فقد صدقت ما قاله الغراب. - وعندما نما ريش الغراب قال لطيور البوّم إنه قد أصبح قادرًا على الطيران بصورة جيدة وإنه سوف يذهب للبحث عن الغربان ويعود إليها ليدلها على مكانها ليقضوا عليها جميعاً. فاستحسنـت طيور البوّم هذا كله.

- لكن عندما وصل الغراب إلى حيث توجد الغربان الأخرى، اجتمع بها وأعلمها بكل ما يعرفه عن طيور البوّم. فهجمـتـ عليها، وهي التي لا تطير في النهار وقد كانت واثقة وبـأمان، فقتلـتـ منها الكثير ودمـرتـها وحقـقتـ النـصرـ في كل حـرـوبـهمـ.

وكل ما لـحقـ بـطيـورـ الـبوـمـ من مـصـائبـ يـعودـ لـثـقـتهاـ فيـ الغـرـابـ وـهـوـ عـدـوـهـاـ الطـبـيـعـيـ.

وأنت تعلم سيدـيـ الكـونـديـ لوـكـانـورـ أنـ هـذـاـ الرـجـلـ جـاءـكـ هوـ قـرـيبـ لـعـدـوكـ وـمـدـيـنـ لهـ بالـكـثـيرـ لـذـكـ فـهـوـ عـدـوكـ أـيـضاـ دـوـنـ شـاكـ، لـهـذـاـ أـنـصـحـكـ بـأـلـاـ تـسـمـحـ لـهـ بـصـحبـتـكـ بـأـيـ حالـ منـ الـأـحـوالـ، وـكـنـ عـلـىـ ثـقـةـ أـنـهـ لـمـ يـأـتـ إـلـاـ لـلـاحـتـيـالـ عـلـيـكـ وـإـلـاـضـرـارـ بـكـ. أـمـاـ إـذـاـ أـرـادـ أـنـ يـقـدـمـ لـكـ فـعـلـاـ الخـدـمـةـ منـ بـعـيدـ، بـحـيـثـ لـاـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـسـيءـ إـلـيـكـ وـدـوـنـ أـنـ تـسـمـحـ لـهـ بـمـعـرـفـةـ أـيـ شـيـءـ مـنـ أـسـرـارـكـ وـعـادـاتـكـ، وـرـأـيـتـ أـنـهـ قـدـ أـلـحـ أـذـىـ حـقـيقـاـ بـعـدـوكـ الـذـيـ هـوـ قـرـيبـهـ، بـحـيـثـ يـؤـدـيـ ذـلـكـ إـلـىـ أـنـ تـنـفـصـ مـاـ بـيـنـهـمـ مـنـ عـرـىـ وـرـوـابـطـ إـلـىـ الـأـبـدـ، فـقـطـ حـيـنـذـاكـ يـمـكـنـكـ أـنـ تـنـقـ بـهـ، وـمـعـ ذـلـكـ فـلـاـ تـنـحـ لـهـ فـرـصـةـ إـلـيـكـ أـبـداـ.

استحسنـ الكـونـديـ ماـ قـالـهـ بـاـتـرـونـيـ وـعـمـلـ بـهـ فـسـارـتـ أـمـورـهـ عـلـىـ خـيـرـ مـاـ يـرـامـ.

ولـمـ وـجـدـ دـوـنـ خـوـانـ أـنـهـ مـثـالـ جـيدـ، أـمـرـ بـتـدوـينـهـ، وـكـتـبـ فـيـهـ هـذـهـ الـأـبـيـاتـ الشـعـرـيـةـ:

مـنـ اـعـتـادـ أـنـ يـكـنـ لـكـ العـدـاءـ

فـلـاـ تـنـقـ بـهـ وـلـاـ تـحـابـيـهـ.

مثال 20

ما جـرـىـ لـمـلـكـ مـعـ رـجـلـ اـدـعـىـ مـعـرـفـتـهـ بـعـلـمـ الـخـيـمـيـاءـ

تحدى الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، جاءني رجل وقال لي إنه يستطيع أن يمدني بنفوذ وثراء كبارين، وطلب مني بعض المال ليتم عملاً قد بدأه، وقد وعدني بأن يعيده لي مضاعفاً عشر مرات. وبما أنتي أعرف مدى نباهتك، لهذا أرجو أن تتصحني بما تراه موافقاً لي.

- سيدى الكوندي، لكي تدرك ما عليك أن تفعله، فلا بد أن تعلم ما جرى لملك مع رجل ادعى أنه على معرفة بالخيماء.²⁶

فأسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونيو - كان هناك رجل²⁷ من الشطار يحلم بالثراء ليخرج من الحياة البائسة التي عاشها. وسمع ذلك الرجل أن ملكاً عرف بقلة حنكته كان يجهد نفسه ليقوم بأعمال الخيماء.

فأخذ الرجل مائة قطعة نقدية من المعرفة بالدوبلات²⁸ وحکها كلها، ثم مزجها مع أشياء أخرى وصنع منها مائة كرة، بحيث وزنت كل كرة ما مقداره قطعة دوبلة واحدة و فعل الأمر نفسه مع البقية. ومضى بها حتى مدينة الملك، مرتدياً ملابس الوجهاء وحمل معه الكرات وباعها لأحد العطارين. وحين سأله العطار عن فائدتها، قال له المحتال إنها تصلح لأمور شتى، خاصة أنه من دونها لا يمكنك أن تمارس عمل الخيماء. وكان أن باعه كل الكرات المائة باثنين أو ثلاثة دوبلات. وعندما سأله العطار عن اسم تلك الكرات، أخبره المحتال بإن اسمها هو «طبردية».²⁹

وقضى المحتال أيامًا عدة في المدينة كرجل محترم وأشاع بين الآخرين في السر، أنه على معرفة بفن الخيماء.

عندما وصلت الأخبار إلى الملك، بعث في طلبه وسأله إن كان على معرفة حقيرة بالخيماء. وعلى الرغم من أن المحتال قد تظاهر بالإنكار بادئ الأمر، لكنه في النهاية أعلم بأنه يعرفها حق المعرفة. وقال للملك ناصحاً ألا يثق بأحد ولا يغامر كثيراً في هذا العمل، ولكنه لو شاء فيمكنه أن يجرب أمامه ما يعرفه. فشكراً للملك واقتنع بأن الأمر لا خديعة فيه. عندئذ طلب أن يشتروا له مواداً بقيمة دينارين أو ثلاثة دنانير. وعندما جلبوا له كل شيء، بما فيها كرة واحدة من الطبردية، أذابها

أمام الملك وصنع منها ما يعادل دوبلة واحدة من الذهب الخالص. وعندما رأى الملك أنه باثنتين أو ثلاثة يمكنه الحصول على دوبلة واحدة، شعر بالسرور واعتبر نفسه من أسعد الخلق في العالم، وقال للمحتال إنه بعمله هذا يرى أنه رجل طيب.

فقال له المحتال كما لو أنه لا يعرف أكثر من ذلك:

- سيدِي، لقد أريتك كل ما أعرف وأنجزته أمامك. من الآن فصاعداً يمكنك أن تفعله مثلِي، إلا إنني أنبهك إذا ما نقصك شيء واحد من تلك المواد فلا يمكنك أن تستخلص منها الذهب.

وبعد أن قال هذا، دعَّ الملك ومضى إلى بيته.

وبدأ الملك يجرِّب بنفسه صنع الذهب. فكان أن ضاعف المقادير فاستخلص منها مقدار دوبلتين من الذهب. وضاعف المقادير مرة أخرى فاستخلص ذهباً بمقدار أربع دوبلات. وكلما كان يزيد في المقادير يحصل على وزنها من الدوبلات. وعندما رأى الملك أن بمقدوره أن يصنع ما يشاء من الذهب، طلب أن يشتروا له ما يمكنه من صنع ألف من الدوبلات. وعثروا على كل المواد ولم يجدوا من مادة الطبردية شيئاً. وعندما رأى الملك أنه ينقصه الطبردية، وإلا فإنه لن يستطيع صنع الذهب، بعث في طلب ذلك الذي علمه صنعها وأخبره أنه لا يستطيع صنع الذهب كما اعتاد أن يفعل. وعندما سأله إن كان بحوزته كل المواد المطلوبة التي أمر بكتابتها، أخبره الملك بأنها كلها موجودة عدا مادة الطبردية.

عندئذ قال له المحتال إن أي نقص يمنعه من صنع الذهب، وكان قد أخبره بذلك منذ اليوم الأول.

فسألَه الملك إن كان يعرف من أين يمكنه شراء الطبردية فأجابه المحتال بالإيجاب.

فبعث به الملك طالما أنه يعلم أين توجد، وأن يشتري له منها ما يكفيه لصنع كل الذهب الممكِّن.

فأجاب المحتال بإنها مهمة يمكن أن يقوم بها أي واحد مثله أو أحسن منه، لكنه إذا شاء منه هذه الخدمة فهو على استعداد لتنبيه طلبه، ففي بلاده منها الكثير. فأحصى الملك ما يعادل قيمة الشراء والمصروفات وأنقده مبلغاً كبيراً.

عندما أصبح المال في متناوله، غادر المحتال فوراً ولم يعد إلى الملك أبداً. وهكذا انخدع الملك لقلة تدبيره. وبعد أن رأى تأخره عليه، أرسل من يتعلم عنه في بيته، ولكنهم لم يجدوا شيئاً في بيته، بل كانت بوابته مغلقة. وعندما فتحوها، وجدوا فيها ورقة مكتوب عليها «تأكد أنه لا يوجد في العالم شيء اسمه الطبردية، لكن لتعلم أنني خدعتك». وعندما قلت لك أنك ستربح أموالاً طائلة وتزداد ثراء، كان عليك أن تجيبني: أغن نفسك أولاً حتى أصدقك».

بعد أيام عدة اجتمع مجموعة من الرجال للضحك والتسلية، وخطر على بالهم أن يعدوا قائمة بأسماء الرجال الذين يعرفون، ومع كل واحد ما يدل عليه بطريقة ما، فقالوا: «الشجعان هم فلان وفلان، والأثرياء هم فلان وعلان، والنبياء فلان وفلان». وهكذا مع الجميع بذكر الأشياء الجيدة وما يخالفها. وعندما أرادوا أن يدونوا أسماء الرجال المغفلين، فكتبوا اسم ذلك الملك. وعندما علم الملك بذلك، أرسل في طلبهم و منهم الأمان و سألهم لماذا وضعوا اسمه مع قائمة المغفلين. أجابوه بأنهم فعلوا ذلك لأنه ائمن رجلاً غريباً دون سابق معرفة به.

فقال لهم الملك إنهم على خطأ لأنه سيتمكن من إحضار ذلك الرجل مع ما حصل عليه منه وسوف يصبح عليهم حذفه من قائمة المغفلين. فكان أن أجابوه بأن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً، فلو عاد الآخر، سوف يحذفون اسم الملك ويضعون بدلاً عنه اسم ذلك الرجل.

وأنت سيد الكوندي لوكانور، إذا أردت ألا يعودونك من المغفلين فلا تجازف بما عندك، بحيث يجعلك تندم إذا خسرته لوثوتك في ربح مشكوك فيه.

استحسن الكوندي ما قاله باترونبيو و عمل به فسارت أمره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

لا تجازف بثروتك الكبيرة

لأنك قبلت بنصح دائم الفقر.

**ما جرى لملك شاب
مع فيلسوف كبير عهد به أبوه إليه**

تحدد الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- باترونبيو، حدث أن كان لي قريب أوده كثيراً، ومات ذلك القريب تاركاً من بعده ابن صغير تكفلت بتربيته بنفسه. ذلك لأنه من أهلي وبين أبيه موعدة كبيرة وأنا أنتظر أن استعين به حين يصبح رجلاً، والرب يعلم أنني أوده كما لو كان ابناً لي. وعلى ما به من شمائل وثقة بالرب أن يكون رجلاً صالحاً، إلا أنني أخشى عليه أن تضلله فتوته وتمنعني عن فعل ما يناسبه، وأتمنى ألا يقع الفتى فريسة الزهو بشبابه وهو ما يحدث عادة. ولعلمي بنبأهتك، أتمنى عليك أن تتصحّني بما ينبغي عليّ فعله حتى يستطيع الفتى أن ينتفع بصحّته وثروته.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- لكي تفعل ما يمكن أن يوافق هذا الفتى جيداً، أرغب في أن تعرف مني ما جرى لفيلسوف كبير مع مریده الملك الشاب.

فسأله الكوندي عما جرى في ذلك الأمر.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- كان لملك ابنٌ وقد عهد بتربيته إلى أحد الفلاسفة الذي يثق به ثقة عمياء. وعندما توفي الملك خلفه ابنه وهو ما يزال صغيراً. فسهر الفيلسوف على تربيته حتى بلغ سن الخامسة عشرة. وبعد أن دخل في مرحلة الفتولة بدأ يزدرى نصائح ذلك الذي ربه وتبع نصائح بعض الفتية ممن لم يكونوا على دين معه ولم يعملا للحفظ عليه من الأخطار. وبعد فترة وهو على تلك الحال ساءت حالته البدنية والنفسية بشكل كبير. فجعل كل الناس ينتقدونه لعدم اهتمامه بصحّته وتبذيره لثرواته. ازداد الأمر سوءاً، وحزن الفيلسوف الذي سهر على تربيته كثيراً، لكنه لم يعرف ماذا عليه أن يفعل، فقد حاول أن يصلحه بالرجاء والإطراء مرة وبالعتاب القاسي مرات، لكن كل ذلك كان دون جدوى، ففتنته كانت تمنعه عن كل هذا. وعندما علم الفيلسوف بأنه لن يظفر بأي شيء بهذه الطريقة، فكر بالطريقة التالية التي ستسمعها مني الآن.

أشاع الفيلسوف في بلاط الملك شيئاً فشيئاً بأنه يفهم في تفسير لغة الطير. وقد سمعه العديد من الرجال حتى وصل إلى أسماع الملك الشاب. وعندما علم بذلك سأله الفيلسوف إن كان حقيقة أنه يفهم

لغة الطيور كما يقولون. وعلى الرغم من أن الفيلسوف قد أنكر في البداية، إلا أنه كان مُجبراً على الاعتراف له في النهاية وطلب منه ألا يعلم بالحقيقة أحد غيره. وبما أن الفتية لا يصبرون على معرفة كل الأشياء، فقد كان الملك الشاب متشوقاً لمعرفة كيف يقوم الفيلسوف بتفسير لغة الطيور. فراح الفيلسوف يؤجل الأمر والملك الشاب يستعجله ويلح عليه حتى اتفق الفيلسوف معه أن يخرجا ذات يوم في ساعة مبكرة دون أن يعلم بهما أحد ليريه كيف يفسر ما تقوله الطيور.

خرج في الصباح الباكر وقاد الفيلسوف الملك عبر وادٍ عامر بالقرى الفقير المهجورة، وبعد أن سارا طويلاً، لمح أنتي غراب تتعلق على الشجرة. فدلَّ الملكُ الفيلسوف عليها، فتصنع هذا بأنه يفهم ما تقول. ثم راحت أنتي غراب أخرى تتعلق على شجرة أخرى. وظلتا تتعلقان لوقت طويل، مرة هذه ومرة تلك. وبعد أن استمع الفيلسوف إليهما لفترة وجيزة بدأ بالبكاء وتمزيق ثيابه وأظهر تالمه الكبير الذي لا يعادله كل آلام العالم.

عندما رأى الملك الشاب ما رأى، جزع وسائل الفيلسوف لماذا يفعل كل ذلك. تظاهر الفيلسوف بأنه لا يرغب في شرح السبب، لكن أمام إلحاشه، قال إنه يفضل الموت على الحياة قبل أن ينطق بكلماته، حتى الطيور قد أدركت وليس الناس فقط، أنه بتذليله السيئ قد أضاع أراضيه وبدد ثروته وأساء لصحته. فطلب منه الملك الشاب أن يفسر له ذلك. فأجابه الفيلسوف أن أنتي الغرائب كانتا قد اتفقا على أن يتزوج ابن الأولى بابنة الثانية، وإن أنتي الغراب التي تكلمت أولاً قالت للثانية إن الاتفاق قد تم منذ وقت طويل، وقد آن الأوان لتزويجهما. وافتتها الأخرى على ذلك، لكنها أضافت أن الحال قد تغيرت لأنها صارت أكثر ثراءً منها، إذ بفضل الرب ومنذ أن تقلد الملك الجديد الحكم، فإن كل قرى الوادي قد أصبحت قَفراً، وأنها تعثر في بيوتها المهجورة على الكثير من الأفاعي والسلالى والضفادع وكل تلك الدواب التي تعيش في الأماكن المقفرة. ولهذا فهي تأكل اليوم أفضل بكثير من ذي قبل، لهذا ترى أن الزواج لم يعد متكافئاً. عندما سمعت أنتي الغراب الأخرى ذلك بدأت بالضحك وأجابتها بأنه من الحماقة أن تتحدث عن هذا السبب في تأجيل الزواج، لأنه لو فقط أطال الرب من عمر الملك قليلاً فسوف تصبح أكثر ثراءً منها، لأن الوادي الذي تسكنه لن يفتَّ أن يصبح قفراً مهجوراً هو الآخر، وفيه عشرات القرى، لذلك فلا داعي لتأجيل الزواج. وهكذا اتفق الطيران على الاحتفال بالزواج دون تأخير.

عندما سمع الملك الشاب هذا الكلام اعتناظ جداً، وبدأ يفكر في أنه بسبب سوء أعماله قد جعل أملائه قفراً. لاحظ الفيلسوف بعد ذلك فلق الفتى ورغبه في الحفاظ على ممتلكاته، فقدم له العديد من النصائح القيمة ونجح في فترة وجيزة في تغيير سلوكه وتنظيم حياته وملكته.

وأنت سيدي الكوندي قد ربيت هذا الفتى وترى منه أن يحافظ على حاله، فعليك البحث عن الأمثلة والكلمات الناجعة والإطراء الممكن حتى يقهم وضعه. ولا تختلف معه أبداً، ولا تحاول تأدبيه عن طريق الشجار والشتيمة؛ لأن أغلب الفتية يضجرون من يكثر في عتابهم، ويعتبرون كل ذلك إهانة لهم، ولا ينتبهون بالمرة لأخطائهم. وأفضل صديق للفتية هو من يصل إلى تقويمهم حتى لا يضرروا أرواحهم، ولو أنهم يستاؤون عادة من كثرة النصائح. أما إذا فعلت خلاف ذلك، فستتشعل فتيل العداء بينكما ويضر ببعضهما البعض.

استحسن الكوندي نصيحة باترونبيو وعمل به فسارت أمره بخير.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

لا تعاقب الفتى بالإساءة

بل علمه الأمور بالرفق.

مثال 22

ما جرى للأسد والثور

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونبيو فائلاً:

- باترونبيو، عندي صديق مقتدر ذو نفوذ، والحق أنني لم أر منه إلا الخير، نما إليّ من يقول إنه لم يعد يودني كما كان عليه في السابق، وأصبح يتحين الفرص لمحاجتي. وأنا اليوم منشغل بهميين اثنين: الأول خشيتني من أن يهاجمني وهذا ما قد يسبب لي المزيد من الأضرار. أما الثاني

فهو خبيثي من أن يعلم باريابي وحذري منه فيرد عليّ بالمثل، فتكبر حينها الشكوك والبغضاء ويفسد كل شيء بيننا. ولثقة الكبيرة فيك، أرجو أن تتصحني فيما تراه مناسباً كي أقوم به.

- سيدى الكوندي- قال باترونيو- لكي تتفادى كل هذا، أتمنى عليك أن تعلم ما جرى للأسد والثور.

فرجاه الكوندي أن يخبره عما جرى.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان الأسد والثور صديقين حميمين، ونظرأ لقوتهما فقد بسطا نفوذهما على بقية الحيوانات، واستطاع الأسد بمساعدة الثور السيطرة على السابع آكلة اللحوم، وسيطر الثور بمساعدة الأسد على الحيوانات آكلة الأعشاب. ولما رأت الحيوانات أن الثور والأسد قد سيطرا عليها بفضل اتحادهما وتعاونهما وهذا ما سبب لها المزيد من الأضرار، فقد تشاورت الحيوانات فيما بينها جميعاً للبحث عن وسيلة للتخلص من سيطرتهما. وأدرك الجميع أنه لو نشب خلاف بين الصديقين، يصبح الجميع أحراضاً من سيطرة الأسد والثور. وبما أنهاهما يعرفان بقرب الثعلب والكبش من الأسد والثور أكثر من بقية الحيوانات، فتمنت عليهما كل الحيوانات أن يعملا على إثارة الخلاف بين الأسد والثور. وهؤلاء بدورهما وعدا الجميع بأن يعملا بكل جهد لتحقيق ما فكرت فيه.

طلب الثعلب، وكان مستشاراً للأسد، من الدب وهو أقوى الحيوانات المفترسة بعد الأسد، أن يمضي حتى الأسد ليقول له إنه قد وصل إلى سمعه منذ أيام أن الثور يبحث عن وسيلة للإيقاع به، ومن الضروري أن يحذر حتى لو لم يكن الأمر صحيحاً كل الصحة.

والكبش، وقد كان مستشاراً للثور، طلب الشيء نفسه من الفرس وهو أقوى الحيوانات آكلة العشب بعد الثور.

عندما سمع كل من الثور والأسد ما قاله لهما الدب والفرس، لم يصدقوا كل ما جاءوا به، على الرغم من معرفتهم أنهاهما من أخلص التابعين لهما، وشكوا في الأمر، على الرغم من أن الشك قد غلب عليهما. فقد تشاورا كل واحد منها على حدة مع الثعلب والكبش.

فقالا لهما إن الدب والفرس من الممكن أن يحيكا لهما الأحابيل لخداعهما، إلا أنه من الأفضل من الآن فصاعداً أن ينتبه كل من الأسد والثور لأفعال وأعمال الآخر ويريا ما عليهما فعله في هذا الشأن.

وحين رأت الحيوانات أن الشك قد بدأ يتسرّب بين الأسد والثور، بدأت جميع الحيوانات بالقول لهمَا ودون مواربة إن الحذر إنما ينجم عن سوء النية الخفية في القلوب.

وراح الثعلب والكلب، بعد أن تحولا إلى مستشارين مزيفين، يبحثان عما يوافقهما ونسيا إخلاصهما لسيديهما، فلتفا الكثيرون من الأكاذيب، وبذلا المزيد من الجهد والتلفيق حتى تحولت المحبة التي تجمع الأسد والثور إلى كراهيّة. وحين رأت الحيوانات ذلك الوضع زادت من الإلحاح عليهما والضغط حتى يبدأ المواجهة فيما بينهما، وقد أفهمت كل واحد أنها تقف بجواره، حتى زادت الخلاف ما بين الأسد والثور.

وفي النهاية حدث التالي. على الرغم من أن الأسد قد أحرق ضرراً بالغاً بالثور وأضعف نفوذه، إلا أنه في المقابل تضرر هو أيضاً، وعجز عن السيطرة على الحيوانات التي تقع تحت سيطرته ولا على الحيوانات الأخرى كما كان يفعل من قبل. وهكذا، فإن الثور والأسد لم يفهمما أنه بفضل تحالفهما وتعاونهما كسبا احترام الحيوانات الأخرى وفرضيا سيطرتهما عليها، كما لم يعرفا كيفية الحفاظ على صداقتهما، ولم يتمتعوا عن سماع النصائح المغرضة لتلك التي سعت إلى إضعافهما والتخلص من نفوذهما، فأصاب الأسد والثور الضعف، وخضعا فيما بعد لمن كانوا خاضعين لهما.

وأنت سيد الكوندي لوكانور، احذر من أن يكون هؤلاء الذين يثيرون الشكوك حول صديقك إنما يسعون للشيء نفسه الذي سعى إليه تلك الحيوانات مع الأسد والثور. لذلك أنصحك إذا كان صديقك ذلك رجلاً مخلصاً ولم تصدر عنه إلا الأعمال الطيبة الوفية، عليك أن تثق به كثفتاك بابن لك أو أخي طيب، ولا تصدق كل ما يقولونه عنه جزاً، بل وأنصحك بأن تقول له ما يقولونه عنه ليقول لك هو بدوره ما يقولونه عنك. وعاقب من يسعى لديك بهذه الأقوال الكاذبة كي يرتدع الآخرون ولا يقومون بالفعل نفسه. أما إذا لم يكن صديقك على الشكل الذي قلته لك، وكانت صانته بك عابرة وبالمصادفة أو للمنفعة، فاحرص على ألا تفعل أو تقول ما يوحى إليه بأنك تشک فيه أو

أنك تزيد الإساءة إليه، ولتغفر له بعض أخطائه، واكتم الأمر، وتتأكد أنه لن يستطيع أن يلحق بك شرًا أكبر من الشر الذي قد يلحقه بك إذا اختلفتما وتعاديتما كما ذكرت ذلك سابقاً. ولكن اجعل هذا الصديق يدرك بأفضل الوسائل أنه من الأفضل لك أن تتقبل مساعدته، وبدوره أن يتقبل منك المساعدة. وأول شيء هو أن يعمل أحدهما للأخر الأعمال الصالحة وأن يبدي إرادته الطيبة وألا يدع للشك طريقةً إلى قلبه دون سبب، كما عليه ألا يعتقد بما يقوله رجال السوء أو التركيز على بعض الأخطاء. والآخر هو، أن توضح دائمًا أنه من الأفضل أن تتلقى مساعدته كما عليه أن يتلقى مساعدتك. وبهذا تدوم الصداقة ما بين الاثنين ولن تقع في الخطأ الذي وقع به كل من الأسد والثور.

استحسن الكوندي مثل ما قاله باترونويو وعمل به فسارت أمرره بخير.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

احذر فقدان صديق نافع

بأحابيل رجل كاذب.

مثال 23

ما يفعله النمل لكي يعيش

تحدى الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونويو قائلاً:

- باترونويو، أنا ثري بفضل الرب، لذلك ينصحني بعض الناس، وهو ما أستطيع عمله، ألا أشغل بالي بعد ذلك إلا بالمتعة والأكل والشرب، فالثروة التي بحوزتي تكفيني لما تبقى لي من عمر، بل ولأبنائي من بعدي. وبما أنني أعرف بمدى نباهتك، لهذا أرجو أن تتصحني بما تراه موافقاً لي.

- سيد الكوندي لوكانور - قال باترونويو - لا أجد عيباً في الراحة والمتعة، لكن لتفعل ما يعود عليك بالنفع في كل الأوقات، لهذا أود أن تعرف مني ما يفعله النمل من أجل أن يعيش.

فسأله الكوندي عن ذلك، وأجابه باترونبيو:

- سيدى الكوندى لوكانور، تعلم كم هي صغيرة النملة، ولها السبب، ليس عليها أن تكون بذكاء خارق، لكنها تخرج من أوكارها في كل سنة وفي الوقت الذى يحصل فيه الرجال القمح، فتمضي حتى البيادر لتحمل كل ما تقدر عليه من حبوب لتخبئه فى بيوتها. وعندما تهطل الأمطار، يُخرج النمل تلك الحبوب. والناس يعتقدون أنه يفعل ذلك لتجفيفه. لكنهم مخطئون لأن الأمر ليس على هذا النحو، فأنت تعلم جيداً أن النمل يُخرج الحبوب من أوكاره مع زخات المطر الأولى، ولا يفعل ذلك كلما أمطرت، وإلا سوف يقوم بعمل شاق جداً. ثم إن الشمس في فصل الشتاء قلما تبرز حتى يتم تجفيف الحبوب بدفء أشعتها.

السبب الحقيقي وراء إخراجه الحبوب المخزونة بعد زخة المطر الأولى، هو أنه قد ملأ بها وكره عن آخره، وليترغب بعدها لحفظ مخزون الحبوب ليضمن الحياة تلك السنة. فعندما يهطل المطر، تتبلل الحبوب وتبدأ بالانفاس، ويدرك النمل أن انفاس الحبوب معناه فساد المداخل والمخارج وبذلك يكون سبباً في هلاكه. لذلك يخرج الحبوب ويأكل لها، إذ منها تتطرق الجذور والسيقان، ولا يترك منها سوى قشرتها الخارجية التي لا تنمو أبداً مهما انتشت بالأمطار، وبذلك يضمن تغذية العام.

لاحظ أيضاً أن النمل يستغل الطقس الجيد دائماً ليقوم بحمل الأعشاب الصغيرة التي يعثر عليها حتى لو كان لديه مخزون من الحبوب يكفيه ويزيد. أي أنه لا يتوقف عن العمل ولا يضيع وقته الذي منحه له رب لينتفع به.

وأنت سيدى الكوندى، على و Tingira النمل الذى يبين نباهته وحبه للعمل على الرغم من ضآلتكم، عليك أن تقنع بأنه لا يصلح لأى أحد لاسمها أصحاب الجاه والسلطة، الاعتماد على ما كسبوه من قبل؛ لأن المال الذى ينفق منه المرء كل يوم دون أن يخلفه سينفذ لا محالة مهما كان طائلاً. وزيادة على ذلك، إن مثل هذا التصرف يعتبر علامه على ضعف العزيمة وقلة في الحزم. لذا أنسشك بـ لا تنسى مكانتك حين تريد أن تأكل أو أن تستريح، وأن تنتظر للعد وتتحقق من أنه لن ينفكك شيء من الأموال، فإذا كان عندك منه الكثير وأردت أن تقوم بعمل الخير، فإنك لن تعدم أبداً ما تنفق فيه أموالك، مع ما تحصل عليه من شرف أكبر.

استحسن الكوندي ما قاله باتروننيو وعمل به فسارت أمروره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

لا تبذر كل ما حصلت عليه

ولتعش حياتك ولتمت بشرف.

مثال 24

ما جرى لملك أراد أن يختبر أبناءه الثلاثة

تحدث باتروننيو ذات يوم مع مستشاره باتروننيو فائلاً:

- باتروننيو، في بيتي يتربى الكثير من الفتية، ومن بينهم أبناء علية القوم وآخرون من أبناء الناس البسطاء، وإنني أجدُ في كل واحد منهم خصالاً مختلفة ومتنوعة. وبما أنني أعرف أنك على فهم وإدراك عميقين، فأرجو منك أن تخبرني منْ من هؤلاء الفتية سيصير أفضل الرجال.

- سيدи الكوندي- أجاب باتروننيو- لا حيلة لي لمعرفة الغد ومن الصعب معرفة ما يخبئه المستقبل. وأنت تسألني عن أمور المستقبل ولن أقدر أن أجيبك إجابة شافية. كل ما يمكن عمله في هذه الحالة هو استقراء العلامات البارزة والخفية التي تصدر عن الفتية. والعلامات الظاهرة هي في قسمات الوجه ولون الجسد وشكله والأعضاء الأخرى. وكلها تنبئ عن طبع الأعضاء المهمة كالقلب والدماغ والكبد. لكن هذه العلامات ليست سوى إشارات مجردة ولا يمكن التوصل لمعرفة الحقيقة عبرها، فهي نادراً ما تستقر على شيء محدد، فتدل أحياناً على شيء وفي أحيان أخرى على عكسه. لكن الأفعال عادة ما تكون بما تنبئ به العلامات.

الأكثر وضوحاً بينها هي علامات المحسنة، خاصة العيون والمظهر، إذ إنها قلما تكذب. ولا تظن المظهر في الحسن أو الدمامنة، فربّ رجل جميل لا مروءة فيه، وربّ دميم الوجه يكون كثير المروءة. وتتبئ هيئة الجسد والأعضاء عن الطباع، وهو ما يدل على شجاعة أو رعنونة في المرء.

لكنها لا تتبئ عن الأفعال، فهي مجرد علامات، أي إشارات محددة لا يمكنها أن تخبرنا باليقين التام عما سيحدث. وهذه هي العلامات البارزة، ولا يمكننا الاعتماد عليها للإجابة عن تساؤلك. ولكن لكي تتعرف إلى خصال الفتية من العلامات الباطنة وهي الأصدق، أتمنى أن تعرف مني ما جرى لملك مسلم وهو يقوم بتجربة أبنائه الثلاثة ليختار من بينهم من يخلفه في الحكم.

فرجاه الكوندي أن يخبره بما جرى له.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان لملك مسلم ثلاثة أبناء، وهو الذي يقدر أن يختار منْ سيخلفه من أبنائه في الحكم متى يشاء. وعندما بلغ الملك الشيخوخة، طلب منه رجاله الخُلُص أن يختار من بين أبنائه من يخلفه في الحكم. فوعدهم الملك بأن يقوم بذلك بعد مرور شهر.

وبعد أن مرت ثمانية أو عشرة أيام، قال لابنه الأكبر ذات مساء إنه يريد التجوال معه على صهوة الجواد في صباح يوم غد باكراً. وفي اليوم التالي جاء الابن الأكبر في طلب أبيه، لكنه لم يصل مبكراً كما اتفقا. وعندما وصل أخبره أبوه بأن يطلب له الملابس التي عليه أن يرتديها. فطلب الابن الأكبر من الخادم أن يجلب الثياب، فسأله الخادم أي الملابس يريد؟ فعاد الابن الأكبر إلى الملك ليأسله عن رغبته، فأجابه الملك بأنه يريد ارتداء الجبة³⁰ فذهب ليخبر الخادم عن رغبة الملك، فسأله الخادم أي نوع من العبي³¹ يريد؟ فعاد الابن الأكبر ليسأله الملك عن ذلك. وتكرر الأمر مع بقية الثياب، والابن الأكبر يذهب ويجيء ما بين الملك والخادم، حتى حصل الملك على كل ما يتغيه. وجاء بعدها الخادم ليساعده بارتداء الثياب والنعلين.

وبعد أن انتهى الملك من ارتداء الثياب والنعلين، أمر ابنه بإحضار الجواد. فطلب الابن الأكبر من السائق أن يحضر الجواد، فسأله هذا أي جواد يريد الملك؟ فعاد الابن الأكبر ليسأله الملك، وتكرر الأمر بسؤال الملك مع السرج واللجام والسيف والمهاميز وكل ما يحتاجه للركوب.

عندما أصبح كل شيء جاهزاً، أخبر الملك ابنه الأكبر بأنه لا يستطيع الخروج للتجوال، وطلب منه أن ينزل وحده إلى المدينة ويراقب كل شيء ليعود ويقص عليه ما رأه.

امتطى الابن الأكبر جواده وخرج رفقة رجال البلط والمملك تسبقهم الأبواق والمزامير وبقية الآلات. وتجول في المدينة بعض الوقت، ثم عاد إلى حيث الملك الذي سأله بدوره عن رأيه

فيما شاهد. فأجاب الابن الأكبر بأن كل شيء على ما يرام، إلا أن ضجيج تلك الآلات كان عالياً ومزعجاً.

بعد مضي أيام قليلة، أمر الملك ابنه الأوسط بأن يأتيه في صباح اليوم التالي باكراً، ففعل الابن الأوسط. وأخضعه الملك للاختبار نفسه الذي مر به أخوه الأكبر. وقال تماماً مثلما قال شقيقه الأكبر.

وبعد أيام أخرى استدعى الملك ابنه الأصغر ليأتيه باكراً. ووصل الابن الأصغر باكراً وقبل أن يستيقظ الملك وانتظر حتى استيقظ، عندئذ دخل عليه كما يجب بكل أدب وتواضع. فأمره الملك أن يأتيه بثيابه. فسأل الابن الأصغر أي الثياب يريد، وبعد أن سأله عن كل شيء بشأن الثياب وال נעلين، مضى ليجلب كل شيء مرة واحدة. ولم يشاً أن يقوم أي خادم بإلباس الملك بل قام به بنفسه، وعبر عن سعادته وسروره بخدمته، فهو أبوه ومن الطبيعي أن يقوم الابن بخدمة الأب. وعندما انتهى الملك من ارتداء ثيابه ونعليه، طلب من الابن الأصغر أن يجلب له جواده. فسأله أبي جواد يرغب وأي سرج وأي لجام وأي سيف وكل تلك الأشياء الازمة لامتناء الجواد، ومن يرغب بمحاصبته في الجولة ولم ينس أي شيء ينبغي السؤال عنه. وعندما انتهى من السؤال، لم يتأخر في جلب كل شيء دفعة واحدة. فجلب كل شيء وأحضره مثلاً أمر به الملك.

بعد كل ما عمله، قال الملك أنه غير راغب في الخروج وطلب منه أن يمتنع الجواد وأن يحكي له بما سيشاهده في تجواله. فامتنع الابن الأصغر جواده ومضى معه كل أولئك الذين رافقوا شقيقه. لكنه لا هو ولا أي شقيق ولا أحد آخر يعرف أسباب ما كان يريده الملك من كل هذا.

عندما امتنع الابن الأصغر جواده، طلب أنه يأخذوه ليشاهد كل ما يجري في المدينة من الداخل وفي الشوارع، وكل ما للملك من ثروات وكم عددها، وعن المساجد وكل ما هو مميز في المدينة، وكم عدد سكانها. بعد ذلك مضى إلى خارج المدينة وأمر أن يستعرض أمامه كل الرجال المسلحين والفرسان والمشاة، وطلب منهم أن يتصارعوا فيما بينهم وأن يقوموا بالمناورات والألعاب الحربية الأخرى. وراجع كذلك الأسوار والأبراج والقلاع. وبعد أن رأى كل شيء، عاد إلى حيث أبيه الملك.

ووصل في وقت متاخر. فسأله الملك عن الأشياء التي شاهدها، فأجابه الابن الأصغر بأنه يود قول الحقيقة ويتمنى إلا يزعجه ذلك. فأكذ له الملك أنه مهما قال فلن يجد عنده إلا الرضا والقبول. فقال له الابن الأصغر إنه دائم الولاء له، وقد رأى فيه دائمًا ملكاً جيداً، لكنه تأكد الآن أن الأمر ليس إلى هذا الحد، إذ لا يفهم لماذا لم يفعل أي شيء، ولم يحاول السيطرة على العالم بأجمعه لو شاء ذلك.

رافقت للملك صراحة الابن الأصغر، وعندما حانت الفرصة ليخبر رجال مملكته عن اختياره، قال لهم إن الابن الأصغر هو الأفضل ليكون ملكاً.

لقد دلت العلامات التي رآها في الآخرين وفي هذا الابن الأصغر، وحتى لو كان يفضل أي واحد منه الآخرين أن يكون ملكاً، فإنه قد رأى في الابن الأصغر ما لم يره في الآخرين.

وأنت سيد الكوندي لوكانور، تريد أن تعرف أي فتى سوف يصير رجلاً نافعاً، فعليك أن تتمعن جيداً في الأمور لتسخلص مما سيكون عليه كل واحد منهم.

استحسن الكوندي ما ذكره له باترونبيو.

ولأن دون خوان قد رأى أنه مثال جيد، فقد أمر دون خوان بتدوينه في كتابه هذا، وكتب فيه هذه الأشعار:

تمعن في أعمال وخصال الفتية

لتعرف ما سيكون عليه كل واحد منهم.

مثال 25

ما جرى لكوندي بروفنسا الذي تم تخلصه من السجن
³² بفضل نصيحة أسداتها له صلاح الدين

تحدث الكوندي لوكانور في يوم من الأيام مع باتروننيو، مستشاره فقال له:

باتروننيو، قال أحد رعاياي لآخر في يوم من الأيام إنه يرغب في تزويج إحدى قريباته، ولأنه يريد أن أقدم له نصيحة نصوح فقد طلب مني أن أنصحه بما هو خير له، قائلاً لي إنه هو الذي يطلبون منه إحدى قريباته لتكون زوجة، ولأنني أريد لهذا الرجل أن يتذبذب سوء السبيل، وأنت تفهم في هذه الأشياء، فإنني أطلب منك أن تقول لي ما تعتقد حتى أقدم له النصيحة التي ترضيه.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باتروننيو- حتى تستطيع تقديم نصيحة كل من يرغب في تزويج قريبته بشكل طيب، أحب أن تعرف ما حدث لكوندي بروفنسا مع صلاح الدين، الذى كان سلطاناً على مملكة بابل.

فرجاه الكوندي أن يقص عليه ذلك.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باتروننيو- يُحکى أنه كان في بروفنسا كوندي طيب جداً وكان يتوق إلى فعل أي شيء في سبيل الله ليجزيه الله خيراً ويحصل على الرضا الإلهي وتدخل روحه الجنة، وأن يقوم بأعمال تزيد من ثروته وسلطته وتحفظ له كرامته. وحتى يمكنه أن يقوم بذلك فقد جمع جيشاً كبيراً ومجهاً وقد اتجاه الأرضي المقدسة، وكان يعتقد أنه مهما حدث له فإنه سوف يعتبر نفسه محظوظاً، لأن ما يحدث له سوف يكون أثناء جهاده في سبيل الله، لأن الله معجزاته الخفية فإنه يمتحن أحياناً بعض عباده الصالحين، فإذا نجحوا في الامتحان فإنه يزيدهم من الثراء والسلطة، ولذلك فقد رأى الله أنه من المفيد أن يمتحن كوندي بروفنسا فأوقعه في أسر السلطان.

وعلى الرغم من أنه كان أسيراً إلا أن السلطان صلاح الدين عندما عرف مكانة الكوندي فقد عامله بما يليق به من العزة والكرامة، وكان إذا أراد أن يقدم على فعل مهم كان يطلب من الكوندي النصيحة، وكان الكوندي يبذل الجهد ويسدي النصيحة حتى نال ثقة السلطان، مما جعل له تأثيره عليه على الرغم من الأسر الذي كان فيه، وكان يتمتع لدى صلاح الدين بما يكاد يساوي نفوذه في بروفنسا.

عندما خرج الكوندي من بلاده كان قد ترك خلفه ابنة صغيرة جداً، ولأنه ظل أسيراً لفترة طويلة فقد كانت الطفلة قد بلغت سن الزواج، فقامت زوجته الكونديسة وأقاربه بالكتابة له لإبلاغه بأسماء أبناء الملوك والنبلاء الذين يطلبون الزواج منها.

في يوم من الأيام ذهب إليه صلاح الدين ليتجاذب أطراف الحديث مع الكوندي، بعد أن كان قد توصل إلى حل لبعض الأمور التي وضعها السلطان بين يديه، فحدثه الكوندي قائلاً:

- سيدني، أنتم تفعلون معي أجمل وأكرم الأشياء، وتندون بي عظيم الثقة، مما يجعلني عاجزاً عن رد ما تفعلونه معي مقابل خدماتي التي أقدمها لكم، وعظمتكم تطلبون مني النصح لما يعن لكم من مشاكل، وأنا أقدم لكم أفضل ما أعرفه، والآن أرجو منكم النصيحة في أمر يؤرقني.

شكر السلطان للكوندي كلماته، وقال له إنه على استعداد لنصيحته عن طيب خاطر، وإنه على استعداد لمد يد المساعدة له إذا كان ذلك في إمكانه.

حينئذٍ حثّه الكوندي عن خطاب ابنته، ورجاله أن ينصحه ويخبره عن أفضل المتقدمين لها ليزوجها له.

فأجابه صلاح الدين:

- يا كوندي، أنا أعرف أن ذكاءك يجعلك تفهم الكلمات القليلة التي سأقولها لك. وفي هذا الموضوع سوف أقدم لك النصيحة طبقاً لرأيي الخاص، فأنا لا أعرف خطاب ابنتك، ولا أنسابهم ولا قوتهم، ولا مواهبهم ولا حتى علاقتهم بك، ولا أعرف أيّاً منهم أفضل من الآخرين، لهذا لا أستطيع أن أكون موقتاً من مدى صلاحية نصيحتي، وكل ما أقوله لك أن تزوج ابنتك من رجل.

شكره الكوندي كثيراً، وفهم جيداً مغزى كلمات السلطان، فأجاب زوجته وأهله بنصيحة السلطان، قائلاً لهم أن يسألوا عن عدد النبلاء في إقطاعيته، وكيف حالهم، وما هي عاداتهم، وما هي شمائهم، وطلب منهم لا ينظروا إلى ثرواتهم وسلطانهم، وعليهم أن ينظروا فقط إلى الذين يثقون في قدراتهم الشخصية، وطلب منهم أن يبحثوا هذه الأمور حول أبناء الملوك والساسة الكبار الذين يأملون في الزواج من ابنته، وعن بقية الرجال الآخرين في المنطقة.

تعجبت الكونديسة وباقية الأقارب كثيراً، لكنهم استجابوا لطلبه وكتبوا له في الصفات الحميدة والمذمومة وأحوال الخطاب الذين يطلبون الزواج بابنة الكوندي، وعملوا الشيء نفسه بشأن رجال المقاطعة النبلاء الآخرين، وبعثوا بها كلها إلى الكوندي.

عندما توصل الكوندي بالمكتوب عرضه على السلطان حالاً. وعندما اطلع عليه صلاح الدين وجد أن المرشحين جيدين على العموم، لكنه وجد في أبناء الملوك والساسة الكبار مأخذ: بعض منهم يسرف في الشرب والآخر في المأكل، آخرون سريعاً الغضب، وآخرون أفظاظاً أو متكبرين، وبعض منهم يميل لرفاق السوء وآخرون بهم عيّ في اللسان، وآخرون مملؤون بعيوب أخرى. إلا أنه قد وجد في واحد منهم وهو ابن لرجل ثري ليس له نفوذ كبير مثل الآخرين وهو حسب تقديره أفضليهم وأجدرهم وأفلاطهم عيوباً. فكان أن نصيحة الكوندي بتزويج ابنته من ذلك الرجل، إذ حتى لو كان الآخرون أكثر ثراءً ونفوذاً، فمن الأفضل تزويجها بذلك الرجل وليس بوحد من أولئك الذين تشوبهم العيوب، وقد وجد الفضل في مناقب هذا أكثر مما وجده في ثراء وشرف أولئك.

أرسل الكوندي إلى زوجته وبقية أقربائه طالباً منهم أن يزوجوا ابنته من الرجل الذي وقع اختيار صلاح الدين عليه. وعلى الرغم من استغراب الكثير منهم، إلا أنهم بعثوا في طلب ابن ذلك الرجل الثري وأخبروه بما استقر عليه الكوندي. فأجابهم الشاب بأن الكوندي أكثر ثراءً وواجهة من أبيه، وهو لو كان يمتلك النفوذ نفسه لكان لائقاً بالزواج من الفتاة، وبما أنه ليس كذلك، فيبدو اقتراحهم مجرد كلام ولا نية حقيقة لتنفيذها وهم بذلك يسيئون له ويهينونه بلا سبب. فأكدوا له أنهم يعنون ما يقولون وأطلعواه على نصيحة صلاح الدين للكوندي بتزويج ابنته منه وليس بوحد من أبناء أولئك الملوك والساسة الكبار، وقد اختاره لمروءته.

ما أن سمع الشاب ذلك الكلام حتى عرف أن الامر جاد، فقال في نفسه بما أن السلطان قد شرفه واختاره لمروءته، فلن يستحق هذه السمعة إن لم يفعل ما يؤكدها. وكان أن أجاب الكونديسة وبقية الأقارب بأنه يصدق ما يقولون لو أنهم سلموه في الحال إدارة أموال الكوندي وأملاكه دون أن يخبرهم بما ينوي عمله بها. أُعجبوا بطلبها واستجابوا لطلبه دون تأخير. فأخذ منهم مبلغاً كبيراً من المال وجهز سفناً حربية عدة دون أن يخبر أحداً بنوایاه واحتفظ بما تبقى لديه من أموال. وبعد ذلك أعلن موعد زواجه.

أقيمت احتفالات رائعة وبمبهجة وتم عقد قرانه على الفتاة. عند حلول الليل ذهب إلى مقصورة زوجته، لكنه لم يدخل عليها، بل استدعي الكونديسة وبقية الأقارب وأخبرهم سراً بأنهم يعرفون جيداً أن الكوندي قد اختاره بناء على نصيحة نصحه بها صلاح الدين وهو أن يزوج ابنته من «رجل»، والكوندي والسلطان قد شرفاه بهذا الاختيار، إلا أنه لن يكون رجلاً لو لم يقم بواجبه.

لهذا فإنه يترك الفتاة التي تزوج بها وأملاك الكوندي عهدة في أيديهم لأنه سيرحل حالاً على أمل أن يهدىه رب للقيام بواجبه، وسيرى الجميع أنه «رجل» فعلاً.

بعد أن قال ذلك، ركب حصانه وانطلق في مغامرته. اتجه أول الأمر إلى مملكة أرمينيا، حيث عاش لوقت طويل حتى تعلم لغة البلاد وعاداتها، وعرف بشغف صلاح الدين بالقتال.

جمع العديد من طيور الصيد الحاذقة والعديد من الكلاب واتجه لملاقاة صلاح الدين. لكنه قبل ذلك كان قد وزع سفنه في كل المرافئ، وقد أمرهم بألا يغادروا مواقعهم إلا بأمر منه.

عندما وصل إلى السلطان، لقي ترحيباً طيباً. لكنه لم يقبل يده ولم يبخل كما يبخل الخدم السادة. أمر صلاح الدين بمنحه كل ما يحتاج، لكنه شكر له فضله ولم يتقبل منه أي شيء، وقال له أنه لم يأت طمعاً في مساعدته، بل بما سمعه عنه. وطلب منه أن يسمح له بقضاء وقت في بلاطه ليتعلم من خصاله وخصال جماعته. كما أنه يعلم بشغفه بالصيد لذلك أحضر له طيوراً وكلاباً مدربة، وهو يرجوه أن يختار منها ما يشاء، كما يرغب بمرافقته في رحلات الصيد وهو مستعد أن يخدمه بما يستطيع أو في أي مهام أخرى.

شكره صلاح الدين على ذلك، واختار مما وجده مناسباً منها، لكنه لم يستطع أن يقبل منه الآخر أي هدية أو مالاً أو أي شيء آخر يجبره على أن يرهن حياته ويقيدها بالولاء له. وهذا أمضى أيامه في بلاطه لوقت طويل.

وبما أن الرب يرتيب الأمور حسب مشيئته، وقد شاء الرب، وهم في رحلة صيد معاً أن تطير الصقور لحافاً بطيور الكراكي ولكنها لم تظفر بها حتى وصلت إلى المرافئ التي رست عندها السفن التي وزعها نسيب الكوندي. واتفق أن السلطان على جواد رائع، وهو على الجواد الآخر، أن ابتعدا كثيراً عن المرافقين الآخرين حتى غابا عن الأنظار. عندما وصل صلاح الدين إلى حيث كانت الصقور تنهش طيور الكراكي، ترجل عن جواده لمساعدتها، وعندما رأى نسيب الكوندي ذلك أعطى إشارته لأصحابه في المراكب. عندما وجد السلطان، وهو منشغل بإطعام الصقور، نفسه محاطاً بمجاميع السفن، تعجب من هول الأمر. حينذاك استل نسيب الكوندي سيفه واتجه إليه يريد أن يقتله. عندما رأى صلاح الدين ذلك، بدأ بالشكوى واعتبرها خيانة له. فأجابه نسيب الكوندي بأنه ليس من الخونة، وذكره بأنه رفض في كل لحظة أن يعامله معاملة الخادم للسيد، ولم يتقبل منه أي

عطايا، أو أي شيء يجعله مديناً له بالولاء، لذلك لا ينبغي له أن يشتكى لأنه مسؤول عن كل ما يحدث.

بعد أن قال ذلك أخذه وصعد به إلى السفينة. وعندما أصبحا على متنها، قال له إنه نسيب الكوندي، وهو نفسه الفتى الذي اختاره هو بنفسه من بين آخرين أعلى منه شأناً ومكانة، لأنه «رجل»، وأنه لو لم يفعل ما يفعله الآن فلن يكون قد تصرف كرجل. لذلك يطلب منه أن يقوم بإطلاق سراح حماه حتى يرى هذا الأخير كم كان صائباً السلطان في نصيحته.

عندما سمع صلاح الدين هذا الكلام، حمد الله وسرّ كثيراً بصواب نصيحته وهو سرور لا يعادله أي نفع أو انتصار آخر مهما كان عظيماً. فقال لنسيب الكوندي إنه سوف يطلق سراحه عن طيب خاطر.

ما أن وثق النسيب بكلام السلطان حتى تركه يغادر السفينة. ثم مضى معه بعد أن أمر أصحابه بالابتعاد عن المرفأ، بحيث لا يراهم أي شخص يصل إلى هذه الناحية. استمر صلاح الدين ونسيب الكوندي بتحريض الصقور على اللحاق بالكراكي. وعندما التحق به أصحابه وجدهم فرحاً مسروراً، ولم يخبرهم بما جرى له.

عندما وصل إلى المدينة، اتجه فوراً إلى بيت محبس الكوندي رفقة النسيب الشاب، وما أن رآه، حتى ابتدأ الكلام بفرح قائلاً:

- أيها الكوندي، الحمد لله الذي جعلني أوقف بنصيحتي لك بشأن زواج ابنتك. ها هو نسيبك هنا وقد أنقذك من الحبس.

حينذاك قصّ عليه ما عمله نسيبه. وأطرى كثيراً على المجهود والحدر اللذين أبداهما حتى ألقى القبض عليه ومن ثم المروءة التي أبداها بثقته بوعده. أثني الكوندي وكل من سمع بالحادثة على ما قام به النسيب، وحمدوا رب الذي قام بتصريف الأمور على خير ما يرام. وكان أن قدم السلطان عطايا نفيسة وكثيرة للكوندي ونسيبه، ولكي يعرض الكوندي عن متابعة حبسه، منحه أضعاف إيرادات بلاده إثناء كل ذلك الوقت الذي أمضاه بينهم. وأرسله إلى بلاده سعيداً وثرياً.

وقد حدث كل ذلك بفضل نصيحة السلطان للكوندي بتزويج ابنته من «رجل».

وأنت سيدى الكوندي لوكانور، ترحب في نصح تابع لك بتزويج قريبة له، فلتتصحه أولاً أن يكون الخطيب رجلاً حقيقياً، فمن الخطأ بمكان أن يُبني الزواج على الشرف والجاه فحسب. اعلم أن صاحب الرجولة والمرءة يزيد من شرفه ويعزز من نسبه ويزيد من ثرائه، إذ مهما كان الإنسان ثرياً أو صاحب ثروة وشرف، فسرعان ما يخسر كل ما يملك إن لم يكن رجلاً حقيقياً. كما أنتي أستطيع أن أقص عليك الكثير هنا عن رجال ترك لهم آباءهم الثروات الطائلة والشرف العظيم، لكنهم لم يستطيعوا القيام بواجبهم على ما يرام، فضيغوا الثروات والنسب. أو عن رجال آخرين أقل شأنًا وثراء فُوقوا بزيادة ثرواتهم والرفع من منزلتهم لقيامهم بواجبهم، وكان أن استحقوا المديح والإطراء بفضل ما حققوه لا بفضل ما ورثوه عن آبائهم. فلتدرك أن كل النفع والضرر إنما يأتي من سلوك الرجل نفسه، لا من منزلته أو مكانته. فأول ما ينبغي لنا الاهتمام به في الزواج، سواء كان للرجال أو النساء، يكمن في الخصال والعادات والنباهة والأعمال الصالحة عن الطالحة. وبعد أن نضع كل هذا في الحسبان، فإذا كان النسب أعلى والجمال أفضل والقربى أمنٌ رباطاً، كان الزواج أحسن لا محالة.

استحسن الكوندي آراء باترونبيو واستصوب كل ما قاله من حجج.

ولأنه رأى بأنه مثال جيد، فقد أمر دون خوان بتدوينه في كتابه هذا، وكتب فيه هذه الأشعار:

الرجل الحقيقي منْ يُعلى من شأن الأمور
ومنْ لا يكون، يُصغر كل الأعمال.

مثال 26

ما جرى لشجرة الكذب

تحدى الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونبيو فقال له:

- باترونبيو، تعلم أنني مسقاء جداً وفي خدام مع بعض الأشخاص الذين لا يودوني كثيراً، وهم أشخاص مشاغبون وكاذبون ولا يكادون يقولون كلمة صدق بحقي، وتلك عادتهم مع كل من يتعاملون معهم. وأكاذيبهم التي يقولون ويعملون بها مزينة جداً وتعود عليهم بالفع وتسبب لي ضرراً بالغاً، وبها يزدادون قوة وسطوة ويثيرون بها الناس ضدي. وإذا ما عملت مثلهم، فبإمكانني أن أقوم به خيراً منهم. لكنني أعرف أن الكذب شر وأرغب بالنأي عنه. والآن أرجو أن تسعفني برأيك السديد عن كيفية التصرف مع مثل هؤلاء الرجال.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- لكي تقوم به لمنفعتك على خير ما يرام، فلا بد أن تسمع مني ما جرى للحق مع الكذب.

فرجاه الكوندي أن يخبره عن ذلك.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- اجتمع ذات مرة الحق مع الكذب وأمضيا وقتهما معاً، وبما أن الكذب مجبرٌ برغبات عنيفة، فقد اقترح على الحق أن يغرسا شجرة حتى يتمتعان بنمارها ويجلسوا في ظلها حين يشتت القنطرة. فوافق الحق على هذا الاقتراح لبساطته ولمعدنه الطيب.

وبعد أن غرسا الشجرة وبدأت في النمو، قال الكذب للخير أنه يقترح أن يتقاسما الشجرة فيما بينهما. فوافق الخير عن طيب خاطر. وقال الكذب مقنعاً الحق، مزوفاً له الأسباب ومزيناً لها، إن الجذور تمنح الحياة والديمومة للشجرة، وهي الشيء الأفضل والأكثر نفعاً، لذلك ينصحه أن يقبل بالجذور العميقية تحت الأرض. بينما هو سيقبل بالأغصان التي لم تبرز بعد على الرغم من الخطير الكبير الذي ينتظرها فوق الأرض، إذ إنها ستكون عرضة لأن يحجبها أو يسحقها البشر، أو تتعرض للكسر من قبل الحيوانات أو أن تخمشها الطيور بالمخالب أو بالمناقير أو أن يجففها الحر الشديد أو أن يجمدها البرد الكثير. بينما لن تتعرض الجذور أبداً لأيٍ من هذه المخاطر.

عندما سمع الحق كل هذه الحجج، ولأنه لا يفقه فنون التلاعب الشريرة ولثقته وطبيته، صدق أن كل ما يقوله الكذب حقيقة، وفك في أن الكذب ينصحه بأن يختار الجزء الأنفع منها. لهذا وافق على الجذور ومضى عنها بكل رضا. عندما انتهى الكذب من هذه المهمة، شعر بسعادة بالغة لأنه خدع صاحبه بأكاذيب رائعة مزوفة.

هبط الحق إلى حيث الجذور التي اختارها وعاش هناك. وبقي الكذب على وجه الأرض حيث يعيش ويتنتقل البشر وكل الأشياء الأخرى. ولأنه كان معلماً في الإطراء فقد جعل الجميع يررضون عنه في وقت قصير. أما الشجرة، فقد بدأت في النمو وتتفرع أغصانها الكبيرة وأوراقها العريضة تشكل ظلاً وارفاً، إضافة إلى أزهارها ذات الألوان الزاهية التي تسر الأنظار.

بعد أن رأى البشر جمال الشجرة، بدأوا يجتمعون جوارها برغبة، ممتنعين بظلها وبأزهارها ذات الألوان الزاهية. وزاد حضور الناس عندها، بل إن الناس في مناطق أخرى كانوا يخبر بعضهم بعضاً بأن من يتغى الراحة والسرور فلا بد له أن يلجا إلى ظل شجرة الكذب.

وبما أن الكذب متملقٌ بطبيعة وذكي، فعندما يجتمع البشر أسفل تلك الشجرة، كان يقوم بإدخال السرور عليهم وتعليمهم الكثير من فنونه. وبهذا جذب الكثير من البشر من أصقاع العالم: لبعضهم كان يعلم الأكاذيب البسيطة، ولآخرين الأكثر نباهة يعلمهم الأكاذيب المزدوجة، أما الحكماء منهم فيعلمهم تلك الأكاذيب المركبة.

ولكي تعرف عن هذا، فالكذبة البسيطة هو عندما يقول رجل لآخر «سيد فلان، سأعمل هذا الشيء من أجلك» وهو يكذب بذلك. أما الكذبة المزدوجة هي حين يقسم المرء ويقدم العهود والضمادات بأنه سوف يقوم بإنجاز كل ذلك المتفق بينهما من وعود، بينما يكون قد فكر في الأمر وعلم بالوسيلة التي يتمثل فيها بالكذب والخداع. أما الكذب المركب، فهو الخداع المميت، أي أن يكذب عليه ويخدعه بالحق.

كان الكذب حادقاً في كل هذا، وكان يحسن تعليمه لمن يرغب في الاجتماع تحت ظل شجرته. وأصبح المتعلمون النبهاء الذين أحاطوا بتلك المعرفة يظفرون بكل ما يرغبون فيه ويحضرون لإرادتهم من لا علم لهم. وكانوا يحصلون على ذلك بفضل جمال الشجرة من جهة ومن جهة أخرى بفضل الفضل الكبير الذي تعلموه من الكذب. لهذا كان البشر يرغبون في الحضور تحت ظل الشجرة وتعلّم ما يلقنه الكذب.

بهذه الحال، عظم شأن الكذب بين الناس وزاد البشر من رفقتها، وتم تقليل شأن من لم يظفر بقربه منها ولا تعلم فنونها، بل أصبح هؤلاء يستصغرون أنفسهم بأنفسهم.

بينما كان الكذب يستمتع بالشهرة، كان الحق تعيساً ومطموراً تحت الأرض ولا أحد في العالم يعلم عنه شيئاً أو يسعد به أو يرغب في البحث عنه. ولما لم يبق له شيئاً يسد رمه، راح يقرض جذور الشجرة تلك، وهي الجزء الخاص به مقتفيأ نصيحة الكذب. وبسبب ما ينقصه من طعام، فقد مضى بالقص والقشط والتغذى على جذور شجرة الكذب. وعلى الرغم من أن الشجرة كانت ذات أغصان قوية وأوراق عريضة تتفنن كظل كبير صالح للاحتماء به والعديد من الأزهار البهيجه الزاهية، فقد أتى الحق على جذورها قبل أن تؤتي ثمارها؛ لأنه لم يجد شيئاً يسد جوعه.

عندما تأكلت كل الجذور، وبينما كان الكذب مستلقياً تحت الشجرة رفقة بشر جاءوا لتعلم فنونه، هبت الريح واقتلت الشجرة، بما أن جذورها قد تأكلت فقد كان من السهولة الإطاحة بها، فوقيعت فوق الكذب وتركته بأسوأ حال. كما قتلت وجراحت وأصابت العديد من كانوا معه يتلعلون من فنونه.

من الكوة التي خلفها الجذع، خرج الحق الذي كان مختبئاً، وعندما أصبح على السطح وجد الكذب ومن معه مصابين وبحال سيئة نادمين على تعلمهم استعمال فنون الكذب.

وأنت سيد الكوندي، لاحظ أن للكذب أغصاناً طويلة وأزهاراً هي أقواله وأفكاره وتملقه. ومهما كانت رائفة تعجب البشر، فهي ليست سوى ظل لا يمنح أبداً ثماراً طيبة. - لهذا إذا استخدم خصومك الكذب والخداع، فحاول أن تتجنبهم ولا تنافسهم ولا تغبطهم على ما يظفرون به بهذه الوسيلة، وتتأكد أن كل ذلك لن يدوم لهم كثيراً، وسوف تكون في انتظارهم عاقبةسوء، وسيقعون وهم يظنون أنهم بآمن، كما سقطت شجرة الكذب فوق رؤوس من كانوا يستمتعون بظلها. وحتى لو كان الحق مُحتقاً، فلا بد لك أن تثبت به والرفع من شأنه كأحسن ما يكون، لأنه بالحق ستعيش سعيداً، وستؤول أمورك إلى الخير وتفوز برضاء رب، وينعم عليك باليسير والخير للجسد في هذه الدنيا، وخلاص الروح في الآخرة.

استحسن الكوندي نصيحة باترونيو وعمل بها وسارط أمره على خير.

ولأنه رأى أنها مثال جيد، فقد أمر دون خوان بتدوينه في كتابه هذا، وكتب فيه هذه الأشعار:

تجنب الكذب واتبع الحق دائماً

فالشر لصيق بمُنْ يَتَبَعُجُ بِالْكَذْبِ.

مثال 27

**ما جرى لأحد الأباطرة وللسيد
آلبار فانبيث مينايا مع زوجتيهما**

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باتروننيو وقال له:

- باتروننيو، لي شقيقان متزوجان وكل واحد منهما يعيش بطريقة مختلفة عن الآخر، فال الأول يحب تلك السيدة التي تزوج بها حباً شديداً، حتى أننا نعجز تماماً عن إبعاده عنها ولو ل يوم واحد. كما لا يفعل أي شيء سوى ما ترغب فيه وقبل أن يسألها عنه. أما الآخر، فقد عجزنا بكل الطرق أن يجعله ينظر إليها ولو لمرة أو أن يدخل عليها في البيت. ولأنني أعاني كل هذا، أرجو منك أن تدلني على الوسيلة المناسبة لكي نبحث عن علاج لهما.

- سيد الكوندي لوكانور - قال باتروننيو - حسب هذا الذي ذكرت، فإن شقيقيك يخطئان في فعلهما هذا، فليس عليهما أن يظهرا مودة كبيرة ولا كرهًا مقيتاً للسيدتين المتزوجين بهما. بل وأكثر، فإذا كانوا مخطئين، فالسبب يعود لطبع تلکما السيدتين. ولكي يتضح لك ما أعنيه، فلا بد أن تعرف مني ما جرى للإمبراطور فريku وللسيد دون آلبار فانبيث مينايا مع زوجتيهما.

فـسـأـلـهـ الكـونـدـيـ عـنـهـماـ.

- سيد الكوندي لوكانور - قال باتروننيو - بما أنهما مثلاً اثنان، لا يمكنني أن أقصيهما في الوقت نفسه، لهذا سوف أقص عليك ما جرى للإمبراطور فريku وبعدها فوراً ما جرى للسيد دون آلبار فانبيث.

سيدي الكوندي، تزوج الإمبراطور فريku بفتاة من علية القوم مثله، وعلى الرغم من ذلك، جرى أنه لم يتعرف إلى طباعها إلا بعد الزواج بها. إذ بعد زواجهما، وعلى الرغم من طباعها

وعفتها، إلا أنها أظهرت شراسة وعناداً وتمرداً لا مثيل له في العالم. فإذا أراد الإمبراطور أن يأكل، قالت إنها صائمة، وإذا شاء الإمبراطور النوم، تقوم من الفراش، وإذا خص الإمبراطور أحدهم بالمودة، أبغضته على الفور. «ماذا أضيف أكثر؟» فكل الأشياء التي تعجب الإمبراطور، كانت تسوؤها، وكل ما يفعله الإمبراطور، تعاكسه فيه دائماً.

بعد أن عانى الإمبراطور لبعض الوقت، أيقن أنه لا تنفع معها أي وسيلة لإخراجها من عنادها لا هو ولا أي شخص آخر، فلا بالرجاء ولا بالتهديد، لا بالإطراء ولا بالوعيد. وعندما تأكّد أنه لن يعثر على وسيلة تخلصه من الأضرار التي تلحقه هو وأعماله وقومه من الحياة المنغصة التي يحيوها، عندما رأى كل هذا، مضي إلى البابا ليقص عليه مشكلته وما تجره من منغصات عليه وعلى كل من يعيش على أرضه جراء تصرفات الإمبراطورة. ورجله لو كان ذلك ممكناً أن يفرق بينهما. لكن البابا أجابه بأن المسيحيين لا يمكنهم الطلاق، ولا وجود لوسيلة تسمح بذلك على الرغم من الطبع السيئ للإمبراطورة، ورأى البابا أن الزواج يجب أن يستمر.

عندما لم يعثر البابا على وسيلة للخروج من هذا المأزق، قال للإمبراطور إنه يترك الأمر لفهمه وذكائه، إذ لا يمكنه أن يمنحه التوبة قبل أن يرتكب الخطيئة.

ودع الإمبراطور البابا وعاد لبيته وبذل هناك كل ما في وسعه، ولجا لكل الوسائل من إطراء وتهديد ونصح وخداع وكل ما رأه من كانوا يعيشون معه نافعاً لصلاح طبعها السيئ، لكن دون جدوى، فكل ما يقومون به كانت تقابله كل يوم بالعكس تماماً.

وعندما رأى الإمبراطور أنه لا سبيل لصلاحها بالمرة، أخبرها يوماً ما بأنه راغب في الذهاب في جولة لصيد الغزلان، وسوف يحمل معه القليل من الأعشاب التي يستعملها لتسنين السهام لصيد الغزلان، ويترك المتبقي منها في البيت، لكنه حذرها من ألا تستعمل تلك الأعشاب ضد أي جرب أو قشرة أو جرح ينزف دماً، لأن الأعشاب قوية ولا أحد في الدنيا يعيش بعد أن يستخدمها لأنها تقضي عليه فوراً. وتناول مرهمًا آخر ودهن به جروحاً متقرحةً كانت في جسمه، وعمل ذلك أمامها. ورأت هي ومن كان معها من الحضور أنه شفي في الحال. وقال لها الإمبراطور أمام حشد من النساء والرجال إن عليها استخدامه في أي جرح عندها وستشفى حالاً. بعد أن قال لها ذلك، حمل ما يحتاج من تلك الأعشاب وعدة صيد الغزلان ومضى إلى صيده.

لم يكدر يغادر الإمبراطور المكان بعد، حتى راحت تتكلم عنه بسوء قائلة:

- انظروا لزيف الإمبراطور فيما يخبرني به! إنه يعلم بأن الجرب الذي ألم بي مختلف تماماً عن جربه ولكنه قال لي استعملني المرهم نفسه الذي استعمله هو، لعلمه بأنه لن ينفعني. وفي الوقت نفسه ينصحني بـألا أستخدم المرهم الآخر القادر حقيقة على شفاء قروحي. وأنا واثقة بأن هذا سيز عجه، لذلك سأدهن نفسي بذلك المرهم وعندما يرجع سيدجدي متعافية جداً. وبما أنه سيز عجه أشد الإزعاج، فسأقوم بعمله.

ترجمتها الرجال والسيدات الحضور ألا تفعل ذلك، وراحوا يتولون إليها رحمة- بها وقد بدأوا ي يكون بشدة ألا تفعل ما تريده عمله، لأنهم متذكرون من أنها لو قامت بذلك ستسقط ميتة لا محالة.

على الرغم من كل ذلك لم تنشأ أن تترك الأمر. فتناولت العشب ودهنت به قروحها. ولم يمر وقت طويل حتى بدأ جسدها بالتشنج، فندمت ولكن لم يعد هناك وقت للندم أو عمل أي شيء. وهذا ماتت بسبب نزقها وطبعها السيئ.

أما ما جرى للسيد آليار فانيث فهو العكس من هذا، ولكي تعرف كيف ذلك، فها أنا أحكيه لك كما حدث.

كان السيد آليار فانيث رجلاً طيباً شريفاً وقد عمرّ بنفسه بلدة إيسكار وعاش فيها. أما الكوندي دون بيبرو آنسوريث فقد عمرّ بلدة كويار وعاش فيها.³³ والكوندي دون بيبرو آنسوريث له ثلاثة بنات. و ذات يوم قام السيد آليار فانيث بزيارة مفاجئة، أفرحت الكوندي كثيراً. وبعد أن تناولا الطعام سأله الكوندي عن سبب مجئه غير المتوقع. فأجابه دون آليار فانيث بأنه قد جاء لخطبة واحدة من بناته، وأنه يرغب في رؤية الثلاث والحديث معهن كل واحدة على حدة، ليختار من بينهن من يريدها زوجة له. أما الكوندي وقد رأى ما مَنَّ به الرب عليه من خير، قال إنه يسعده أن يوافق على ما جاء من أجله دون آليار فانيث.

انفرد دون آليار فانيث بالابنة الكبرى وقال لها إذا ما وافقت، فإنه يرحب بالاقتران بها، لكنه قبل هذا يود أن يخبرها عن بعض أحواله: الأول منها أنه لم يعد شاباً وأنه قد أصبح بجروح بالغة في المعارك التي شارك فيها، كما أنه إذا شرب القليل من الخمر يفقده صوابه ويغضب كثيراً ويفقد

السيطرة على زمام نفسه ويترف بعنف، وهو على هذه الحال لا يعرف ما يقوم به من أفعال، وكان قد جرح العديد من الناس في حالته تلك، التي يندم عليها ما أن يصحو إلى حاله. كما أنه لا يتحكم في نفسه عندما ينام، فما أن ينطهر على الفراش حتى يقوم بأعمال لا تنفع معها إن كانت الأشياء طفيفة أو نظيفة.³⁴ وقال لها أشياء أخرى عديدة، بحيث إن أي امرأة حتى لو كانت قليلة الفطنة، ما وافقت على الزواج به.

بعد أن قال لها الكوندي كل ذلك، أجبت البنت بأن زواجهها منه لا يعتمد عليها، وإنما ما ي قوله الأم والأب. وبهذا تركت دون آلبار فانيت ومضت إلى أبيها.

عندما سألها الأبوان عن قرارها، وبما أنها لم تكن واعية بشكل كافٍ، فقد قالت لأبيها وأمهما، إنها بعد أن سمعت ما ذكره دون آلبار فانيت، فتفضل الموت على أن تتزوج به.

ولم يشأ الكوندي أن يجيب دون آلبار فانيت بذلك، بل قال له إن ابنته غير راغبة في الزواج الآن.

وبعدها تكلم دون آلبار فانيت مع الابنة الوسطى، وحدث له ما جرى مع الابنة الكبرى نفسها.

وبعدها تكلم مع البنت الصغرى، وقال لها كل ما ذكره لشقيقتيها. فأجبته بأنها ممتنة للرب على رغبته في الزواج بها. ووعده فيما يتعلق بضعفه وتضرره من الخمر بأنه لو اضطر يوماً بسبب ذلك الاعتزاز عن الناس فستقوم بالتلطخية عليه أفضل من أي أحد في العالم. أما قوله إنه لم يعد شاباً فإنها لن تتخلى بسبب ذلك عن شرف وسعادة الزواج دون آلبار فانيت. أما عن غضبه وتهجمه على الناس، لأنها تطلب منه ألا يقلق من ذلك، فهي لن تمنحه من الأسباب ما يجعله يقدم على ذلك، وإذا ما فعله، فإنها ستصبر على الحال جيداً.

كل الأشياء التي كان يقولها لها دون آلبار فانيت، عرفت الإجابة عنها، مما جعل دون آلبار فانيت يسر سروراً بالغاً وشكراً للرب بعثوره على تلك المرأة الذكية. وأخبر الكوندي آنسوريث أي بنت يرغب الزواج بها.

فرح الكوندي كثيراً. وأقيم حفل الزواج حالاً، ومضت الزوجة مع زوجها، التي سوف تسمى هذه المرأة من حينها بالسيدة دونيا باسكونيانا.

بعد أن حمل دون آلبار فانيث الزوجة إلى البيت، تصرفت كسيدة بيت حصيفة وطيبة، وشعر آلبار فانيث بنفسه محظوظاً بزواجه بها وأمر أن تطاع كل أوامرها وتنبئ كل طلباتها. وقد أمر بهذا لسبعين: الأول لأن الرب قد منَّ عليها بالصلاح ولأنها كانت تحب زوجها جماً وتحترم رأيه إلى درجة أنها اعتقدت أن كل ما يقوله أو يفعله صائب، وكانت تتدح وتستحسن رأي زوجها وأفعاله حتى أنها لم تكن تعارضه في حياتها أبداً. ولا تظنن أنها قد فعلت ذلك مجاملة أو مداهنة، بل لأنها كانت متينة فعلاً أن السيد دون آلبار فانيث لا يمكنه أن يخطئ ولا يمكن أن تكون قراراته أفضل مما كانت عليه. والأول لأنه على ما يبدو الأكبر أهمية، فالسبب الآخر هو رجاحة عقلها واستقامة طبعها مما جعلها تصيب في كل ما تفعل، وهو ما حمل دون آلبار فانيث على حبها وتقدير كل ما تقوم به وأمر الجميع بإطاعتها في كل شيء تفعله، وكان هو يستشيرها في أموره فتكون النتيجة المزيد من الشرف والكسب. ولم تتصحه هي أبداً بما لا يليق به، بل بكل ما عليه دون آلبار فانيث من شرف وفخر.

وحدث يوماً أن كان دون آلبار فانيث في بيته، ونزل عنده ابن شقيقه ضيفاً وقد كان يعيش في بلاط الملك. ففرح دون آلبار فانيث بمقدمه. وبعد أن قضى بضعة أيام مع دون آلبار فانيث، قال له ابن الأخ إنه معجب كثيراً بخصاله، لكنه وجد فيه عيباً واحداً. فسأله دون آلبار فانيث عن أي عيب يتكلم. فأجابه ابن الأخ إن عيبه الوحيد هو ما منحه لزوجته من سلطة التدخل والتأثير في كل شؤونه. فوعده دون آلبار فانيث بأن يجيئه عن ذلك بعد مرور بضعة أيام.

وفبل أن يعود دون آلبار فانيث لرؤيه دونيا باسكونيانا، امتطى جواده ومضى مع ابن أخيه إلى مكان آخر. وهناك أمضى مع ابن الشقيق أياماً عديدة. وبعدها بعث في طلب دونيا باسكونيانا، بحيث يلتقيان بها على الطريق، ولم يتح الوقت لها للحديث على انفراد.

وتقدم دون آلبار فانيث مع ابن أخيه، وتختلف عنهما دونيا باسكونيانا. وبعد مسافة التقى دون آلبار فانيث وابن أخيه بقطيع من الأبقار. فتحدث دون آلبار فانيث قائلاً:

- انظر يا ابن أخي ما أجمل الأفراس في أراضينا؟

عندما سمع ابن الأخ كلامه، اندھش وظن قوله مزحة فسأله لماذا يقول عنها أفراس وهي ليست سوى أبقار.

فاستغرب دون آلبار فانيث من قول ابن أخيه وظن أنه قد فقد رشده، لأنه يراها جيداً وهي أفراس لا محالة.

ذعر ابن الأخ بعد أن رأى أن دون آلبار فانيث يصر على رأيه، وظن أنه قد فقد عقله.

واستمر دون آلبار فانيث في جلده، حتى اقتربت منهـما دونيا بـاسكونيـانا. وعندما لمحـها دون آلـبار فـانـيـث في طـرـيقـها لـهـما، قال لـابـنـ شـقـيقـهـ:

- هـاـ هيـ دونـيـاـ بـاسـكـونـيـاناـ يـاـ ابنـ الأخـ، وـسـتـفـضـ الخـلـافـ الـذـيـ بـيـنـاـ.

راقـ الأمـرـ لـابـنـ الأخـ وـقـالـ لـدونـيـاـ بـاسـكـونـيـاناـ عـنـدـمـاـ اـقـرـبـتـ مـنـهـماـ:

- سـيـدـتـيـ، لـقـدـ اـخـتـلـفـاـ أـنـاـ وـدـونـ آـلـبـارـ فـانـيـثـ، فـهـوـ يـصـرـ عـلـىـ أـنـ هـذـهـ الـأـبـقـارـ أـفـرـاسـ، وـأـنـاـ أـرـىـ أـنـهـاـ أـبـقـارـ. وـقـدـ طـالـ بـنـاـ الجـدـالـ حـوـلـهـاـ، وـهـوـ يـظـنـ بـيـ الجنـوـنـ وـأـنـاـ أـعـتـقـدـ أـنـهـ فـقـدـ عـقـلـهـ. فـهـلـ يـمـكـنـكـ يـاـ سـيـدـتـيـ أـنـ تـحـكـمـيـ بـيـنـاـ؟

عـنـدـمـاـ رـاتـ دـونـيـاـ بـاسـكـونـيـاناـ أـنـ ابنـ الأخـ يـقـولـ إـنـ دـونـ آـلـبـارـ فـانـيـثـ يـقـولـ إـنـهـاـ أـفـرـاسـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـهـاـ تـرـىـ أـنـهـاـ أـبـقـارـ، قـالـتـ فـيـ نـفـسـهـاـ إـنـهـ مـنـ الـمـسـتـحـيلـ أـنـ يـخـطـئـ دـونـ آـلـبـارـ فـانـيـثـ، وـإـذـاـ قـالـ إـنـهـاـ أـفـرـاسـ وـلـيـسـ أـبـقـارــاـ، فـهـيـ دـونـ شـكـ أـفـرـاسـ.

فـقـالـتـ لـابـنـ الأخـ بـيـنـاـ هـمـاـ هـنـاكـ:

- بـحـقـ الـرـبـ يـاـ قـرـيـبـيـ، أـنـتـ لـاـ تـعـرـفـ كـمـ يـؤـسـفـيـ مـاـ تـقـولـ. وـلـاـ أـصـدـقـ أـنـ الـرـبـ وـقـدـ مـنـحـكـ الـفـهـمـ، وـأـنـكـ تـعـيـشـ فـيـ بـلـاطـ الـمـلـكـ وـتـتـمـنـ بـالـإـقـامـةـ بـيـنـهـمـ، فـيـؤـسـفـيـ أـنـ تـكـوـنـ بـهـذـاـ الـضـعـفـ فـيـ الـفـهـمـ وـفـيـ النـظـرـ حـتـىـ أـنـكـ تـخـلـطـ بـيـنـ الـأـفـرـاسـ وـالـأـبـقـارـ.

وـبـدـأـتـ تـبـرـهـنـ لـهـ بـأـنـهـ بـالـنـظـرـ لـلـوـنـهـ وـنـقـاطـيـعـهـ وـأـشـيـاءـ أـخـرـىـ عـدـةـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـوـنـ إـلاـ أـفـرـاســاـ، وـأـنـ مـاـ يـقـولـهـ دـونـ آـلـبـارـ فـانـيـثـ هـوـ الـحـقـيـقـةـ وـهـوـ صـاحـبـ رـأـيـ وـفـهـمـ وـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـخـطـئـ.

وأصرت على الأمر حتى بدأ القريب وبقية الحضور يرتابون في سلامتهم أبصارهم، وأن دون آلبار فانيث يقول الحق وأن ما يرونه أبقاراً ليست سوى أفراس.

ثم إن دون آلبار فانيث وابن أخيه راحا يمشيان حتى تقابلما بقطيع من الأفراس. وهنا قال دون آلبار فانيث لابن الأخ:

- انظر يا ابن الأخ العزيز، هذه هي الأبقار لا تلك التي ادعيت من قبل!

وعندما سمعه ابن الأخ يقول ذلك، قال لعمه:

- بحق رب يا دون آلبار فانيث، إذا كنت تقول الحق، فلا بد أن الشيطان قد جاء بي إلى هذه الأرض. فإذا كان حقيقة أنها أبقار وليس أفراساً، فإني قد فقدت عقلي دون شك.

أصر دون آلبار فانيث على قوله إنها أبقار واستمرا على ذلك حتى وصلت دونيا باسكونيانا. وهناك شرحا لها الأمر حول ما يقوله دون آلبار فانيث وابن الأخ. وهي وقد رأت أن ابن الأخ على حق، لكنها كانت عاجزة عن الاعتقاد أن دون آلبار فانيث يمكن أن يخطئ أو يكذب في هذا الأمر، بل لا بد أنه يقول الصواب. فراحت تبحث عن الأسباب التي تبرهن فيها على قول دون آلبار فانيث، وقد ذكرت الكثير من الحجج المؤيدة، حتى ظن القريب ومن يرافقهم أنهم قد أخطأوا في الإدراك وفي البصر، وأن ما قاله دون آلبار فانيث هو الحق. وهكذا مضى الأمر.

ومضى دون آلبار فانيث وابن أخيه إلى الأمام، حتى وصلا إلى نهر على جانبيه طواحين كثيرة. وبينما تركوا الخيول تشرب من مياه النهر، بدأ دون آلبار فانيث يقول إن النهر ذاك يجري باتجاه منبعه، وإن المياه تصل حتى الطواحين من الناحية الأخرى.

ارتبا ابن الأخ بأن دون آلبار فانيث قد فقد عقله، وبعد أن أخطأ ما بين الأفراس والأبقار، ها هو يصر على أن النهر يأتي من الاتجاه المعاكس. فتجادلا أكثر حتى وصلت دونيا باسكونيانا.

وحين أخبراهما بما يظن كل من دون آلبار فانيث وابن أخيه، وعلى الرغم من أنها رأت بما يقوله ابن الأخ القول الصائب، لم تثق كثيراً برأيها الخاص وفضلت استصواب ما قاله دون آلبار فانيث. فراحت تدافع عن رأي زوجها حتى أن ابن الأخ وكل السامعين ظنوا أنها على حق فعلاً.

وأصبح المثل منذ ذلك اليوم شائعاً وهو: «إذا قال الزوج إن النهر يجري نحو منبعه، فليس على الزوجة الصالحة إلا أن تعتقد بذلك وتصدق عليه».

ولما رأى ابن الأخ أن دونيا باسكونيانا تيرهن دائمًا أن ما ي قوله دون آلبار فانيت هو الصواب بعينه وأنه هو المخطئ بخلطه بين الأشياء، تحسر على نفسه وخشي أن يكون قد فقد عقلاً حقاً.

وبعد أن سارا مسافة كافية وهم على تلك الحالة، وما أن رأى دون آلبار فانيت الحزن والغم قد تلبسَ ابن أخيه، قال له:

- يا ابن أخي، لقد أجبتك الآن عما سألتني عنه في اليوم الآخر وهو ما يشير له الناس بأن عيني هو خضوعي لزوجتي دونيا باسكونيانا. تأكُد أني أردت بكل ما قمت به اليوم هو أن تعرف عنها الشيء القليل، ولكي ترى أنتي أفعل جيداً حين أستشيرها وأتبع رأيها الصائب. أعرف تماماً أن الأبقار الأولى التي لقيناها وقلت لك إنها أفراس، كانت أبقاراً كما قلت أنت، وأنا متأنٍ أن دونيا باسكونيانا عندما سمعت قولك في الأمر رأت أنك على صواب فيما تقول، ولكنها تعتقد أنتي لا يمكن أن أخطئ إطلاقاً، لهذا قالت إنك وهي على خطأ بعدم رؤية الحقيقة. لذلك دافعت عن رأيي بكل تلك الأدلة حتى اعتقدت أنت وكل من سمعها أنتي على حق في أقوالي. وحدث الشيء نفسه مع الأفراس ومع النهر. والحق أقوله لك إبني ومنذ اليوم الأول لزواجهي بها، لم أرها تستمتع إلا بما يسرني، ولا تقول ما يسوئني أو يزعجني مهما فعلت. وهي على اقتناع تام بأن ما أقوم به وأفعله هو الأفضل دائماً. كما أنها تؤدي واجباتها على أحسن ما يكون واعتادت أن تفعل ما أكلفها به بكل تقانٍ مبدية كل الاحترام، وتحاول دائماً أن أظهر أني سيد الموقف أمام الجميع، وأن إرادتي مطاعة في كل الأوقات. كما أؤكد لك أن دونيا باسكونيانا لا ترغب في السمعة والجزاء لنفسها بل تسعى لأن تكون لي، وتفعل دائماً ما يوافقني ويعجبني. ولو أن شخصاً على غير ملتي من وراء البحر قد فعل من أجمل كل هذا، لانبغى لي أن أوده وأجله، فكيف بها وهي علاوة على أنها زوجتي، فهي ذات حسب ونسب، بحيث أعد نفسي محظوظاً بزواجهي منها.وها أنا يا ابن أخي قد أجبتك عن انتقادي في ذلك اليوم.

عندما سمع ابن الأَخ ما قاله دون آلبار فانِّيث من حج، فهم أَن دونيا باسكونيانا ذات ذكاء وعزيمة ماضية، وأن دون آلبار فانِّيث محق بحبه لها كل هذا الحب وثقته بها وأن يفعل من أجلها كل ما يفعل وأكثر.

وهذا هو الفرق ما بين زوجة الإمبراطور وامرأة دون آلبار فانِّيث.

انت سيدى الكوندي لوكانور، إذا كان شقيقاك متعارضين إلى هذا الحد، فأحدهما يفعل ما ترغب فيه زوجته ويفعل الآخر العكس، فذلك عائد حتماً إلى أن زوجتيهما مختلفتان اختلاف الإمبراطورة دونيا باسكونيانا. فإذا كانتا على هذه الشاكلة، لا ينبغي لك أن تتعجب ولا أن تلوم أخويك. لكن إذا لم تكن إدعاها صالحة والأخرى سيئة الطوية كالاثنتين اللتين كلمتك عنهم، فلأخويك الذنب في ذلك. حتى لو كان الشقيق الذي يود زوجته كثيراً يحسن كثيراً بحبه لها، فإن هذا الحب والمودة لا ينبغي لها أن تخرج عن حدتها. لأنه من العيب أن يود الرجل زوجته كثيراً إلى حد ترك مصالحة خشية افتراقه عنها. وعلى هذا، ينبغي على الزوج ألا يبخّل بالمودة والثقة بها. كذلك لا ينبغي له أن يبذل الجهد لإغضابها وإزعاجها في تلك الأمور التي لا تهمه كثيراً، خاصة إذا جاء سخطها من ذنب يقترفه الزوج، فإنه حينئذ يضطر لفعل كل ما يسيء لمalleه وسمعته من أجل إرضائهما. أما منْ كان حظه سيئاً وارتبط بزوجة مثل الإمبراطورة، وهو لم يعرف أو لم يستطع منذ البداية، أن يعالج ذلك، فلن يبقى له سوى تحمل مصيبة إلى أن يشاء الله. ليكن من الواضح لك أنه من أجل الحصول على الأول وتقادي الثاني، يجدر بالرجل أن يبين منذ اليوم الأول لزوجته بأنه هو السيد هنا، وأن يقرر لها كيفية العيش معه.

لهذا أظن سيدى الكوندي أنني بهذه الأشياء التي ذكرتها لك، يمكنك أن تتصحّح أخويك كيف عليهما أن يتصرفان مع زوجتيهما.

استحسن الكوندي كثيراً كل ما قاله باترونيو، وعرف أنه محق فيه.

ورأى دون خوان أنهما مثلان جيدان فأمر بتدوينهما، وكتب فيما هذه الأشعار:

على الرجل ومنذ اليوم الأول لزواجه
أن يحدد ما يرغب به وما يريد عمله بحياته.

- أشهر إسلامه في غرناطة

تحدى الكوندي لوكانور مع باترونويو مستشاره قائلاً:

- باترونويو جاعني رجل يطلب حمايتي، وعلى الرغم من معرفتي بأنه رجل طيب، أخبرني بعض الناس بأنه اقترف بعض الآثام. ونظراً لثقتي برأيك، أرجو منك أن تتصحني بما ينبغي عمله.

- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونويو - لكي تفعل ما أره موافقاً لك، أود منك أن تعرف ما جرى للسيد دون لورنثو سواريث غاييناتو.

فأسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونويو - عاش دون لورنثو سواريث غاييناتو رحاماً من الزمن مع ملك غرناطة. وبعدها عاد إلى خدمة الملك فرناندو، وسألته هذا ذات يوم إن كان يطمع بمعفورة الرب وخلاص روحه حين يقدم أجله بما قام به من خدمة للمسلمين.

فقال له دون لورنثو سواريث إنه لا يطمع أبداً في مغفرة الرب سوى في شيء واحد وهو قتله لأحد الرهبان الميسكاناتانو.³⁵ فاستغرب الملك الأمر كثيراً وسأله عن السبب.

فقال له إنه في ذلك الوقت كان في خدمة ملك غرناطة، وكان هذا الملك يثق فيه كثيراً حتى أنه كان يتزذه حرساً خاصاً. وبينما كان يتتجول ذات مرة مع الملك، سمع صراخ وصياح بعض الرجال، فقلق على سلامه الملك وكان أن همز حصانه ليقترب من مكان الصراخ. وهناك قابل مرتدًا. وكان ذلك راهباً قد هجر المسيحية وأشهر إسلامه. وكان قد وعد المسلمين بأن يريهم، لو شاءوا، الرب الذي يعبده المسيحيون معتقدين أنه الرب الحق. وما أن طلبوا منه ذلك، حتى عمل الراهب المرتد على إقامة الهيكل وأمر بملابس القدس، فأقامه وأعطى القربان للمسلمين، حينها راحوا يجرجرونه في الطين هازئين.

عندما رأى السيد لورنثو ذلك تذكر أنه مازال مسيحياً على الرغم من وجوده بين المسلمين، وهو يؤمن بيقين أن القربان هو جسد المسيح حقاً وأن المسيح قد صُلب ليخلص الخاطئين، وسيكون

هو من يضحي بحياته انتقاماً وتخلصاً له من الشائنة التي يتهمونه بها زيفاً. وبذلك الألم والغضب، توجه إلى الخائن المرتد وبسبب فعلته الشائنة قطع رأسه.

بعد ذلك نزل عن جواده وركع ليرقص جسد المسيح الذي كان المسلمين يسخلونه في الطين. وبينما كان خائعاً على ركبتيه، كان القربان بعيد عنه، قد قفز من الطين واستقر على أذیال ثياب دون لورنثو سواريث.

عندما رأى المسلمين ذلك المشهد، غضبوا واستلوا أسلحتهم من سيوف وعصي وأحجار، وأقبلوا نحو دون لورنثو سواريث ليقتلواه. فاستل سيفه الذي قطع به رأس الراهب وراح يدافع عن نفسه.

عندما سمع الملك كل تلك الجلبة ورأى أنهم يريدون قتل دون لورنثو سواريث، منعهم من عمل أي شيء وسألهم عن السبب. فحكى له المسلمين كل شيء وهم مهتاجون.

اغتاظ الملك هو أيضاً وسائل دون لورنثو سواريث عن فعلته هذه. فأجابه بأنه يعلم أنه ليس على دينه، ولكن الملك مع ذلك قد آمنه على حياته ووثق فيه لإخلاصه ويعلم أنه لن يتراجع عن القيام بواجبه خشية الموت. فإذا كان يثق بإخلاصه كل الثقة مع أنه غير مسلم، فلا يستغرب فعلته لحماية جسد المسيح وهو ملك الملوك ورب الأرباب، فإذا رأى جواز قتله بسبب ما فعل فإن ذلك يسعده.

عندما سمع الملك كل هذا، فرح كثيراً بما فعله دون لورنثو سواريث إخلاصاً لدینه وقدره حق التقدير وزاد من مودته كثيراً منذ ذلك الحين.

وأنت سيد الكوندي لوكانور، إذا كنت تعلم الصلاح والإخلاص في ذلك الرجل الذي طلب حمايتك، فلا يجب عليك أن ترفض مطلبـه حتى لو بلغـك بارتكابـه جنـية دونـ حقـ، ذلك لأنـ الناسـ قدـ يعتقدـونـ أنهـ فعلـ ذلكـ دونـ وجهـ حقـ وهمـ لمـ يطلعـواـ علىـ حقيقةـ الأمـورـ. تماماًـ مثلـماـ جـرىـ معـ المـلكـ باعتقادـهـ للـوـهـلةـ الأولىـ أنـ دونـ لـورـنـثـوـ قدـ أـسـاءـ بـقـتـلـهـ الرـاهـبـ، حتىـ عـرـفـ حـقـيـقـةـ ماـ جـرـىـ وـوـجـدـ أنهـ عملـ منـ أـفـضلـ الـأـعـمـالـ فـيـ الدـنـيـاـ. ولكنـ لوـ كـنـتـ مـتـأـكـداًـ أـنـ هـنـاـ قـدـ اـرـتكـبـ فـعـلاًـ شـائـناًـ وـدـونـ وجـهـ حقـ، فـعـلـيـكـ بـمـنـعـهـ مـنـ رـفـقـكـ.

استحسن الكوندي ما قاله باترونبيو جداً، وعمل به وسارت أمره بشكل أفضل.

وأدرك دون خوان أنه مثال طيب، فأمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب فيه هذه الأبيات
الشعرية التي تقول:

أشياء عديدة تبدو بلا منطق

فمن يدري، لعلها تكون مفيدة.

مثال 29

ما جرى لثعلبة تمددت في الشارع وتطايرت بالموت

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- باترونبيو، يعيش أحد أقربائي في أراضٍ ليس له القدرة فيها على رد المظالم التي يتعرض لها، فأصحاب النفوذ في تلك الأرض يتربكون أن يفعل أي شيء ليتخذوا منه ذريعة للتهجم عليه. ويقول قريبي ذاك إنه صار من المجحف حقاً تحمل ما يفعلونه ضده وإنه يفضل المجازفة بكل ما لديه على أن يعيش تلك المعاناة اليومية. ولأنني لا أريد له أن يقع في الخطأ، فأرجو منك أن تجد الوسيلة التي يمكن أن أنسحه فيها لتمضية وقته بأفضل ما يكون في تلك الأرض.

- سيد الكوندي لوكانور - قال باترونبيو - لكي تستطيع أن تتصحّه بما يناسبه، أود أن تعرف مني ما حدث ذات مرة لثعلبة ظايرت بالموت.

فسألته الكوندي عما جرى لها.

- سيد الكوندي - قال باترونبيو - دخلت ثعلبة في إحدى الليالي إلى حظيرة الدجاج، وانشغلت بمعاركها مع الدجاجات، وعندما فكرت في الانسحاب، كان النهار قد طلع ورأيت الناس يمشون في

الشوارع. عندما رأت أنه من الصعوبة أن تختبئ، خرجت خلسة إلى الشارع وتمددت هناك متظاهرة بالموت. عندما رأها الناس، ظنوا أنها ميّة، ولم يهتموا بأمرها.

بعد مضي بعض الوقت، مر إلى جوارها رجل وقال إن غرة جبين الثعلبة إذا ما وضعت على جبهة الأطفال طردت عنهم الحسد. فقص بالمقص شعر غرة الثعلبة.

بعدها مر رجل آخر وعمل الشيء نفسه مع زغب المتن وقال آخر عن زغب الجنب وقال آخرون الشيء نفسه حتى قصصوها تماماً. ولم تتحرك الثعلبة لأنها اعتقدت أن كل ما فقدته لن يضرها بشيء.

وبعد مضي بعض الوقت، جاء رجل آخر وقال إن ظفر إيهام الثعلبة يفيد بمداواة ورم الداحس³⁶ فقلعه ولم تتحرك الثعلبة.

بعد فترة، جاء آخر وقال إن القلب مفيد للتخفيف من آلام القلب، وأخرج سكينه ليقتلعه. فرأت الثعلبة أنه يريد استخراج القلب وهو ليس بالشيء الذي يمكن استرجاعه، وأن الحياة عندها ستكون ضائعة، لذلك فكرت في أنه من المفيد المجازفة بشيء بدلًا من ضياع كل شيء. ففرت بكل سرعتها لتنجو بنفسها.

وأنت سيد الكوندي، انصح قريبك ما دام قدره أن يعيش في أرض لا يستطيع أن يدافع فيها عن نفسه من الاعتداءات، وليس بإمكانه أن يثأر منها، فليتحمل بصبر كل ذلك، وليحاول إفهام الآخرين أنه لا يكترث لهذه الأمور، مadam قادرًا على التغاضي عنها ومدامات أضرارها بسيطة. فالإنسان يمكنه أن يتجاوز ما لا يهينه بشيء ويواصل العيش. لكن لو شعر بأي إهانة أو وقع عليه ضرر بعلم الناس ومعرفتهم، فلا بد أن يثأر لنفسه. لهذا من الأفضل أن يتكلتم على الأمر كلما استطاع ذلك. لكن إذا تحول الأمر إلى إهانة أو ضرر بالغ، فعليه أن يجاذب بكل ما قوته ولا يغض الطرف عنه، فمن الخير للمرء أن يفقد كل ما لديه ويقضي نحبه دفاعاً عن حقوقه وعزته، على أن يتحمل الظلم والإهانة.

استحسن الكوندي النصيحة جداً.

وأمر دون خوان بتدوينها في هذا الكتاب، وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

اصبر على الأمور قدر ما يتطلب
وتجنب الأمور الأخرى قدر المستطاع.

مثال 30

³⁷ ما جرى لملك إشبيلية ابن عبّاد مع زوجته الرُّميكيَّة

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونويو قائلاً:

- باترونويو، حدث لي مع رجل ما يلي: مرات عديدة يرجوني أن أساعده وأن أعطيه من بعض ما عندي. وعلى الرغم من أنه يشكريني كلما فعلت ذلك، إلا أنه قد عاد للطلب ولم أعطه مثل الأول، أشعر بأنه قد نسي كل ما فعلت من أجله من قبل. ولراجحة ما لديك من إدراك، أرجو منك أن تتصحني عن وسيلة أتعامل فيها مع هذا الرجل.

- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونويو - يبدو لي أنه يحصل معك ما جرى لملك إشبيلية ابن عبّاد مع زوجته الرُّميكيَّة.

فسألَه الكوندي عما جرى له.

- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونويو - كان الملك ابن عبّاد متزوجاً بالرُّميكيَّة وكان يحبها حباً لا مثيل له في كل الدنيا. وكانت هي من أفضل النساء وماتزال أقوالها تترادد حتى اليوم بين المسلمين، لكن كان بها خصلة معيبة: كانت متقلبة الأهواء ونزة. وحدث أن سقطت الثلوج في شهر فبراير (شباط) وهي في قرطبة، وما أن رأت الرُّميكيَّة الثلوج حتى أجهشت بالبكاء. فسألها الملك عن سبب بكائها. قالت له إنه لا يأخذها إلى الأماكن التي يسقط فيها الثلوج. وبما أن قرطبة أرض دافئة ولا يسقط فيها الثلوج إلا في ما ندر، فقد أمر الملك إرضاء لها، بغرس كل سفوح الجبال بأشجار اللوز، حتى إذا أزهرت في شهر فبراير (شباط)، بدت الجبال وكأنها مكسوة بالثلوج، فتنطفئ رغبتها في رؤية الثلوج.

ومرة أخرى، والرُّمِيكية تجلس في مقصورة تطل على النهر، أن رأت إحدى النساء حافية وهي تملج الطين بقدميها لتصنع منه الطوب. وعندما رأت الرُّمِيكية ذلك المشهد، أجهشت بالبكاء. وعندما سألها الملك عن سبب بكائها، أجبته بأنها لا تستطيع أن تكون على سجيتها، حتى في شيء مثل ذلك التي تقوم به تلك المرأة. حينها، أمر الملك، إرضاء لها، بملء حوض البركة الكبيرة الموجود في قربة، بدلاً من الماء والطين، أن تملأ بالسكر والقرفة والخزامي والقرنفل والأعشاب العطرية والعنب وكل ما استطاعوا أن يعثروا عليه من طيب، وبدلاً من إضافة القش، أمرهم بملئه بأعواد قصب السكر. وبعد أن ملأوا البركة بكل تلك الأشياء، ولدَّ أن تتصور نوعية الطين الذي كان عليه، قال الملك للرُّمِيكية أن تخلع نعليها وأن تقوم بسحق الطين وأن تصنع منه طوبًا قدر ما تريده.

وفي يوم آخر، اشتهرت شيئاً وأجهشت بالبكاء. وعندما سألها الملك عن سبب بكائها، أجبته كيف لها ألا تبكي وهو لا يفعل أي شيء يدخل السرور على قلبها. ما أن رأى الملك هذا وهو الذي عمل كل شيء لإبهاجها وإرضاء رغباتها وأنه لا يستطيع عمل أكثر من ذلك، قال لها بالعربية «ولا نهار الطين»³⁸ وكان يريد به القول إنها حتى لو نسيت الأشياء الأخرى، فلا يمكنها نسيان الطين الذي أمر بصنعه لها ليرضيها.

وأنَّت سيدِي الكوندي لوكانور، إذا كنت قد فعلت الكثير من أجل ذلك الرجل، وكان هو ينسى أفضالك عليه ولا يشكرك عليها إذا لم تلبي له مطلبًا جديداً، فاحذر أن تقوم بما يمكنه أن يضر بك، كما أنسحَّك بآلا تجده أفضال الآخرين عليك إذا لم يقوموا بفعل ما تريده منهم.

استحسن الكوندي النصيحة المفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأنَّ السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

من ينسى أفضالك عليه

فلا تضحي من أجله بما لديك.

مثال 31

عن الحكم الذي أصدره أحد кардиналов
في قضية بين كهنة باريس والرهبان الفرنسيسكان³⁹

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باتروننيو قائلاً:

- باتروننيو، ننوي أنا وصديق لي على عمل شيء يوافقنا ويشرفنا. وأرغب في أن أقوم بالعمل الآن وحدي، لكنني لا أجرؤ على ذلك حتى يصل صديقي. ولعلمي بما منحك الرب من إدراك وفهم، أرجو أن تتصحني في هذا الأمر.

- سيدى الكوندي- قال باتروننيو- لتعلماً ما يوافقك، أود أن تعرف مني ما حدث لرجال الكاتدرائية مع الرهبان الفرنسيسكان في باريس.

فسأله الكوندي ما جرى من ذلك الأمر.

- سيدى الكوندي- قال باتروننيو- قال كهنة الكاتدرائية بما أنهم رأس الكنيسة، فلهم الحق في دق ناقوس الأوقات⁴⁰ دون الآخرين. ورهبان الفرنسيسكان ردوا عليهم بأنهم يقومون بمكريرن للدرس والتراويل الصباحية وللصلاة حتى لا يفقدوا أوقات الدرس، وأضافوا على ذلك أنهم معفيون، وليس عليهم أن ينتظروا أحداً.

وحول هذا الأمر دام النزاع طويلاً وكلف أموالاً طائلة للدفع للمحامين عن دعوى كل طرف منها.

وبعد وقت، أمر البابا أحد кардиналов بالحكم في هذا الشأن، وطلب منه أن يبحث عن حل بطريقة أو أخرى.

أمر الكاردينال بإحضار ملف الدعوى، وكان ضخماً ويثير حجمه الفزع. عندما رأى الكاردينال كل تلك الأوراق، حدد لهم يوماً ليأتوا للسماع الحكم.

عندما أصبح الجميع أمامه، قام بحرق كل أوراق القضية وقال لهم:

- أصحابي، لقد دامت هذه القضية وقتاً طويلاً وأنفقت فيها الأموال الطائلة، لذلك لن أطيل عليكم أكثر، وحكمي هو: من استيقظ منكم أولاً فليدق الناقوس.

وأنت سيد الكوندي، إذا كان الأمر موافقاً لكم معاً ويمكنك أن تفعله وحدك، فأنصحك بأن تفعله ولا تضيع وقتك، فكثيراً ما تضيع الأمور بالتأجيل، وقد يعجز الواحد أن يقوم بها بعد ذلك.

استحسن الكوندي النصيحة المفيدة، ونفذها، وكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

إذا رغبت في عمل ما ينفعك

فلا تؤجله، كي لا يضيع عليك.

مثال 32

⁴¹ ما جرى لأحد الملوك مع محطاليين نسجوا له ثواباً

تحدى الكوندي لوكانور مرة أخرى مع باتروننيو مستشاره قائلاً:

- باتروننيو، جاءني رجل يقترح عليّ أمراً في غاية الأهمية وأكده لي أنه يوافقني، ولكنه طلب مني ألا أخبر أحداً عنه مما كانت ثقتي فيه. وألح كثيراً على ضرورة كتمان الأمر و قال لي إنني لو أفشيته لأحد، فسأعرض كل ممتلكاتي وربما حياتي إلى الخطر. ولأنني لا أعرف أحداً مثالك يستطيع أن ينصحني فيما إذا كان الأمر صائباً أم خادعاً، فأرجو منك أن تخبرني برأيك في هذا.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باتروننيو- لكي تعرف حسب رأيي ما يوافقك، أود أن تعرف ما جرى لملك مع ثلاثة من المحطاليين.

فسألة الكوندي عما جرى.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونيو- قصد ثلاثة من المحتالين أحد الملوك وأخبروه بأنهم حرفيون في صنع الثياب، خاصة أنهم يستطيعون صناعة أثواب عندما يلبسها الأب لا يراها سوى من هو ابن له من صلبه، ولا يمكن أن يراه منْ هو ليس كذلك.

رافق هذا للملك كثيراً، إذ رأى أنه بهذه الطريقة سيعرف من هم أبناء آبائهم فعلاً ومن هم ليسوا كذلك، وبهذه الطريقة ستزيد ثروته كثيراً، إذ إن المسلمين لا يرثون إلا إذا كانوا أبناء حقيقين لآبائهم، وهكذا أمر بمنحهم قصراً ليقوموا بصنع تلك الثياب.

وقالوا له ليتأكد من أنهم لن يخدعوه، فطلبوها أن يغلقوا عليهم القصر حتى ينتهوا من صنع الثوب. وهذا ما رافق الملك كثيراً، وكان أن أدمهم بالكثير من الذهب والفضة والحرير والكثير من الأموال ودخلوا ذلك القصر وحبسو أنفسهم فيه.

أعدوا آلاتهم وتظاهروا بأنهم يمضون الوقت كله في حياكة الثوب. وبانقضاء أيام عدة، مضى واحد منهم إلى الملك وأخبره بأنهم بدأوا بنسج الثوب وأنه جميل وليس له نظير في الدنيا. وحكي له عن الرسوم التي يشغلونها وطلب منه كي يتتأكدوا من أنها تعجبه، أن يزورهم وحده دون رفقة أحد ليراها، فأعجب ذلك الملك كثيراً.

وأراد الملك أن يجرِّب الثوب شخصاً آخر قبله، فبعث بخادم له ليرى الثوب، ولم يخبره بخاصيته حتى يخبره بحقيقة ما رأى. عندما تكلم الخادم مع المحتالين وعرف سر الثوب، لم يجرؤ على الاعتراف للملك بأنه لم يره. وعندما عاد إلى الملك، أخبره بأنه قد رأى الثوب. وبعده بعث الملك بخادم آخر وقال له الشيء نفسه. وبعد أن بعث بالجميع وقد أكدوا له أنهم رأوه، مضى الملك بنفسه ليراه.

عندما دخل القصر ورأى الحرفيين منشغلين بالنسيج وكانوا يتحدثون: «هذه الشغالة يُقال لها كذا، وهذا الرسم كذا، وهذه الهيئة كذا، وهذه الألوان كذا»، وقد اتفقا فيما بينهم على قول الكلام نفسه، لكنهم في الحقيقة لم يكونوا ينسجون أي شيء، وعندما رأى الملك أنهم كانوا ينسجون ويتحدثون عن الثوب، وهو ولا يرى أي شيء مما يتحدث عنه الآخرون، شعر وكأن الموت يدهمه، فقد شُكَّ بأنه

ليس من صلب أبيه لهذا لم يستطع رؤية التوب، وخشي أنه لو اعترف بذلك سوف يفقد ملكه. لهذا راح يعدد مزايا التوب ويعاين جيداً ما كان يصفه الحرفيون.

وعندما رجع إلى قصره واختلى بناسه، راح يحدثهم عن روعة التوب وجودته ووصف لهم الأشكال والرسوم التي تزين التوب، لكن مع ذلك كان الشك يأكل قلبه.

بعد مرور يومين أو ثلاثة أيام، بعث بوزيره ليرى ذلك التوب، بعد أن حدثه الملك عن روعة الأشكال الغريبة التي لمحها على ذلك التوب. فمضى الوزير إلى هناك.

عندما دخل ورأى أن الحرفيين كانوا ينسجون ويتحدثون عن الرسوم والأشكال التي على التوب، وسمع من الملك ما رأه في التوب، وهو الوحيد الذي لا يرى أي شيء، فقد فكر أنه ليس بابن أبيه، ولهذا لا يرى أي شيء، ولو اعترف بذلك فسيفقد شرفه. لهذا بدأ يمتحن التوب مثل الملك وأكثر.

عندما عاد الوزير إلى الملك وأخبره بأنه قد رأى التوب وأنه شيء نفيس لا شيء يشبهه في العالم أجمع، تيقن الملك من مصيبته، ذلك لأن الوزير قد رأه وهو لا يراه. لهذا لم يعد لديه شك في أنه ليس ابنًا لأبيه الملك، وراح يعدد مزايا التوب ويؤكد روعة وجودة التوب والحرفيين الذين يقومون بصنع مثل هذا الشيء.

في يوم آخر، بعث الملك بأحد خاصته وحدث له الشيء نفسه الذي جرى مع الملك والآخرين. ما الذي يمكنني أن أقوله لك بعد؟⁴² بهذه الطريقة وبسبب الخوف، انخدع الملك وكل أهل تلك الأرض. ولم يجرؤ أحدthem على الاعتراف بعدم رؤية التوب.

واستمر الأمر على تلك الحال حتى وصل موعد أحد الأعياد الكبرى. فقال الجميع للملك إنه عليه ارتداء ذلك التوب يوم العيد. ف جاء الحرفيون بالثوب ملفوفاً بالشرافش، وقدموه للملك بعدما سأله كيف يريدهم أن يقصوا ذلك التوب. فأخبرهم الملك أي ثوب يريد، فتظاهروا بالقص وأخذوا المقاييس التي يجب أن تكون للثوب وبعد ذلك راحوا ليحيطوه.

عندما وصل يوم العيد الأكبر عادوا إلى الملك بالثوب مفصلاً ومخيطاً، وفعلوا وكأنهم يلبسوه الثوب ويحددون ثناياه. وهكذا اعتقاد الملك أنه قد لبسه ولم يجرؤ على القول إنه لا يراه.

وبعد أن سمع أنه قد لبس الثوب الجيد، امتطى جواده وراح يخب في المدينة، وقد وافقه ذلك دون شك لأنه كان فصل الصيف.

جميع الناس الذين كانوا يمرون النظر إليه يعلمون أن من لا يرى الثوب فهو ليس من صلب أبيه، لذلك احترسوا من الاعتراف بذلك حتى لا ينزل بهم العار معتقدين أن غيرهم يراهم. وهكذا كتم الجميع السر ظناً منهم أنه سرهم الخاص. إلى أن اقترب سائس جواد الملك وهو رجل أسود، ولم يكن يخشى على شرفه بشيء، وقال له:

- سيدتي، أنا لا يهمني أن تعتقد أنني ابن أبي أو ابن رجل آخر؛ لهذا أقول لك إما أنني أعمى وإما أنك عريان.

فما كان من الملك إلا أن شتمه واتهمه بأنه ليس ابناً لأبيه لهذا لا يرى ثيابه التي عليه.

وبعد أن قال الرجل الأسود ذلك، تجراً آخر وقال الشيء نفسه حتى وجد الجميع بمن فيهم الملك وقد فقدوا خوفهم من قول الحقيقة وأدركوا الحيلة التي انطلت عليهم. وعندما ذهبوا للبحث عن المحتالين، لم يجدوه، فقد فروا بكل ما نهبوه من الملك بخداعهم الذي أخبرتم به.

أما أنت سيد الكوندي لوكانور، فتيقن أن ذلك الرجل الذي يطلب منك أن تتكم على الأمر حتى على أقرب تابعيك، إنما يضمّر خداعك، وتتأكد أن من تجمعه بك معرفة بسيطة لن يريك الخير أكثر من عاش معك طويلاً وخصصته بالعطايا ولم يعد له بد إلا أن يتمنى لك الخير ويخدمك بإخلاص.

استحسن الكوندي النصيحة المفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

من ينصحك بكتم الأمور عن أصحابك

فتيقن إنه يريد المكر بك بثمرتي تبين.

مثال 33

ما جرى لصقر الإنفانتي دون مانويل مع النسر ومالك الحزين

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، لقد خضت حرباً جمة ضد رجال كثرين. وبعد كل حرب، كان ينصحني بعضهم بأن أبدأ حرباً أخرى ضد آخرين، وبعضهم ينصحني بالراحة والدعة، وبعض ينصحني أن أشن حرباً ومحاربة جديدة ضد المسلمين. وبما أنني أعرف أنه لا أحد مثلك يستطيع أن ينصحني خيراً، لهذا أرجو منك أن تشير عليّ بما ينبغي عمله.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي تكون مصيباً فيما عليك عمله، فمن الأفضل أن تعرف مني ما جرى لأفضل أنواع الصقور المختصة بصيد مالك الحزين،⁴³ خاصة ما جرى لصقر ⁴⁴ الإنفانتي دون مانويل.

فسألته الكوندي عما جرى.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان الإنفانتي دون مانويل يصطاد في منطقة غير بعيدة عن إسکالونا، فأطلق صقره خلف طائر مالك الحزين، فطار الصقر خلف مالك الحزين، لكن أحد النسور هاجمه. وما أن رأى الصقر أن النسر يهاجمه حتى خاف وترك مالك الحزين ولاذ بالفرار. وبعد فترة رأى النسر أنه لن يلحق بالصقر فتركه ومضى. وعندما رأى الصقر ذلك، عاود الطيران خلف مالك الحزين على أمل أن يمسك به ويقتله. وكاد الصقر أن يظفر به لو لا أن عاد النسر للظهور من جديد، فاضطر إلى الهروب مثل المرة السابقة. وعندما ولى النسر، عاود الصقر ملاحقة طائر مالك الحزين. وجرى الأمر نفسه لثلاث أو أربع مرات، فكلما انسحب النسر، عاود الصقر مهاجمة مالك الحزين، وكلما عاد الصقر لمطاردة مالك الحزين، حضر النسر وحاول القضاء عليه.

عندما أدرك الصقر أن النسر لن يدعه يقتل مالك الحزين، تركه وهاجم النسر وجرحه وأرغمه على الهرب. وبعد ذلك عاد إلى مالك الحزين، وبينما هما يطيران عالياً في السماء، عاد النسر من جديد وهجم عليه. رأى الصقر أن ما فعله حتى الآن لم يساعد في شيء، فهاجم النسر بقوة وحمل عليه حتى كسر أحد جناحيه. - وعندما رأه يسقط بجناح مكسور، عاد إلى مالك الحزين وتمكن منه سريعاً. فعل الصقر ذلك لأنه كان مقتنعاً بأنه لا ينبغي له التخلي عن صيده بعد أن يتخلص من النسر الذي ضايقه.

وأنت سيد الكوندي لوكانور، بما أنك تعرف أن شرفك وأفضل شيء للروح والجسد هو خدمة الرب، كما أن مكانتك يجعل أفضل الأشياء هي خدمة الرب في محاربة المسلمين دفاعاً عن الدين الكاثوليكي الحقيقي المقدس. وأنا أنسنك مرة بعد أخرى، بأن تحارب المسلمين كلما أمنت هجوم الآخرين. وبذلك تكون قد فعلت الخير الكثير؛ فأولاً خدمة للرب، وثانياً لتأدية واجبك كفارس ومحارب، بدلاً من العيش في الدعة وأكل الخبر بلا طائل، وهو شيء لا نراه يليق بالفرسان. والساسة الكبار عندما لا يكون لهم ما يشغلهم حقيقة، فهم لا يقدرون الناس حق قدرهم ولا يفعلون من أجلهم ما هو واجب عليهم، بل يتفرغون لأمور لو تجنبوها لكان خيراً لهم. والحق أنك لن تجد عملاً أفضل وأكثر نفعاً للروح والجسد من مقارعة المسلمين. وتذكر ما جاء في المثال الثالث من هذا الكتاب، أعني وثبة ملك إنكلترا ريتشارد ومقدار ما ربح منها. ففكر بقلبك أن عليك أن تموت، وأن الرب سيعاقبك على ما اقترفت في حياتك، والرب عادل وحق، بحيث إنك لن تستطيع الهروب من عقابه بما اقترفت يداك. ولكن لترى أنك وسط كل هذا قد وجدت الوسيلة التي تشفع لك عن كل ذنبوك، فإذا مت في حربك ضد المسلمين وأنت معترف، فطوبى لك لأنك ستموت شهيداً، وحتى لو لم تمت بالسلاح، فسينجيك عملك ونيتك الصالحة.

استحسن الكوندي هذا المثال وقرر العمل به، داعياً الرب أن يساعد بحكمه.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثالاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

إذاً أنعم الرب عليك بالأمان

فدافع عنه كي تفوز بالحياة الأبدية.

مثال 34

ما جرى لأعمى كان يقود أعمى آخر

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- باترونبيو، قريب لي وهو بمثابة صديق أثق فيه ومتاكد من المودة التي يبديها لي، أشار عليّ أن أذهب إلى مكان أخشاه تماماً. وهو يخبرني ألا أخشى شيئاً لأنه سيضحي بحياته قبل أن يلحق بي أي ضرر. والآن أرجوك أن تتصحن في هذا الأمر.
- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونبيو- لكي أنصحك في هذا، أتمنى منك أن تعرف مني ما جرى لأعمى مع أعمى آخر.

فسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونبيو- كان يعيش رجل في المدينة، وقد قدرة البصر في العينين وأصبح أعمى. وبحالة العمى والفقر التي يعيشها، جاءه أعمى آخر كان يعيش في تلك المدينة واقتراح عليه أن يذهبا معاً إلى مدينة أخرى قريبة من مدinetهم تلك، ويطلبان الصدقة لوجه الله وعليهما أن يحافظوا على نفسيهما ويحصلان على الطعام معاً.

وقال له ذلك الأعمى إنه يعرف الطريق جيداً إلى تلك المدينة، وهو طريق مملوء بالحفر والمطبات والمسالك الخطيرة، لذلك هو خائف من تلك الرحلة.

فطمأنه الأعمى الآخر بأنه لن يحدث له شيء فسيكون رفقة وسيحرص على سلامته. وبقدر ما أكد له وما أظهره له من مزايا السفر، رضخ الأعمى الآخر وصدقه ومضى معه.

عندما وصلا إلى المسالك الخطيرة الصعبة، سقط الأعمى الذي كان يقود الأعمى الآخر ومات، ولقي المصير نفسه الأعمى الآخر الذي كان يخشى الطريق.

وأنت سيدى الكوندي، إذا كنت خائفاً لسبب من الأسباب وتعلم أن الخطر حقيقي، فلا تحشر نفسك في الخطر مطمئناً لقول قريرك وصديقك بأنه سيضحي بنفسه قبل أن ينالك الضرر، فما أقل ما سيفيدك به لو مات هو أولاً وتاذيت أنت لموت بعده.

استحسن الكوندي النصيحة المفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

لا تلق بنفسك في المخاطر أبداً
حتى لو منحك الصديق كل الأمان.

مثال 35

ما جرى لفتى

⁴⁵ تزوج من امرأة عنيدة وسيئة الطباع

تكلم الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باتروننيو فقال له:

- باتروننيو، قال لي أحد أتباعي إنهم عرضوا عليه الزواج من امرأة ثرية جداً، على الرغم من أنها من مرتبة أعلى منه، فهو يرى في هذا الزواج خيراً له، إلا أن هناك مانعاً وحيداً: إنهم قالوا له إن تلك المرأة كانت أكثر نساء الدنيا عناداً ونزقاً، وأنا أطلب منك الآن النصح حتى أقول له إن كان يتزوج من تلك المرأة، التي يعرف طباعها، أم أقول له ألا يفعل.

- سيدى الكوندي- قال باتروننيو- لو كان الأمر كما وقع مع ابن رجل طيب من المسلمين، فانصحه بأن يتزوج منها، أما إذا لم يكن الأمر كذلك، فلا تتصحه بأن يفعل.

رجاه الكوندي أن يحكي له ما كان من أمره.

قال له باترونيو إنه كان يعيش في إحدى المدن رجل شريف وله ولد، كان الفتى من أفضل فتيان الدنيا، لكنه لم يكن ثرياً بالقدر الذي يساعدك على أن يحقق أحلاً كبيراً كما كان يود، وهذا كان يزعجه كثيراً، لأنه كان يمتلك العزيمة، لكن تعوزه الوسائل.

في تلك المدينة نفسها كان يعيش مسلم آخر من مرتبة أعلى وأكثر ثراء من والد ذلك الفتى، وكانت له ابنة وحيدة، لكنها كانت على العكس تماماً من صفات ذلك الفتى، بقدر ما كان للفتى من صفات حميدة كانت الفتاة صفات سيئة، لهذا السبب فإنه لم يجرؤ أي رجل على الزواج من تلك الشيطانة. وقف ذلك الفتى الطيب جداً أمام أبيه وقال له إنه يعرف أنه ليس بالثراء الكافي ليعطيه ما يحتاجه ليعيش في سعة، وحتى لا يعيش في شظف ولا يضطر إلى الهجرة من بلاده، فإنه يرى من الأفضل له أن يبحث له أبوه عن زوجة طيبة تمكنه من تحسين أحواله. قال له الأب إنه سوف يسعد كثيراً أن يقبل بزوجة طيبة.

حينئذٍ قال له الفتى إنه لو وافق، يمكنه أن يحاول مع ذلك الرجل الفاضل ليزوجه من ابنته تلك. عندما سمع الأب ذلك، تعجب كثيراً، وقال له إنه مدام يفكر في هذه، فليعرف أنه لم ير غب أحد في الزواج منها، مهما كان فقره وبؤسه، فقال له الابن إنه على استعداد للزواج منها لو تطوع الأب وقام بواجب الخطوبة، من فرط إلحاد الابن، على الرغم من دهشة الأب، إلا أنه قبل الأمر.

وتوجه الأب بعد ذلك إلى الرجل الطيب، الذي كان على علاقة ودية به، وقص عليه ما وقع من ابنه، ورجاه أن يقبل جرأة ابنه على طلب يد ابنته، وأن يتاح له الفرصة. عندما سمع الرجل الطيب كلام صديقه، قال له:

- بحق الله، يا صديقي، لو أنني قبلت هذا لكنت بئس الصديق لك، لأن لك ابناً من أفضل الفتيان، ولو أنا قبلت أن يمس بسوء أكون غير أمين معك، لأنني واثق أنه لو تزوج من ابنتي فإنه سيموت، أو أنه سوف يفضل الموت عن الاستمرار في الحياة معها. أرجو ألا تأخذ كلامي هذا على أنه رفض لطلبك، لأنك لو أردت فإبني أوقف على أن يأخذ ابنتي من البيت.

قال له ذلك الصديق أنه يكون ممتناً كثيراً لو أنه وافق على ما يقول، ورجاه أن يوافق على تلك الزينة مadam ابنه ير غب فيها.

تم الزفاف، وحملوا العروس إلى بيت زوجها. عند المسلمين عادة إعداد العشاء للعروسين، ووضعه على المائدة، وتركه في البيت حتى اليوم التالي، وهذا هو ما فعلوه مع هذين العروسين، لكن أبي العريس والعروس وأمهاتهما وأقاربهما كانوا في كرب كبير، فكروا أنهم سوف يعثرون على العريس ميتاً أو في سوء عظيم.

عندما بقي العروسان في البيت منفردين، جلسَا إلى المائدة، وقبل أن تنطق العروس حرفًا، نظر العريس حول المائدة فشاهد كلبًا، فأمره بغضبه:

- أيها الكلب هات لنا ماء لنغسل أيدينا.

لكن الكلب لم يتحرك، فازداد غضبه، وقال له بعصبية أشد أن يحضر لهما ماءً ليغسلا أيديهما، لم يتحرك الكلب لتنفيذ الأمر، عندما وجده لا يفعل ما يأمره به، ترك المائدة مهتاجاً، واستل سيفه، وتوجه إلى الكلب، حين رأه الكلب متوجهاً نحوه انطلق هارباً، وتبعه العريس، وطفر كلاهما على الملابس والمائدة والنار، ظل العريس يطارد الكلب حتى لحق به وقطع رأسه وسيقانه، ومزقه أرباً، ولطخ كل البيت والمائدة والملابس بدمه.

ثم عاد إلى المائدة، نظر حوله، فرأى قطاً فأمره أن يحضر ماء ليغسلا أيديهما، وأن القط لم يفعل ما أمره به قال له:

- كيف، أيها الخائن المزيف، ألم تر ما فعلته بالكلب لأنه لم ينفذ ما طلبت منه؟ أنا أؤكد لك إن لم تأتني فوراً بما طلبت لفعلت بك ما فعلت بالكلب.

وأن القط لم يفعل، وقف وأمسكه من سيقانه وقذف به باتجاه الحائط، ومزقه أكثر من مائة قطعة، مبدياً غضباً أكثر مما فعل مع الكلب.

ثم عاد إلى المائدة حائقاً مغناطضاً، على وجهه إمارات الغضب، نظر في جميع الاتجاهات، ثم إلى العروس، التي ما أن رأته يفعل ذلك حتى اعتقدت أنه مجنون، فلم تنطق بكلمة واحدة.

عندما نظر العريس من حوله رأى فرساً كان في البيت، فقال له بحنق شديد أن يأتيه بماء ليغسلا أيديهما، لكن الفرس لم يفعل، عندما رأى أنه لا يتحرك قال له:-

- كيف، أيها الفرس، هل تعتقد لأنني لا أملك غيرك قد أتسامح معك لو لم تفعل ما أمرتاك؟
سأقتلك شر قتلة كما فعلت مع من سبقوك، ولن أرحم كائناً من كان لو لم يفعل ما أمره به.

ظل الفرس ساكناً، عندما رأى أنه لا يتحرك ليقوم بما أمره به، اقترب منه وقطع رأسه،
وبكل ما يملك من حنق مزقه إرباً.

عندما شاهدت المرأة قتله للفرس ولم يكن هناك كائن آخر، وأنه قال إنه سوف يفعل ذلك مع
كائن من كان لو لم ينفذ ما يأمره به، فكرت أن الأمر لم يعد يحتمل الهزل، ومن فرط رعبها لم تكن
تعرف إن كانت ميتة أم أنها مازالت على قيد الحياة.

أما هو فإنه عاد إلى المائدة حانقاً وملطخاً بالدماء، مقسماً بأغلظ الإيمان، أنه لو كان لديه ألف
فرس وألف رجل وألف امرأة في بيته لسوف يقتلهم جميعاً لو توانوا عن تنفيذ أوامرها، جلس ثم نظر
من حوله في جميع الجهات، فيما كان السيف على ركبتيه يقطر دماً. ثم نظر بعد ذلك من حوله مرة
أخرى فلم يجد كائناً يتحرك، فوجه بصره بقوة نحو عروسه وقال لها بحنق شديد، والسيف مشهر في
يده:

- قومي وأحضرني ماء لأغسل يدي.

لم تكن تنتظر المرأة شيئاً آخر غير تمزيقها إرباً، وفقت بسرعة كبيرة وأحضرت ماءً ليغسل
يديه، فقال لها:

- كم أحمد الله لأنك نفذت ما أمرتاك به، لأنك لو لم تفعلي بعد ما أصابني من جنون بسبب
هؤلاء، لفعلت معك ما فعلته بهم.

ثم أمرها أن تقدم له الطعام، ففعلت، كلما قال شيئاً، كان يقوله لها بكل غضب وبلهجة شديدة،
حتى أنها اعتقدت أن رأسها سوف يتدرج على الأرض في أي لحظة، وهكذا أمضت الليلة، ولم
تنطق بكلمة واحدة، ونفت كل ما أمرها به.

بعد أن خلدا إلى النوم قليلاً، قال لها:

- إنه بسبب ما وقع في تلك الليلة فإنه لن يستطيع أن ينام جيداً، فعليها أن تتحرس ألا يوشه أحد في الصباح، وأن تعد له إفطاراً جيداً.

حين طلع النهار، وقف الآباء والأمهات والأقارب بالباب، لم تكن هناك أدنى حركة، اعتقدوا أن العريس ميت أو جريح، وحين شاهدوا العروس من فتحة الباب ولم يشاهدو العريس، تأكد لهم اعتقادهم، وحين رأتهم العروس أمام الباب، همت للقائهم بخفة وخوف شديدين، وقالت لهم على الفور:

- أيها المجانين، ماذا تفعلون، كيف وصلتم إلى هنا؟ لا تصدروا ضجيجاً، اصمتوا، وإلا، فإنكم وأنا سنكون في عداد الأموات.

حين سمعوا هذا، ملأت الفرحة قلوبهم جميعاً، وحين علموا كيف أمضيا الليلة، قدروا الفتى كثيراً، لأنه قام بما أملأه عليه واجبه، وسيطر على بيته جيداً، ومنذ ذلك اليوم تحولت المرأة إلى امرأة مطيبة، وعاشا حياة سعيدة.

بعد أيام قليلة حاول والد الفتاة أن يفعل ما فعله زوج ابنته، فقتل مثله فرساً، لكن زوجته قالت له:

- أخطأت يا سيد فلان، لقد جئت متاخرأً، لأنه لن يفيديك في شيء أن نقتل مائة فرس، كان عليك أن تفعل هذا مبكراً، فنحن الآن نعرف كل منا الآخر.

أنت سيد الكوندي، لو أن تابعك هذا يريد أن يتزوج تلك المرأة، فإذا كان على شجاعة مثل ذلك الفتى، فانصحه بأن يتزوج، لأنه سوف يعرف كيف ينظم حياته، لكن إن لم يكن مثل ذلك الفتى، فقل له ألا يحاول، وإن كنت أطلب منك أن تتعامل معهم بالطريقة التي تبين لهم كيف تريدهم أن يتعاملوا معك.

استحسن الكوندي النصيحة المفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

إن لم تبين منذ البداية من تكون

لا تستطيع فعل ذلك أبداً حتى لو أردت.

مثال 36

ما جرى لتاجر

وجد زوجته وابنه نائمين في فراش واحد

تحدث الكوندي لوكانور يوماً مع مستشاره باترونبيو، وهو غاضب من كلام مشين قيل له
ويفكر بالثار لنفسه ثاراً لا ينساه التاريخ.

عندما رأه باترونبيو على تلك الحالة من الهياج، قال له:

- سيدى الكوندى، كم أود أن تعرف ما جرى ذات يوم لتاجر مضى لشراء نصائح

فسأله الكوندى ما جرى له.

- سيدى الكوندى- قال باترونبيو- في إحدى المدن عاش معلم ⁴⁶ عظيم الشأن لم يكن له من
مهنة ولا اهتمام آخر غير بيع النصائح. فسمع عنه ذلك التاجر الذي أخبرتك عنه وذهب إليه في أحد
الأيام ليستشيره في أمر ما. قال له المعلم إن لكل نصيحة سعرًا، فكم باستطاعته أن يدفع. فأجابه
التاجر بأنه يريد نصيحة بمرابطي ⁴⁷ واحد. أخذ المعلم قطعة المرابطي وقال له:

- أيها الصديق، إذا دعيت إلى مائدة ولم تعرف عدد الأطباق التي ستقدم لك، فاشبع بطنك من
الطبق الأول.

قال له التاجر إنها ليست بنصيحة عظيمة. فرد عليه المعلم ألا ينتظر شيئاً كبيراً مقابل مبلغ
زهيد. فطلب التاجر منه نصيحة أخرى بثمن قطعة دوبلة واحدة. ونقده إليها.

فقال له المعلم إذا غضبت وهممت بفعل أمر وأنت تحت سلطة تلك الحالة، فقل بالأمر ولا تقم بشيء قبل أن تعلم الحقيقة كاملة. عند ذلك قال التاجر مع نفسه إنه لو استمر في شراء مثل هذه النصائح فسوف يخسر كل النقود التي معه. فقنع بما جرى له وحفظه جيداً في أعماق قلبه.

ووافق أن أبحر التاجر إلى أرض بعيدة وترك زوجته حاملاً. فتأخر كثيراً في تجارته في تلك البلاد وحين عاد كان ابنه قد بلغ العشرين عاماً. وكانت أمه تحبه جداً شديداً إذ لم تتجه بعده ابناً آخر وكانت في ظن من أن زوجها قد توفي. وبما أنها كانت تكن الحب الكبير لأبيه، فقد كانت تتدبر الابن بصفة الزوج. كانت تأكل وتنام معه كما كانت تفعل وهو مازال صغيراً في عمر سنة واحدة أو سنتين. وكانت تعيش حياة شريفة وإن لم يفارقها الحزن لأنها لا تعرف شيئاً من أخبار زوجها.

أما التاجر وقد تمكّن من بيع كل بضاعته، ورجع لبلدته وافر الثراء. حين وصل الميناء تكلم على أمر عودته، وذهب سراً إلى بيته واختباً ليرى ما يجري فيه. بعد انتصاف النهار وصل ابنه، فقالت له الأم:

- من أين أتيت يا زوجي؟

عندما سمع التاجر زوجته وهي تتدبر الفتى بزوجها، امتعض جداً، إذ ظن بها وقد تزوجت به فعلاً أو أنها عشيقة له لصغر سنها. فأراد أن يقتلهما في الحال، لكنه تذكر تلك النصيحة التي كلفته قطعة دوبلة واحدة، فقرر أن يصبر.

عندما حل المساء جلساً للأكل، وحين رأهما التاجر معاً حول المائدة، انتابتة رغبة أقوى في قتلهما، لكنه سيطر على نفسه بسبب النصيحة التي اشتراها. لكن عندما حل الليل وقد رأهما ينامان في سرير واحد، لم يصبر أكثر فتقدما إليهما. اقترب غاضباً، لكنه تذكر من جديد تلك النصيحة فلجم نفسه.

قبل أن تطفئ القنديل، قالت الأم لابنها وهي تبكي بحرقة:

- يا زوجي ولدي، لقد وصل إلى أسماعي وصول سفينة من تلك الديار التي سافر إليها أبوك منذ سنوات طويلة. فلم لا تذهب غداً لتنقصى الأخبار، لعل الرب ييسر لنا معرفة شيئاً ما من أخباره.

عندما سمع التاجر ذلك الحديث، تذكر أنه قد ترك زوجته حاملاً، فعرف أن الذي بجوارها هو ابنه. ولا أظنك تستغرب كثيراً لو أخبرتك بأنه قد سرّ كثيراً وشكر الرب لأنه جنبه قتلهما بارتكاب جريمة شنيعة كهذه. وعرف أنه قد أحسن استخدام قطعة الدولمة التي قدمها مقابل نصيحة ألا تقوم بفعل أي شيء وأنت تحت سطوة الغضب.

وأنت سيد الكوندي، حتى لو ظننت أنك لن تصر على تحمل الإهانة التي أحقوها بك، فلا بد أن تتنظر حتى تتيقن من الحقيقة. وأنصحك بأن تتمالك نفسك حتى تتعرف إلى حقيقة الأمر، لا سيما أنه لا ضرر ولا فقدان لمصلحة عندما تتأني، وإلا فالندم نتيجة العجلة.

رأى الكوندي أنها نصيحة مفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثالاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

لا تتعجل في عمل شيء

قد تنعدم عليه فيما بعد.

مثال 37

ما قاله الكوندي فرنان من إجابة
لقومه بعد أن انتصر في معركة هائيناس⁴⁸

ذات يوم عاد الكوندي من الحرب منهاً وخائراً القوى، وقبل أن يستريح قليلاً وصلته الأخبار بأن حرباً جديدة قد نشب. نصحه أهله بأن يأخذ قسطاً من الراحة أولاً ثم يقوم بما يراه مناسباً بعد ذلك. وعندما سأله الكوندي باترونيو بما عليه أن يقوم به. قال له باترونيو:

- سيدى لتعرف ما يليق بك فعله، أود أن تعرف ما قاله الكوندي فرنان غونثالث لأتباعه.

سأله الكوندي عما قاله لهم.

- سيدى الكوندي- قال باترونيو- على الرغم من أن الكوندي فرنان غونثالث قد انتصر على الملك المنصور في معركة هاثيناس، إلا أن الكثير من رجاله قد قضى نحبه في المعركة، وهو ومن بقىّ منهم قد أصيروا بجراح كثيرة. وقبل أن يتماثل للشفاء، وصل إلى سمعه أن ملك نابارا قد غزا أراضيه، فأمر أتباعه بالاستعداد لمحاربة جيش نابارا. لكنهم ردوا عليه جميعاً بأن الجياد متعبه وهم منهكون، كما أنهم جرحى ومصابون، ولا بد أن يتم تأجيل الحرب بسبب ذلك، كما أنه من الأفضل أن ينتظر حتى يتماثل الجميع للشفاء ويستردون بعض قواهم.

لما رأى الكوندي ما أصاب أتباعه من وهن، شعر بالخزي، فكان أن قال لهم:

- أيها الصحابة، لن نترك الحرب بسبب جراحتنا، فالجراح الجديدة ستتمنينا جراحتنا في المعركة الأخرى.

وحين رأى أتباعه ما عليه من عزم وإصرار للدفاع عن أرضه وشرفه رغم ما ألم به من جراح، فمضوا خلفه. وكان أن انتصر الكوندي في المعركة وازداد شهرة.

وأنت سيدى الكوندي لوكانور، إذا أردت أن تدافع عن أهلك وشرفك، فلا تستسلم بسبب المتاعب أو المخاطر، وتصرف، بحيث إن التعب والخطر المحقق الجديد ينسيك ما جرى في الماضي.

رأى الكوندي أنها نصيحة مفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثالاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

تأكد من أن هذا قول الحق،
الشرف والراحة لا يجتمعان في موضع واحد.

مثال 38

ما جرى لرجل غرق في النهر
بسبب أحجار كريمة كان يحملها

قال الكوندي لوكانور باترونوي ذات يوم إنه لا يرغب في الانسحاب من أراضٍ سيحصل منها على ثروة هائلة، وهذا ما سيمنحه ربحاً كبيراً. لكنه مع ذلك يخشى المجازفة بحياته في بقائه هناك. لذلك رجاه أن ينصحه فيما ينبغي عليه فعله.

- سيدи الكوندي- قال باترونوي- لكي تفعل ما أراه مناسباً لك، هو أن تعرف مني ما حدث لرجل حاول عبور النهر وقد حمل حول عنقه شيئاً ثميناً.

فسألته الكوندي عما حصل له.

- سيدи الكوندي- قال باترونوي- كان هناك رجل قد حمل كمية هائلة من الأحجار الثمينة، وهي ثقيلة إلى درجة تجعل من حملها مهمة شاقة. وحصل أن كان عليه عبور نهر عميق، وبما أنه كان يحمل ذلك الحمل الثقيل، فما أن وصل منتصف النهر حتى شعر بنفسه يغطس إلى العمق.

وصادف أن رجلاً آخر كان عند الضفة فصاح به أن يلقي بالحمل الذي على عاتقه وإلا فمصيره الغرق. إلا أن ذلك المجنون لم يدرك أنه إذا لم يلق بالحمل فسيفقد ثروته وحياته معاً، أما إذا ألقى بالحمولة فسيفقد الثروة وينجو بنفسه. لكن لطمعه ولقيمة الأحجار الكريمة التي يحملها معه، لم يشأ تركها فمات في النهر. وبهذا فقد حياته وثراته أيضاً.

- عليه سيدي الكوندي لوكانور، فحتى لو كان من مصلحتك الحصول على الأموال وأسباب الجاه، فأنا أنصحك بـألا تمكث طويلاً في المكان الذي تحدق فيه الأخطار طلباً للثروة. كما أنصحك كذلك بـألا تجازف بحياتك إلا في واجب الدفاع عن الشرف أو لأي أمر واجب عليك. فمن يقلل من قدر نفسه ويخاطر بحياته طمعاً في نيل العلا. كما ينبغي للواحد منا أن يقدر نفسه ولا يتصرف فيها إلا بما يزيده رفعة بين الناس. فالقيمة ليست بما يراه في نفسه، بل بالأعمال التي تجعله عظيماً في عيون البشر. عليك أن تتقن أن أهل الشأن يقدرون حياتهم ولا يغامرون بأنفسهم طمعاً بـتوافه الأمور.

رأى الكوندي على أنها نصيحة مفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.
ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه
الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

من يطمع فيغامر حياته
فلن يدوم له منها شيئاً.

مثال 39

ما جرى لرجل مع طائر السنونو والعصافور

تحدت الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو، فقال:

- باترونيو، لا أجد في بالي طريقة أتخلص فيها من الحرب مع جارين من جيراني. والحل
أن الأقرب مني ليس قوياً مثل ذلك الأبعد مني. فأرجو منك أن تشير عليّ بما يجب أن أقوم به.
- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي تفعل ما يليق بك في هذا الشأن، أود أن تعرف
مني ما جرى لرجل مع عصفور الدوري وطائر السنونو.
فسألته الكوندي ما جرى له.

- سيدى الكوندي- قال باترونيو- انزعج رجل سقيم ضعيف الجسد من ضجيج الطيور التي
لا تدعه ينام في راحة، فرجا صديقاً له أن يبحث له عن علاج للتخلص من ضجيج العصافير
والسنونوات.

فأخبره صديقه ذلك بأنه لا يستطيع تخلصه من الاثنين معاً، ولكنه يعرف طريقه ليخلصه
من واحد منهم. فلما العصافير أو السنونوات. فقال الرجل السقيم إن السنونوات على الرغم من أن

ضجيجها يفوق ضجيج العصافير، إلا أنها في رواح ومجيء ولا تبقى في مكان واحد، واستقر أمره على التخلص من العصافير، فعلى الرغم من أن ضجيجها أقل إلا أنها لا تبرح البيت أبداً.

فكمَا ترى سيدِي الكوندي أن ذلك الجار البعيد هو الأقوى، إلا أنني أنصحك أن تجاهه الأقرب منك حتى لو كان أقل قوّة.

رأى الكوندي على أنها نصيحة مفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

إذا ما تھتم علیک، بكل الوسائل، أن تحارب

فتتجنب الأبعد منك حتى لو كان الأقوى.

مثال 40

لماذا فقد مندوب الملك ⁴⁹ روحه في كاركاسونا؟

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو فقال له:

- باترونيو، أعلم أن الموت لا مناص منه، لكنني أريد أن أقوم بعمل عظيم ينفعني ويحمو عني سيئاتي ويخلد سمعتي بعد مماتي. فأرجو أن تمن على بنصحك عن طريقة أحقق بها ذلك بشكل أفضل.

- سيدِي الكوندي- قال باترونيو- إن العمل الصالح صالح مهما كانت الطريقة والنية التي يتم بهما، ولكي تعرف الطريقة والنية الصالحة لما ينبغي عليك فعله من أجل روحك، أتمنى عليك أن تعرف مني ما جرى لمندوب الملك في قرية كاركاسونا.

فسألَه الكوندي ما جرى له.

- سيدى الكوندي- قال باترونبيو- في يوم ما مرض أحد مندوبى الملك في كاركاسونا. وحين شعر بقرب أجله، طلب مقابلة رئيس الدير الأكبر ورئيس الرهبان الأدنى منه، وطلب منهمما أن يقوما بشيء من أجل روحه، وطلب منهمما أن ينجزا ما اتفقا عليه بعد مماته.

فعل كل واحد ما طلبه منهمما. وقد أنفق نائب الملك بسخاء على روحه وتم له كل شيء بسرعة وعلى أفضل حال. لذلك كان الراهبان مسوروين جداً وكان يحدهما أمل كبير بخلاص روحه.

لكن اتفق بعد أيام قليلة، أن دخلت المدينة امرأة بها مس من الشيطان. وكانت تخبر الناس عن أسرار خفية لأن الشيطان الذي ركبها يتكلم بلسانها وقد كان من العارفين بكل ما حدث وقيل في كاركاسونا.

وعندما تناهى خبرها لسماع الراهبين القائمين على روح المندوب، أسرعوا إليها ليسألواها عما تعرفه عن تلك الروح. وب مجرد أن دخلا بيتها، قالت لهما إنها تعرف سبب مجئهما، وأنها قد تركت تلك الروح التي جاءا للسؤال عنها في الجحيم منذ وقت قصير.

ما أن سمع الراهبان كلامها حتى اتهمها بالكذب، لأن المندوب قد قام بواجب الاعتراف كما ينبغي، وقد تلقى أسرار الكنيسة وهذا يعني أن ادعاءها ليس صحيحاً حسب تعاليم الكنيسة المقدسة.

فكان أن ردت عليهما بأن عقيدة ودين المسيحيين حقيقة بلا شك، وأنه لو فعل ذلك قبل موته كما ينبغي للمسيحي الصالح أن يفعله، لكتب له الخلاص. لكنه لم يقم بما يعلمه المسيحي الحقيقي. فعلى الرغم من أنه أمر بالكثير من الإحسان لأجل روحه، فإنه لم يفعل ذلك بالطريقة التي ينبغي عليه فعلها، كما أن نيته لم تكن خالصة بالمرة. فهو أولاً قد أمر بفعل كل ذلك بعد أن تأكد من أنه يودع الحياة وكانت نيته أن يتم كل ذلك لو مات فعلاً، أما إذا نجا من الموت فلا. أي أنه كان سخياً بعد أن أصبحت ثروته بلا نفع. وثانياً، قد فعل ذلك حتى يذيع صيته وتخلد ذكراه. لذلك وعلى الرغم من فعله الخير إلا أنه قد قام بهذا بطريقة ناقصة، ونسى أن الرب لا يجازي الإحسان ببساطة، لكنه يجازي الإحسان الذي يتم كما ينبغي. والأعمال الصالحة تكون في النية الصالحة، وبما أن نية المندوب غير سليمة، فإنه لم ينزل الجزاء الذي كان يتوقعه.

- وأنت سيدى الكوندى لوكانور، تطلب مني النصيحة، وأنا أنصحك بفعل الخير ما دمت حياً. ولكي تجازى عنه بالخير أنصحك أولاً أن تبادر إلى إصلاح ما أفسدت، فلن ينفعك في شيء سرقة الكبش ومن ثم توزيع لحمه في سبيل الرب. فما أقل منفعتك من سرقة تتصدق بها فيما بعد. فلكي تكون الصدقة حقيقة ونافعة ينبغي أن تتوافق على شروط خمسة: الأول منها، أن تكون من أملالك شرعاً؛ والثانى أن تتم والإنسان في توبة صدوق؛ والثالث أن يكون مقدارها لا ينقص مما لدى البشر؛ والرابع أن تمنح الصدقة والإنسان على قيد الحياة؛ والخامس أن تعطى في سبيل الرب بلا فخر ولا تبجح. فإذا تحققت هذه الشروط الخمسة، تصبح كل الصدقات وأعمال الإحسان كاملة، وينال صاحبها الجزاء الحسن. ولكن إن لم تقدر على العمل بهذا لأى سبب من الأسباب، فليس عليك أن تترك الصدقة بدعوى أنها لن تعود عليك بالنفع لعدم استيفائها أحد هذه الشروط، وإلا لكان ما تقوم به من الحماقة والشك برحمة الرب. فالإحسان يبقى خيراً مهما كان، وأعمال الخير تدفع المرء إلى الخروج من المعصية والتوبة، وتعود على جسده وشرفه ومalleه وسمعته بالخير. لهذا فالعمل الصالح ينفع دائماً، ولكن من الأفضل أن تجتمع فيه الشروط الخمسة التي ذكرتها لك.

وما أن رأى الكوندي أن ما ذكره باترونوي هو الحق بعينه، فقد قرر أن يتبع رأيه ودعا الرب كي يساعده على التصرف على هذا النحو.

وما أن رأى دون خوان في هذا مثالاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

إذا شئت كسب المجد
فاعمل الخير صارقاً في الحياة.

مثال 41

⁵⁰ ما جرى لملك قرطبة الملقب بـ الحكم

تكلم الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- باترونبيو، تعلم أني صياد كبير وقد ابتكرت حيلاً جديدة في فن القنص لم يسبقني إليها أحد. فقد أدخلت مثلاً التحسينات على قيود الصقور وغماز.⁵¹ ويحاول البعض من خصومياليوم أن يهزوا مني بهذا الشأن، فعندما يمتحنون السيد روبي ديات أو الكوندي فرنان غونثالث على المعارك التي انتصروا فيها، أو الملك السعيد المجل فرناندو على فتوحاته، يمتحنوني أنا، بأنني قد حققت النصر الأكبر يوم ابتكرت القيد والغماز لطهور القنص. وبما أنه مدح يضمرا الإساءة لي، أرجو منك أن تشير عليّ بما ينبغي فعله حتى لا يضيقونني بسبب ابتكارات ناجعة مثل هذه.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- لكي تعرف ما ينبغي فعله، أرجو أن تسمع مني ما جرى لمسلم كان ملكاً على قرطبة.

فسألته الكوندي عما جرى له.

- سيد الكوندي- قال باترونبيو- كان في قرطبة ملك يدعى الحكم. وعلى الرغم من سيادة السلام والأمان في مملكته أثناء حكمه، إلا أنه لم يجهد نفسه في تخليد ذكره واكتساب السمعة الطيبة التي ينبغي للملوك الحقيقين إلا يكتفوا فيها بما ورثوه، بل عليهم أن يسعوا إلى زيادتها بالسبل الشرعية، وأن يبذلوا قصارى جدهم كي يستحقوا هذا المديح والإطراء، ويخلد اسمهم بعد الموت بفضل ما قاموا به من أعمال عظيمة. لكن الحكم كان غافلاً عن كل ما يجري من حوله، وتفرغ لمنع الحياة من راحة وأكل.

وحدث ذات يوم، وكان منشراً، أن عزف أمامة أحد العازفين باللة يحبها المسلمين جداً وهي تلك المسماة بالبوق.⁵² فلاحظ الملك أن صوت البوق لم يكن صافياً فأخذه من العازف وزاده ثقباً أسفل التقوب الأخرى. فتحسن صوت البوق. وكان ابتكاراً رائعًا في حد ذاته إلا أنه من توافقه الأمور بين الملوك، لذلك راح الناس يمتحنونه بسخرية، وأصبحوا يرددون «وهذه زيادة الحكم»⁵³ على أي شيء يمتحنوه. وراجت تلك العبارة وانتشرت بين السكان حتى وصلت إلى مسامع الملك، فسأل عن معناها. وعلى الرغم من امتناعهم في البداية عن الإفصاح له عن معناها، إلا أنه أجبرهم حتى أخبروه ما تعني.

ما أن سمع ذلك حتى غضب بشدة، لكنه كتم غيظه ولم يشا، وهو الملك العادل، معاقبة من يتقوه بمثل هذه العبارة، بل عزم على التفكير في ابتكار آخر يرغم الناس على إطرائه عن جداره. فكان أن عمد إلى إتمام المنقوصات في جامع قرطبة وأضاف إليه كل ما يخصه حتى أتمه. وصار ذلك الجامع من أجمل وأوسع مساجد المسلمين في إسبانيا، وهو اليوم، بمحاركة الرب، قد تحول إلى كنيسة تدعى سانتا ماريا دي قرطبة، وذلك بعد أن استردها الملك المقدس دون فرناندو من أيدي المسلمين.⁵⁴

عندما أكمل الملك منقوصات الجامع وأضاف إليها تلك الزيادة الموفقة، قال في نفسه إن الناس سيتدحونه اليوم على زياته في الجامع بعد أن كانوا يمتدحونه على زياته في البوق. وبالفعل، فقد لقي من الإطراء والمديح الكثير حتى أن تلك العبارة الساخرة تحولت إلى إطراة حقيقي. وما زال المسلمون حتى اليوم عندما يريدون امتداح شيء، يقولون «هذه زيادة الحكم».

وأنت سيد الكوندي، إذا كنت غاضباً لأنك تجد سخرية في امتداح ما أضفته إلى القيد والغباء وبقية التحسينات التي أدخلتها على فن القنصل، فحاول أن تبتكر أشياء عظيمة، لا يقدر عليها سوى العظام. حينئذ لن يجد الناس بدأً من امتداح ما تعلمه بكل صدق، على النحو نفسه الذي يمتدحون فيه ابتكاراتك اليوم بسخرية.

رأى الكوندي أنها نصيحة جيدة فعلّم بها وسارت أمره على خير ما يرام.

وما أن رأى دون خوان في هذا مثلاً طيباً، حتى أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

إذا فعلت شيئاً
ولم يكن بالأمر الهام،
فاعمل ما استطعت
عملاً كبيراً لا يموت.

مثال 42

ما جرى لامرأة مدعية الإيمان⁵⁵

ذات مرة تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو- لقد تحدثت مع البعض وتساءلنا ما أسوأ ما يفعله الشرير ليتسبب بأكبر قدر من الضرر للآخرين. فقال بعضهم إن أسوأ الأعمال هي تلك التي تزرع الفتنة والتمرد، وقال بعضهم هو التخاصم مع كل الناس، وقال بعضهم إنه القتل والسلب، وقال بعضهم هو ذلك الذي يسعى بالنعمة وسوء الحديث. وبما إنني أعلم برأيك السديد، فأرجو أن تقول لي رأيك في هذا الشأن.
- سيدى الكوندي- قال باترونيو- لكي تتبين هذا الأمر بوضوح، فأود أن تعرف ما جرى للشيطان مع امرأة تدعى الإيمان.

فسأله الكوندي عن ذلك.

- سيدى الكوندي- قال باترونيو- عاش في إحدى القرى فـى طيب جداً، وكانت علاقته بزوجته على خير ما يرام، وكانا متفاهمين ويسود الوئام بينهما. وكان الشيطان غاصباً منها لكراهيته الخير، لكنه عجز عن إثارة الخلاف بينهما على الرغم من محاولاته الكثيرة.

وبينما كان الشيطان عائداً من تلك القرية ذات يوم، حزيناً لفشلها، التقى في طريقه امرأة مؤمنة. وبعد أن تعارفاً سأله عن أسباب تعاسته. فقال لها الشيطان إنه قادم من موضع يعيش فيه زوجان، وهو منذ فترة طويلة يحاول أن يفرق بينهما دون نجاح يذكر، وإن رئيسه قد علم بفشلها بعد مرور وقت طويل، وقد فقد منزلته عنده، لذلك يمضي في طريقه حزيناً.

قالت له المرأة إنها مندهشة من فشله على الرغم مما تعرفه عنه من علم، وأضافت أنه لو اتبع نصيحتها فسوف يحقق مراده بلا شك.

قال لها الشيطان إنه على استعداد لفعل ما تريده منه لكي ينجح بإحداث الشقاق بين الزوجين. واتفقا على ما يجب فعله.

وتوجهت المرأة مداعية الإيمان إلى بيت الزوجين. وكانت قد بذلت جهدها يوماً بعد آخر كي تقنع الزوجة بأنها مدينة لها بالخدمة لأنها كانت قد تربت في بيت أمها، إلى أن اقتنعت الزوجة الطيبة وسمحت لها بدخول بيتها وسلمتها أمور البيت. ووثق بها الزوج أيضاً.

بعد وقت طويل وهي معهما في البيت، وقد فازت بثقتهما، قالت للزوجة وقد بدا عليها الحزن الشديد:

- بنبيتي، يحز في نفسي أن أسمعك هذا، فقد تناهى إلى أن زوجك يعيش امرأة أخرى. لذا أرجو منك وأنصحك بأن تعامليه بحنان أكبر حتى لا يقع في حبائل امرأة أخرى غيرك، فتلك أكبر المصائب التي قد تقع لك.

ما أن سمعت الزوجة الطيبة هذا الكلام، حتى خنقها الحزن، مع ذلك لم تصدقه كل التصديق. وحين رأت المرأة مداعية الإيمان حزنها، خرجت مسرعة لتعترض طريق عودة الزوج وقالت له إنه من المحزن أن تكون له زوجة طيبة مثل زوجته ويقع في حب امرأة أخرى، وأعلنته بمعرفة زوجته بذلك الأمر فحزنت كثيراً، وقالت له ما دام قد فعل ذلك، على الرغم من حرصها على سروره، فإنها ستبحث بدورها عن رجل آخر يقدّرها ويحبها أكثر. وكانت أن ترجمته المرأة النمامية ألا يخبر زوجته بما قالته له، فلو عرفت به ستموت في الحال.

عندما سمع الزوج كلامها حزن جداً وإن لم يصدقه تماماً. ثم إن تلك المرأة مداعية الإيمان أسرعت إلى البيت قبل وصول الزوج، لتقول للزوجة متظاهرة بالأسى:

- بنبيتي لا أعرف ما هذه المصيبة التي حلّت بك، زوجك غاضب جداً، وسترين الآن أن ما أقوله صحيح، فسيدخل غاضباً وحزيناً على غير عادته.

وكان أن تركتها منشغلة بهما وذهبت إلى حيث الزوج وأعادت عليه الكلام نفسه الذي قالته للزوجة. وعندما وصل الزوج إلى البيت وجد زوجته مكهرة الوجه ولم يسرهما اللقاء وازداد قلقهما. عندما خرج الزوج، قالت المرأة مداعية الإيمان للزوجة الطيبة إنها لو شاءت لطلبت لها من يعمل سحراً لزوجها ليخلصه من أعراضه تلك. وافقت المرأة الطيبة بكل سرور على اقتراحها لأنها كانت راغبة في عودة الوئام لحياتها الزوجية.

بعد أيام عدة عادت المرأة وأخبرتها بأنها قد عثرت على رجل حكيم أكد لها أنها لو أحضرت له شعيرات من لحية الزوج، تلك التي تنبت عند الحنجرة، فسيقوم بتحضير سحر يخلص زوجها من غضبه، ويعود للعيش أفضل مما كان قبل اليوم، وكل ما عليها هو أن تحتمل عليه لكي ينام الزوج في حضنها وأعطيها سكيناً ليساعدها كي تتمكن من نزع تلك الشعيرات.

كانت المرأة الطيبة حزينة جداً وذلك لحبها لزوجها، ومهمومة للخلاف الذي نشب بينهما، وتتنمى لو تستعيد سعادتها السابقة، لذلك وافقت فوراً ولم تتردد بأخذ السكين الذي جلبته المرأة مدعية الإيمان.

عادت المرأة المدعية سريعاً إلى حيث الزوج وقالت له إنها قد سكتت عن كل شيء قبل ذلك لكنها لن تقبل أبداً أن يتم تدبير حيلة لقتله، لذلك فإنها لا تستطيع التغطية على خطط زوجته. وأخبرته بأنها تنوى قتلها للهروب مع عشيقها. كما قالت له حتى يتتأكد من كلامها فقد تفاهمت الزوجة مع العشيق بأنها ستذبح الزوج عندما يعود إلى البيت، وستقطع له رقبته بالسكين ما أن يغفو في حضنها.

عندما سمع الزوج هذا الكلام اندهش كثيراً. وكان قد اغتنم كثيراً من أكاذيبها السابقة، لكن قلقه كبير الآن وقرر الحذر من كل شيء حتى يتتأكد بنفسه من أقوالها. وكان أن رجع إلى البيت.

ما أن رأته الزوجة حتى رحبت به واستقبلته أحسن من الأيام السابقة وسألته لماذا يجهد نفسه دائماً ولا يستريح قليلاً. ثم طلبت منه أن يستنقق في حجرها كي تقللي له رأسه.

عندما تأكد الزوج مما قالته له تلك المرأة المدعية ولكي يمتحن زوجته، فقد وافق على الاستبقاء في حجرها وتظاهر بالنوم حتى يرى ما ستفعله الزوجة. عندما ظنت الزوجة أنه قد نام فعلاً، أخرجت السكين لقص بعض شعيرات لحيته كما طلبت منها زائفة الإيمان. ما أن رأى الزوج السكين قريبة من حنجرته وتأكد أنها تريد ذبحه، نزعها من يدها بسرعة وذبحها بها. أثار الصراخ أهل المرأة فهرعوا لنجاتها، ولما وجدوها مذبوحة وما كانوا قد علموا عنها شيئاً، هاجموا الزوج وقتلواه.

على الصراخ نفسه، جاء أهل وأقارب الزوج، وعلى الشاكلة نفسها قتلوا قاتليه. وكان أن عظمت الفتنة في تلك البلدة حتى مات بشر كثيرون من سكانها.

وقد حدث كل ذلك بسبب أكاذيب تلك المرأة مدعية الإيمان. لكن بما أن الرب يمهد ولا يهمل ولا يستر السوء ولا يدع أهل الشر بلا عقاب، فقد أرادت مشيئته أن يفتش أمر مدعية الإيمان، ليخموها عليها بميّة شنيعة.

وأنت سيدи الكوندي لوكانور، إذا رغبت في معرفة من هو أكثر شراً من البشر في هذه الدنيا ومن يلحق الأذى بالناس، فلتكن على يقين بأنه ذلك الذي يتظاهر بالقوى والولاء والإخلاص، بينما يضمر في السر النوايا السيئة ويلفق الأكاذيب القادرة على تقويق الناس والفتنة بينهم. كما أنصحك بأن تحترس كثيراً من يبالغ بإظهار التقوى، إذ إن أغلبهم قائم على الخديعة. ولتدرك ذلك تذكر ما جاء في الإنجيل من نصيحة «*A frēcutibus corum cognoscetis eos*» التي تعني «تعرفونهم من أعمالهم». ⁵⁶ والحقيقة أنه لا أحد في الدنيا قادر على إخفاء ما في نفسه، وحتى لو نجح في ذلك بعض الوقت لكنه لن يدوم طويلاً.

ورأى الكوندي أن ما قاله باترونيو صائب جداً، فعزم على الأخذ به، ودعا الرب أن يحفظه وصحبه من شر الأعمال.

ووجد دون خوان في هذا مثالاً طيباً، وأمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

فَكِرْ بِالْأَعْمَالِ لَا بِالْمُظَاهِرِ
فِيمَا لَوْرَغِبَتِ النَّأْيِ عَنِ الشَّرُورِ.

مثال 43

ما جرى للخير مع الشر
وللعاقل مع المجنون

تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو ذات مرة قائلاً:

- باترونبيو، لي جaran، أعز أحدهما كثيراً وينبغي لي أن أعزه لما بيننا من أسباب لذلك، لكنه في أحيان كثيرة يقوم بعمل أشياء تضرني ولا أعرف السبب. أما الآخر، فلا صدقة لي معه ولا مودة ولا أسباب لدينا لذلك وهو أيضاً يقوم بأشياء لا تعجبني. وبما أنني أعرف رجاحة عقلك، فأود أن تقول لي ما علىي أن أفعله معهما.

- سيدى الكوندي لوكانور- أجاب باترونبيو- ما تسائلني عنه ليس أمراً واحداً فحسب، بل أمران مختلفان بينهما تمام الاختلاف. ولكي تقوم بما يوافق مشيئتك، أتمنى أن تعرف ما جرى للخير مع الشر وما جرى للعاقل مع المجنون.

فرجاه الكوندي أن يحكي له ذلك.

- سيدى الكوندي- قال باترونبيو- بما أنهما قستان لا يمكن الجمع بينهما، فسأحكي أولاً ما جرى للخير مع الشر، وبعدها ما جرى للرجل العاقل مع المجنون.

سيدى الكوندي، اتفق الخير والشر على العيش معاً. فقال الشر الذي لا يستقر على حال ولا يكتفى بالخوض في كل مسألة شائكة من أجل الخديعة والأذى، قال للخير إن عليهما أن يشتريا قطبيعاً من الماشية ليرتزقا منه. أعجبت الفكرة الخير فوافقه واتفقا على تربية الأغنام.

عندما ولدت الشياه قال الشر للخير إنه من الأفضل أن يختار كل واحد منهما حصته.⁵⁷ لم يشأ الخير أن يسبقه بالاختيار وطلب من الشر أن يختار هو أولاً. لم ينظر الشر الماكر وقد فرح بذلك، أن يلح عليه بالسؤال، واقتصر على الخير أن يأخذ الخراف وأخذ هو الصوف والحليب. فوافق الخير على القسمة.

بعد ذلك اقترح الشر على الخير أن يقوما بتربية الخنازير، فوافقه على اختياره. وعندما ولدت، قال الشر للخير إنه في المرة السابقة قد أخذ الخراف وأخذ هو الصوف والحليب، ومن العدل الآن أن يأخذ الخير حليب الخنازير وصوفها ويأخذ هو الخنازير. فتم الأمر كما قاله.

ثم اقترح الشر على الخير أن يزرعوا خضروات. فزرعوا لفتاً. وعندما نما، قال الشر للخير إنه لا يعرف ما تحت التراب، لذلك اقترح كرماً منه وتتساذاً أن يحصل الخير على ما هو ظاهر من اللفت، ويكتفي هو بما تحت التربة. فوافق الخير. وبعدها زرعوا ملفوف الكرنب. وعندما نما قال

الشر إنه في المرة السابقة أخذ هو ما كان ظاهراً من اللفت، ومن العدل الآن أن يقوم بالعكس من ذلك مع الكرنب، فأخذ الخير ما تحت التربة. فعل الخير ما قاله له.

بعد وقت ليس بالطويل، قال الشر للخير إن عليهما البحث عن امرأة لخدمهما. فرأى الخير صواب ما قاله. وعندما عثرا على المرأة، اقترح الشر أن يكون للخير منها لما فوق الخاصرة وأن يكون له النصف المتبقى. وافق الخير على القسمة وكان جزءه يعمل بما يلزم الاثنين، بينما كان جزء الشر متزوجاً بنصفه ويلزمه أن ينام معه.

عندما حبت المرأة وولدت ولداً وأرادت أن ترضعه، منعها الخير قائلاً إن اللبن يقع في جهته وهو لا يسمح بذلك. وعندما جاء الشر مسروراً لرؤيه زوجته، وجدها تبكي. وما أن سألاها عن السبب حتى أخبرته بأن ابنها لا يستطيع الرضاعة. وأمام تعجبه، شرحت له الأم أن الخير لا يسمح لها بذلك لأن الثديين يقعان في جهته. فتوجه الشر ناحية الخير وطلب منه ضاحكاً كأنه يمزح أن يسمح لابنه بالرضاعة. قال له الخير إن اللبن في جهته ولن يسمح له. تالم الشر وترجمه أن يسمح له بذلك. عندما رأى الخير مقدار تالمه قال له:

- صديقي، لا تظن أني لم أنتبه لفارق بين تلك الأجزاء التي كنت تعطيني وتلك التي تبقيها لنفسك. وأنا لم أطلب منك شيئاً من قسمتك إطلاقاً. بل دائماً ما اكتفيت بما عندي دون مساعدة منك. وإذا كان رب قد أراك إلى، فلا تعجب إذا منعته عنك، بل تذكر ما فعلته معه وتتألم منه مقابل ذلك.

حين سمع الشر تلك الحقيقة الدامغة، وأدرك أن ابنه سيموت لامحالة، زاد ألمه وترجى الخير أن يرحم الوليد لوجهه، وأن ينسى شروره، ووواده بأن يفعل له كل ما يريد منه.

عندما سمع الخير ذلك الكلام، أدرك أن رب قد فضلته كثيراً بأن وضع نجاة ابن الشر على ما يوجد به من خير، تمنى لو ينفع ذلك بصلاحه. لذلك قال له إنه لو أراد أن يسمح للمرأة بإرضاع ابنه، فعليه أن يخرج إلى الشارع حاملاً ولدته بين يديه ومعلنًا بصوت مرتفع كي يسمعه الملا: «أيها الصحاب، اعلموا أن الخير ينتصر على الشر بواسطة الخير». راق الاقتراح للشر مقتعاً بأنه قد اشتري حياة ولدته بثمن جيد. واعتقد الخير أنه إصلاح لا بأس به. وهكذا عرف الجميع أن الخير غالب دائمًا.

أما ما جرى للرجل العاقل مع المجنون، فحدث بشكل مختلف:

فقد كان للرجل الطيب حمام، وكان المجنون يدخل الحمام ويقوم بضرب الزبائن بالجراد والأحجار والعصي وكل ما تطاله يده حتى امتنع الناس عن دخول الحمام. فخسر الرجل الطيب أرباحه.

فلما رأى ذلك جاء مبكراً ذات يوم ودخل الحمام قبل أن يصل المجنون. تعرى من ملابسه وتناول جردن ماء ساخن وهرأوة كبيرة. وحين وصل المجنون إلى الحمام ليقوم بضرب المستحبين كالعادة، استقبله الرجل الطيب بحقن كبير وهو عار تماماً، ومن ثم أفرغ جردن الماء الساخن على رأسه وهو عليه بالهرأة، على رأسه وفي كل شبر من جسده حتى ظن أن المجنون قد فطس، وكان أن ظن المجنون أن الرجل الطيب قد فقد عقله هو الآخر.

فخرج من الحمام وهو يصرخ صراخاً قوياً، فصادف رجلاً سأله عن سبب صرائحة وشكواه، فقال له المجنون:

- صديقي، احذر الدخول إلى الحمام فهناك مجنون آخر.

وأنت سيد الكوندي لوكانور، عليك أن تتصرف بمثل هذا مع جاريك. فعامل جارك الذي تجمعك وإياه صدقة قوامها البر والإحسان، حتى لو تسبب لك ذلك في بعض الأضرار، استضفه إذا زارك وساعدك على حاجته وافهمه أنك تقوم بذلك للصدقة والمودة التي بينكما وليس امتناناً. أما الثاني الذي لا تجمعك به أي صدقة مثل الجار الأول، فلا تتحمل منه أي شيء، وبين له أنه ستتجاوز بكل شيء لتنقم من أي ضرر يفك في أن يلحقه بك. فصديق السوء لا يحافظ على صداقته إلا خوفاً أو رهبة أو لسبب آخر.

رأى الكوندي صواب هذه النصيحة واتبعها فسارت أمره على خير حال.

كما رأى دون خوان فيهما مثالان جيدان، وأمر بتدوينهما في هذا الكتاب. وكتب فيهما هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

رجل السوء صبره قليل،
ما دام الخير غالب أبداً.

مثال 44

ما جرى للسيد بيذرو نونيث الوفي وللسيد روبي غوشايلث ثيبايوس
58 وللسيد غوتيري رويث بلاغيُو مع الكوندي رودريغو الصربي

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باتروننيو قائلاً:

- باتروننيو، في إحدى المعارك كدت أفقد فيها كل ما أملك. وعندما كنت بأمس الحاجة، بعض من أولئك الذين رببتهم وأحسنت إليهم تخلوا عنِّي وألحقوا بي أضراراً بالغة. وجراء ذلك لم أعد أتأمل خيراً وبدأت أفقد الثقة في الناس جميعاً. وبما أنَّ رب قد أنعم عليك برجاحة العقل، أتمنى عليك أن تصحي بما يجب عليَّ أن أفعله.

- سيدِي الكوندي- قال باتروننيو- لو كان أتباعك الذين سلكوا مسلكاً سيئاً معك مثل السيد بيذرو نونيث الوفي وللسيد غومث ثيبايوس وللسيد غوتيري رويث دي بلاغيُو أو على الأقل على معرفة بما جرى لهؤلاء، لما أقدموا ما أقدموا عليه.

وسائل الكوندي عما جرى في هذا الأمر.

- سيدِي الكوندي- قال باتروننيو- كان الكوندي رودريغو الصربي متزوجاً من سيدة هي ابنة السيد خيل دي ثاغرا، وكانت امرأة صالحة، واتهمها زوجها الكوندي زوراً وبهتاناً. فشكت حالها للرب ودعته صادقة أن ينزل معجزة من لدنه حتى يتبين من فيهما المخطئ زوجها أم هي.

وما أن انتهت من صلاتها حتى حصلت معجزة الرب وابتلى زوجها الكوندي بالجذام. فافترقت عنه الزوجة. وبعد وقت قصير بعث ملك نابارا رسلاه إلى السيدة ليطلبها للزواج، فصارت ملكة على نابارا.

ولما لم يجد الكوندي علاجاً لجذامه، قرر أن يحج إلى الأرضي المقدسة، ليموت براحة هناك. وعلى الرغم من أنه كان ثرياً وله العديد من الخدم والتابعين، إلا أنه لم يرافقه في سفره سوى أولئك الفرسان الثلاثة الذين ذكرت لك أسماءهم. ولبثوا هناك زمناً حتى نفذت أموالهم وأصابهم الفقر

ولم يجدوا ما يطعمون به سيدهم الكوندي. وعندما اشتد عليهم العوز قرر اثنان منهم أن يعملا كل يوم، في حين يبقى الثالث مع الكوندي ليعتني به. وقد كان يكفيهم ما يتقاوضونه من أجر لتحصيل قوت يومهم. وكل ليلة كانوا يغسلون الكوندي ويطهرون فروحه الناجمة عن الجدام.

وحدث ذات ليلة بينما كانوا يغسلون للكوندي قدميه، أن شعروا بحاجة للبصاق فبصقوا معاً فظن الكوندي، وقد رأى ثلاثتهم يفعلون الشيء نفسه، إنما يبصقون تفرزاً منه، فبكى حظه العاشر. ولكي يبرهنوا له أنهم لم ينفروا من مرضه، أخذوا بأيديهم تلك المياه الممتلئة بالصديد وفشور القروح وشربوا منها مقداراً كبيراً. وعاشوا مع الكوندي مادام حياً حتى قضى نحبه.

وطالما كانوا يعتقدون أنه من العار العودة إلى قشتالة دون سيدهم ميتاً أو حياً، فقد رفضوا التخلي عن جثمانه. وكان أن نصحهم البعض بحرقه وحمل العظام معهم، لكنهم ردوا عليهم بأنهم لن يسمحوا لأحد بأن يمس سيدهم حياً كان أم ميتاً. ولما رفضوا كل ذلك، قرروا دفنه حتى تفسخ جسده، فأخذوا عظامه وحملوها معهم في صندوق يحملونه بالتناوب على ظهورهم. وعادوا على ذلك النحو يطلبون الصدقة في الطريق وهم يحملون بقايا سيدهم مع شهادة ذكروا فيها كل تفاصيل الأحداث التي جرت لهم في الأراضي المقدسة.

وكان أن وصلوا إلى أراضي تولوز وهم يشعرون بالسعادة على الرغم من الضائقه. وعندما دخلوا إحدى المدن، وجدوا الناس يعدون العدة لحرق امرأة نبيلة اتهمها شقيق زوجها بالخيانة. وقد قيل لهم إنه إذا لم يتقدم أي فارس ليقاتل دفاعاً عن شرفها فلن يكون نصبيها سوى الحرق، وتلك كانت من عاداتهم، ولم تكن السيدة قد وجدت من يدافع عنها حتى تلك اللحظة.

عندما رأى السيد بيبرو نونيث الوفي والفارس النبيل أنهم سيحرقون تلك السيدة لعدم تقدم أي فارس لنجاتها، قال لرفيقه إنه لو تيقن من براءتها لدافع عنها بنفسه. وذهب إلى حيث المرأة وسألها عن حقيقة الأمر. فأخبرته بأنها لم ترتكب ذلك الجرم الذي يتهمونها به، وإن اعترفت لهم بأنها قد اشتهرت فعله. وأدرك السيد نونيث أنها كانت على نية بارتكاب الإثم وذلك يعني أنه لا بد أن يصيبه ضرر في المبارزة، ولكن بما أنها لم تتبع النية بالعمل، فقد قرر أن يدافع عنها.

عندما سمع متهموها قراره حاولوا أن يثنوه عن فعلته بدعوى أنه لم يكن فارساً، لكنه أراهم الشهادة المكتوبة التي جاءوا بها، فاضطروا للموافقة عليه كمباز. فزوده أهل المرأة بفرس وسلاح،

و قبل أن يدخل الميدان قال لهم إنه يدعوك أنت يا رب بإنقاذ المرأة، ولكن بما أنها اشتهرت بارتكاب المعصية، فهو واثق من أن ضرراً سيصيبه. وكان أن نصر الرب السيد بيبرو نونيث في قتال خصميه وأنقذ المرأة، لكنه فقد إحدى عينيه في المعركة، فتحقق ذلك توقعاته.

ودفعت السيدة وأهلها الكثير من الأموال للسيد بيبرو نونيث مما سهل عليه ورفاقه سفرهم وعودتهم محملين بعظام سيدهم الكوندي. وعندما وصل الخبر إلى ملك قشتالة وكيف عاد أولئك الفرسان على أقدامهم رفة عظام الكوندي، فرح كثيراً وحمد الرب أن في مملكته رجال بهذه المواصفات. وبعث يأمرهم القodium أمامه مشياً على الأقدام وباللباس نفسه كما فعلوا في مسیرهم من الأرضي المقدسة. ولما حان يوم وصولهم إلى حدود مملكة قشتالة، خرج لاستقبالهم بنفسه ومشي على قدميه خمسة فراسخ بعيداً عن الحدود، وخلع عليهم من العطايا ما كفاهم في حياتهم وأبنائهم من بعدهم.

ورافق الملك وحاشيته والفرسان الثلاثة عظام الكوندي حتى منطقة أوسماء ودفنوها هناك.
وبعد الدفن مضى كل فارس إلى بيته.

عندما وصل روبي غونثالث إلى بيته وجلس مع زوجته إلى المائدة، رفعت الزوجة يديها إلى الأعلى وهي تنادي الرب:

- تبارك الله أنت تحت لي أن أشهد مثل هذا اليوم، فأنت تعلم أنه ومنذ خروج السيد روبي غونثالث من هنا لم أكل لحمًا ولا شربت النبيذ أبداً.

تأسف السيد روبي غونثالث كثيراً وسألها عن سبب ذلك. فأجابته بأنه يعلم جيداً ما قاله لها يوم مغادرته مع الكوندي إنه لن يعود دونه ونصحها أن تحيا بشرف مع وعده بـ لا تعود في بيتها الخبز والماء. ولأنه قال لها ذلك، لم تر أي داعٍ للخروج بما أمر به، فلم تأكل طوال غيابه غير الخبز والماء.

ذلك عاد السيد بيبرو نونيث إلى بيته، وما أن بقي وحيداً رفة زوجته وأقربائها، راحوا يضحكون جميعاً من السعادة. لكن بيبرو نونيث ظن أنهم يضحكون سخرية منه لفقد إحدى عينيه، فكان أن غطى رأسه بغطاء واضطجع حزيناً في فراشه. ولما رأته زوجته الطيبة على هذه الحال من الحزن، اغتمت وألحت عليه كثيراً حتى أخبرها بأنه حزين لأنه رآهم يضحكون من عوره.

عندما سمعت السيدة الطيبة كلام زوجها، ففاقت إحدى عينيها بالإبرة وأخبرت السيد بيبرو نونيث أنها فعلت ذلك حتى لا يتصور، فيما لو ضحكت ذات مرة، بأنها تضحك منه لعوره.

وهكذا جازى الرب أولئك الفرسان على ما فعلوه من أعمال حسنة.

لذلك أنا على يقين من أن الذين تصرفوا معك بسوء لو كانوا مثل أولئك أو علموا ما ناله الفرسان من خير لإخلاصهم وولائهم لسيدهم، لسلكوا مسلكاً آخر. لكن لا ينبغي لك سيدي الكوندي أن تهجر فعل الخير لأن بعضَّا منهم يسيء إليك، فهو لا يضرُّون أنفسهم أكثر مما يضرُّونك. وتذكر أنه إذا أساء بعض الناس، فالكثيرون يحسنون، وخدمة الطيبين نفعتك أكثر مما أضرتك أفعال الأشرار. وقد لا يجازيك كل الناس الذين تكرمنهم وتحميهم، لكن قد يرد لك أحد هم الجميل فيكون خيرك قد أتى بثماره.

رأى الكوندي أنها نصيحة صائبة وحقيقة.

كما رأى دون خوان فيه مثالاً جيداً، وأمر بتدوينه في هذا الكتاب. وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

لا تدع فعل الخير
حتى لو جازاك بعضهم بالسوء.

مثال 45

ما جرى لرجل
جعل من نفسه صديقاً وتابعًا للشيطان

تحدى الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باتروننيو قائلاً:

- باتروننيو، يخبرني أحد الرجال بأن له طرقه لمعرفة ما سوف يحدث في المستقبل، عن طريق أعمال السحر وقراءة الطالع، وقد عرض عليّ خدماته إذا ما رغبت في الانتفاع بها. لكنني

أخشى أن أقع في الخطيئة. ولنقتني بك أرجو منك أن تخبرني رأيك فيما يجب أن أفعله.

- سيدى الكوندي- قال باترونوي- حتى تعرف ما يوافق خيالك، لا بد أن تعرف أولاً ما جرى لأحدهم مع الشيطان.

فسأله الكوندي حول ذلك الأمر.

- سيدى الكوندي- قال باترونوي- أصيّب رجل ثري بالفقر والعوز حتى لم يجد ما يسد به رمقه. وليس هناك مصيبة في الدنيا أشد من الفقر بعد الغنى، لذلك فقد تغير مزاج ذلك الرجل وغلب عليه الحزن والقنوط لما صارت عليه أموره.

ذات يوم وبينما كان يسيراً في الجبل وحيداً ومهموماً حزيناً، فإذا به يجد نفسه وجهاً لوجه مع الشيطان. وكان الشيطان على معرفة جيدة بما جرى للرجل، مع ذلك سأله عن سبب أحزانه. فرد الرجل بأنه لا جدوى من أن يحكى له ما دام لا يستطيع أحد مساعدته. فأجابه الشيطان بأنه لو خضع له وأطاعه سوف يمنحة العلاج اللازم لهمومه، ولكي يبرهن له على قدراته، قال له إنه يعرف ما يفكّر فيه الآن وعلى معرفة بأسباب حزنه. وحكي له حكاياته وأخبره سبب حزنه. وقال له أيضاً أنه لو أطاع أوامرها فهو على استعداد لتخلصه من فقره ويرجعه أغنی من كل سلالته، لأنّه هو الشيطان ولن يعجز عن تحقيق ذلك.

خاف الرجل عندما سمعه يقول إنه هو الشيطان، ولكن أجابه، وهو ما عليه من عوز وأسى، أنه لو أعاده إلى ثرائه، سوف يفعل كل ما يطلبه منه.

لاحظ يا سيدى كيف أن الشيطان يختار أفضل الأوقات ليخدعنا: عندما يقع البشر في الضيق الشديد أو الفشل، أو حين يكونون فريسة خوف أو رغبة ملحة، فالشيطان يحصل على كل ما يريد، وهكذا بحث عن وسيلة لخداع صاحبنا عندما رأه مهموماً حزيناً.

عندئذ عقد الاثنان عهداً بينهما، وقبل الرجل أن يكون تابعاً للشيطان. ولما تم بينهما ذلك، أمره الشيطان أن يمارس السرقة منذ تلك اللحظة، فلن يستعصي عليه باب ولا بيت إلا وفتحه، وإذا ما أصبح في خطر وتم زجه في السجن، فما عليه سوى أن يناديه قائلاً: «أنفذني يا سيد مارتين» وسوف يسارع فوراً لنجاته. وافترقا على هذا الاتفاق.

ومع حلول الظلام قصد الرجل بيت أحد التجار، ومن بيبيت الشر يكره النور، لكنه ما أن وصل إلى البوابة حتى فتحها له الشيطان، ثم فتح له الخزائن، فتمكن من سرقة أموال طائلة.

في اليوم التالي قام بسرقة كبيرة، وفعل الشيء نفسه في اليوم الذي يليه، وهكذا بلا عدد، حتى اغتنى ونسى أيام الحاجة والفاقة التي مر بها. لكن التعيس لم يقنع بخروجه من الفاقة واستمر في سرقاته. سرق الكثير حتى انتهى به الأمر إلى الحبس. فنادى على السيد مارتين، وكان أن حضر السيد مارتين مسرعاً وخلصه من الحبس. ولما رأى الرجل أن السيد مارتين قد وفى بعهده، عاد للسرقة من جديد، فسطا على أموال هائلة وصار بفضلها من الأثرياء.

في إحدى السرقات سُجن مرة أخرى، فنادى على السيد مارتين ولم يأت بالسرعة التي توقعها. إذ تأخر حتى بدأ قضاة الناحية التي وقعت فيها السرقة في تحرياتهم. وعندما حضر السيد مارتينأخيراً، قال له الرجل:

- آه يا سيد مارتين، لقد جزعت جزاً شديداً! ولكن لماذا تأخرت بالقدوم؟

أجابه السيد مارتين بأنه كان مشغولاً في أمر عاجل لذلك تأخر بالقدوم. وكان أن أخرجه من السجن حالاً. فعاد الرجل للسرقة. وبعد سرقات عدة ألقي القبض عليه من جديد، وحكم عليه القضاة بعد أن انتهوا من تحرياتهم. وبعد صدور الحكم، جاء السيد مارتين وأطلق سراحه.

ولما رأى أن السيد مارتين ينقذه من الحبس في كل مرة، فكان أن استمر في السرقة. واعتقل مرة أخرى، فناداه ولكنه لم يأت. فحكموا عليه بالموت. وما أن وصل السيد مارتين حتى تضرع للملك بشأن إطلاق سراحه، وتمكن من إنقاذه مجدداً.

عاد بعدها للسرقة وألقي القبض عليه. نادى على السيد مارتين، لكن هذا لم يحضر فحكموا عليه بالموت شنقاً. وهو أسفل المنشقة، وصل السيد مارتين، فقال له:

- آه يا سيد مارتين، ليس الأمر بمزحة! لو تعرف ما مررت به من رعب.

فقال له السيد مارتين إنه قد جلب معه قاصدة فيها خمسمائة قطعة مرابطية، وأمره أن يعطيها للقاضي حتى يخلٍ سبيله. كان القاضي قد أمر بشنقه ولم يبق سوى إحضار الحبل. وبينما كانوا

يبحثون عن الحبل، جاء الرجل وسلم القاضي القاصة. فظن القاضي أنه قد أعطاه أموالاً كثيرة، فقال للناس المجتمعين هناك:

- يا أصحاب، لا تستغربوا من عدم وجود حبل المشنقة؟ فأنا أظن أن هذا الرجل بريء وأن رب لا يريد له الموت، لذلك لم يسعفنا بالحبل. وأرى أن ننتظر حتى يوم غد لتنظر في قضيته بإمعان، فإن وجدناه مذنبًا، فلن نضيع الوقت لإقامة القصاص.

قال القاضي هذا الكلام لينفذ الرجل وقد ظن أن القاصة تحتوي على خمسمائة قطعة مرابطة، لذا تتحى جانبًا ونظر فيها ولم يجد أثراً للنقود بل حبلًا. فأمر بشنقه حالاً.

عندما وضع الجلاد أنشوطة الحبل في عنق تعيس الحال، وقعت عيناه على السيد مارتين فطلب منه أن ينقذه. لكن السيد مارتين أخبره بأنه يساعد أصدقاء دائمًا إلى أن يصلهم إلى مثل ما هو عليه الآن. وعلى تلك الحال فقد الرجل حياته وروحه بسبب ثقته بالشيطان واعتماده عليه.

لتكن على يقين تمام بأن كل من يصدق الشيطان ويثق به سينتهي به الأمر إلى سوء العاقبة. انظر كيف أن كل أولئك المؤمنين بالطالع وقارئي الحظ والعرافين وراسي الدوائر والسحراء ومن على شاكلتهم، سينتهون إلى نهاية سيئة. وإذا لم تصدقني، فلتتذكر ما آلت إليه نهاية آليار نونيث أو غارثيلاسو⁵⁹ وما اللذان صدقوا الطالع والسحر تصديقًا أعمى.

وأنت سيد الكوندي، إذا أردت أن تعيش هائلاً وتتقى روحك، فضع كل ثقتك في الله، ورجاءك فيه، وحاول ما بوسعك أن تحصل على ما يوافقك، والرب سيعينك حتماً. لكن لا تثق بالطالع والكهانة، فليس هناك من ضرر أكبر منها على البشر، وغضب الله كبير عندما يتم تصديق مثل هذا الأمور.

رأى الكوندي صواب نصيحة باترونيو فاستحسنها وسارت أمره على خير ما يرام.

كما رأى دون خوان فيها مثالاً جيداً، وأمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

مَنْ لَا يُضْعِثُ ثُقْتَهُ وَرَجَاءَهُ فِي الرَّبِّ

عاقبه بالسوء وشر ميتة سيموت.

مثال 46

ما جرى لفيلسوف دخل شارع النساء الماجنات مصادفة

تحدث الكوندي لوكانور مع باترونيو مستشاره ذات يوم قائلاً:

- باترونيو، تعلم جيداً أن على البشر أن يبذلوا قصارى جدهم لنيل السمعة الطيبة والمحافظة عليها. وأنا على يقين تام بأن لا أحد ينصحني أفضل منك في هذا الأمر والأمور الأخرى. فأرجو منك أن تخبرني عن الطريقة المناسبة التي يمكنني أن أزيد بها من سمعتي وتجنب كل ما ينال منها.

- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونيو - يروقني ما قلت، وقبل أن أنصحك، أود أن تعرف ما جرى لفيلسوف كبير وطاعن في السن.

فأسأله الكوندي عن ذلك.

- سيدى الكوندي لوكانور - قال باترونيو - عاش فيلسوف كبير في إحدى مناطق مملكة مراكش، وكان مصاباً بمرض يسبب له التقرير البطيء وما يرافق ذلك من آلام مبرحة. وقد أمره الأطباء بأن يعدل بالإفراط كلما أحس بحاجة لذلك، إذ إن البراز حين يحرق، يبيس ويصك ويعسر عليه الإفراج مما يؤلمه أشد الألم ويضر بصحته. وعمل بنصيحة الأطباء فسارت أموره على خير.

ووافق ذات يوم أن كان يتمشى في شارع يسكنه العديد من تلامذته، فجاءت حاجة الإفراج. ولكيلا يدخل بنصيحة الأطباء، دخل في أحد الأزقة. وشاءت المصادرات أن يكون شارعاً مترعاً بالنساء الماجنات اللاتي يتاجرن بأجسادهن، ملحقات العار والتدين بأعراضهن وأرواحهن. ولما كان الفيلسوف بغفلة عن الأمر. فقد تأخر لساعة طويلة قبل أن يخرج من أحد البيوت بسبب طبيعة

مرضه. ولما كانت الدار سيئة السمعة، فقد ظن الجميع أنه قد ذهب إلى تلك الدار لارتكاب فعل مثين لا يليق بسنها ولا بمرتبته. والجميع يعلم أن الرجل المحترم حين يرتكب فعلًا غير لائق حتى لو كان تافهاً، فإنه سيثير الألسن عليه أكثر مما يحدث مع الرجل المستهتر معتاد الأفعال القبيحة. لهذا فقد تكلم الناس كثيراً وانتقدوا الفيلسوف الشيخ لذهابه إلى مكان مسيء لروحه وجسده وسمعته.

عندما كان في بيته، جاءه تلاميذه حزانى وبقلوب متلأمة وسائلوه عن الفضيحة التي اقترفها فتسبب لنفسه ولهم بالخزي والعار، ولوث سمعته الناصعة حتى ذلك الحين.

عندما سمع الفيلسوف ذلك، استهجن كلامهم وسألهم عن أي خطأ يتحدثون. فردوا عليه بأنه لا جدوى من الإنكار، فالمدينة كلها تتحدث عن المثل السيئ الذي قدمه بدخوله زفاف الموسمات. اغتناظ الفيلسوف عن سماع ما قالوه، لكن ترجماه لا يحزنوا على هذه الحال ووعدهم بأنه سيقدم لهم الإجابة بعد ثمانية أيام. ثم إنه دخل مكتبه وكتب كتيباً صغير الحجم عظيم الفائدة. تناول فيه من بين ما تناول أمر الحظ السعيد والحظ العاثر، مخاطباً تلاميذه قائلاً:

«أبنائي، يحدث مع الحظ السعيد والحظ العاثر أن يطلبهما المرء فيلقاهم، وقد يلقاهم دون أن يطلبهما. فالحظ الذي يقع بعد أن يُطلب هو عندما يأتي المرء عملاً صالحًا فيجني ثماره الطيبة، أو حين يجيء العمل السيئ فيجني ثماره العلقم. وهذا هو الحظ الذي يقع بعد أن يُطلب، لأن المرء يستقدمه بعمله.

أما الحظ الذي يقع دون أن يُطلب، فهو عندما يجني المرء الثمر الطيب دون أن يسعى خلفه مثل ذلك الذي يعثر على كنز في الحقل، أو حين ينزل بالمرء الضرر أو المصيبة بلا استحقاق، أو كالذي يسير في درب فيقع على رأسه حجر رماه آخر على طائر، فهذا وقع له دون أن يسعى إليه، ولم يفعل ما يستحق عليه ذلك الحظ العاثر.

ولا بد من أمرتين اثنين في الحظ السعيد والحظ السيئ اللذين يُطلبان ثم يحصلان: أولاً أن يساعد المرء نفسه بفعل الخير ليكسب السعادة وعمل الشر ليلقى العقاب. وثانياً أن يجازيه الرب على عمله، إن خيراً فخيراً يلقى وإن شرًا فشرًا يلقى. وعلى هذا النحو، لا بد من أمرتين في الحظ السعيد والحظ السيئ اللذين يقعان دون أن يطلبان: أولاً أن نحرص على عدم ارتكاب ما يسيء أو يثير الريبة فنحصد به الشر والسمعة السيئة. - وثانياً أن ندعوا ربنا القادر على أن يبعينا عما يجيء

بالحظ العاثر والسمعة السيئة، ويحفظنا ويعيننا حتى نسلم من العثرات، كتلك التي ألمت بي في ذلك اليوم. فقد دخلت ذلك الزقاق لأقضي حاجة ما كان بي طاقة على تأجيلها، وعلى الرغم من أنه أمر بريء في حد ذاته ولا يمكن أن يسبب لي الضرر، فإنه قد جر عليّ خزيًّا وعارًا بلا أي ذنب مني، وكل ذلك لأن المصادفة قد شاءت أن تعيش المؤسسات في ذلك المكان».

وأنت سيد الكوندي إذا رغبت أن تصون سمعتك وتحسن منها، فعليك بأمور ثلاثة: الأول منها، عمل الصالح الذي يرضي رب عباده، دون الإضرار بمنزلتك العالية ولا مكانتك بين الناس، وكن على يقين بأن السمعة الطيبة ستتلذث إذا لم تقم بفعل الخير واقتصرت ما يشينها. فكم من الناس قد بدأوا بالأعمال الصالحة ثم أضاعوا سمعتهم الطيبة يوم ضلوا سبيل الخير. والثاني منها هو أن ترجو مساعدة رب لكى يهديك لعمل يُعلي من سمعتك ويجنبك ما يحط منها ويبقيها. أما الثالث منها فهو أن تبتعد عما يريب ويثير الشك ويضر بسمعتك قولًا وفعلاً، لا من قريب ولا من بعيد، فكثيراً ما تبدو الأعمال الصالحة غير ذلك لظرف ما، فتضفر بالسمعة الحسنة وتعقول البشر وكأنها من الأعمال السيئة. وتذكر أن السمعة تجلو أو تتضرر بما يقوله ويعتقد الناس أكثر مما تتحققه الواقع نفسها. وعلى العكس منها، بالنسبة للرب والروح، فالشيء الوحيد الذي يضر أو ينفع هو عملنا الذي نقوم به ونعيده فيه.

رأى الكوندي روعة هذه النصيحة ودعا رب أن يعينه على الأعمال الصالحة لخلاص روحه وإعلاء سمعته وشرفه.

كما رأى دون خوان فيها مثالاً جيداً، وأمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات:
الشعرية التي تقول:

اعملْ الخير وتجنبْ ما يريب

حتى تسلم سمعتك وتسقِّيم.

**ما جرى لأحد المسلمين
مع أخت له كانت تدعى الخوف**

تكلم الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونبي ذات يوم قائلاً:

- باترونبي، تعلم أن لي أخاً من أمي وأبي وهو أكبر مني، وأنا أطيع أوامرها وكأنه أبي وأحترمه. وهو معروف بذكائه وتقواه. لكن الرب شاء أن أكون أكثر ثراء ونفوذاً منه، وأنا على يقين بأنه يضرر لي مشاعر الحسد وإن كان يكتملها جيداً. والدليل على ذلك حين احتاج إليه في أمر من الأمور أو حين أطلب منه المساعدة يرفض ذلك بذرية أن في الأمر معصية للرب ويعاتبني كلما طلبت منه ذلك. في حين أنه كلما احتاج إلى، يحتني على المخاطرة بحياتي وثروتي وبالدنيا كلها لأهاب لمساعدته كما يرغب. وبما أن الأمر يحدث معه على هذا المنوال، فأرجو منك أن تقوم بنصحي وتخبرني ما يجب أن أقوم به.

- سيد الكوندي- قال باترونبي- يبدو لي أن أخاك يستحق أن يُقال فيه ما قاله أحد المسلمين لأخت له.

فسأله الكوندي ما حصل بهذا الأمر.

- سيد الكوندي- قال باترونبي- كان لأحد المسلمين أخت شديدة الرهافة وكانت تُبدي خوفها وفرزها من كل ما تراه ويحدث لها. حتى إنها كانت تبدي الفزع من صوت الجرة المستخدمة بين المسلمين لشرب الماء إلى درجة أن يُغمى عليها. وكان أخوها شاباً طيباً، لكنه كان يعاني الفقر المدقع. والفقير يجبر المرأة على فعل ما يكره. لذلك كان الشاب يحصل على قوت يومه بطريقة غير شريفة، إذ إنه يقوم في كل مرة عندما يُدفن أحد الناس، فكان يمضي إلى المقبرة ويجرد الجثة من الكفن وما عليها. وكانت شقيقته تعلم بأنه يعولها بذلك الطريقة.

حدث أن مات رجل ثري، فلف جسده بثوب ثمين ودُفن مع أشياء ثمينة أخرى. عندما علمت الأخت بذلك، قالت لأخيها أنها تريد مرافقته إلى المقبرة في تلك الليلة لتساعده على حمل ما يجدانه مدفوناً مع ذلك الرجل.

مع حلول الليل ذهب الشاب وشقيقته إلى القبر وفتحاه، فاكتشفا أنهما لا يستطيعان تجريد الميت من ثيابه إلا بتقطيعها أو قطع رأس الميت.

لما رأت الشقيقة أنهما أمام خيارين فإما جز رقبة الميت أو تمزيق الثوب الثمين، عمدت إلى رأس الميت وفصلته عن جسده بلا شفقة ولا رحمة ونزعـت عنه الثوب. وتعاونـا على حمل كل ممتلكات الميت وغادرا المقبرة.

وفي اليوم التالي، عندما جلسا إلى المائدة، وتحرك الماء في الجرة، كاد أن يغشـى على الأخـت من الخوف الذي يسبـبه لها ذلك الصوت. فنظرـ إليها أخـوها مستغربـاً وقد تذكر جرأتـها وإقدامـها بالأمس على جـز رأس المـيت. قالـ لها بالـعربية:

- آه يا أختـي، تـقـزـعـين من بـقـبـقـ ولا تـقـزـعـين من فـتـقـ العـنـقـ.⁶⁰

وقد سـارـ قوله مثـلاً بينـ المسلمينـ.

وأنتـ سـيدـيـ الكـونـديـ لـوكـانـورـ، عـلـيـكـ أـنـ تـعـرـفـ أـنـ أـخـاكـ الـأـكـبـرـ حينـ يـعـتـذـرـ عـنـ عـمـلـ ماـ يـنـفعـكـ زـاعـماًـ أـنـ هـيـ إـثـمـ كـبـيرـ حتـىـ لوـ لمـ يـكـنـ كـذـلـكـ، ثـمـ يـطـلـبـ منـكـ أـنـ تـحـقـقـ مـطـالـبـهـ وـلـوـ كانـ فـيـهاـ إـثـمـ وـضـرـرـ عـلـيـكـ، فـهـوـ فـيـ هـذـاـ شـائـعـةـ الـفـتـاةـ الـمـسـلـمـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـقـزـعـ مـنـ صـوتـ المـاءـ، وـلـمـ تـشـفـقـ قـلـيـلاًـ فـيـ قـطـعـ رـأـسـ الـمـيـتـ. عـلـيـهـ أـنـصـحـ أـنـ تـرـدـ عـلـيـهـ رـدـاًـ طـيـباًـ إـذـاـ مـاـ طـلـبـ عـونـكـ، وـأـظـهـرـ لـهـ الـمـوـدـةـ وـأـعـمـلـ مـاـ يـنـفعـهـ وـلـاـ يـضـرـ بـكـ، فـإـنـ خـشـيـتـ مـنـ الـضـرـرـ فـاعـتـذـرـ مـنـهـ بـلـبـاقـةـ وـأـدـبـ، وـلـاـ تـسـتـجـيبـ لـرـغـبـاتـهـ أـبـداًـ.

رأـيـ الـكـونـديـ روـعـةـ هـذـهـ النـصـيـحةـ وـاتـبعـهـاـ فـسـارـتـ أـمـورـهـ عـلـىـ خـيـرـ ماـ يـرـامـ.

كمـ رـأـيـ دونـ خـوانـ فـيـهاـ مـثـلاًـ جـيـداًـ، وـأـمـرـ بـتـدوـينـهـ فـيـ هـذـاـ الـكـتـابـ. وـكـتـبـ فـيـهاـ هـذـهـ الـأـبـيـاتـ الشـعـرـيـةـ الـتـيـ تـقـولـ:

مـنـ يـبـخلـ عـلـيـكـ بـمـسـاعـدـتـكـ فـيـ شـيـءـ تـبـغـيهـ

فـلـاـ تـجـازـفـ بـأـعـمـالـكـ لـشـيـءـ يـطـلـبـهـ.

مثال 48

ما جرى لرجل كان يختبر أصحابه

تحدث مرة أخرى الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، يدعى الكثير من أصدقائي أنهم لن يخلوا عليّ بأموالهم ولا بأنفسهم وأنهم لن يعرضوا صداقتني لهم لأي خطر مهما حدث. لذا أرجو منك وأنت صاحب الفهم والإدراك، أن تشير عليّ بطريقة أعرف بها إن كانوا سيفعلون من أجلي ما يقولون حقاً.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونيو- إن أفضل شيء في الدنيا هو الصديق المخلص. ولكن تيقن أن أوقات الضيق تبين الصديق الحق ولا يجد المرء منهم حينئذ إلا القليل جداً. ومن الصعب أن يعرف الإنسان من هو صديقه الحقيقي إذا لم يمر بمصاعب حقيقة. ولكي تتعرف إلى أصدقائك فعلاً، فأسمح لي أن أخبرك بما جرى لرجل طيب مع ابن كان يفاخر بكثرة أصدقائه.

فسألته الكوندي عما جرى له.

- سيدى الكوندي- قال باترونيو- كان لرجل ابن، ودائماً ما كان ينصحه بأن يبذل قصارى جهده ليكثر من الأصدقاء الجيدين. وكان الابن يفعل بنصيحة أبيه، وصادق الكثير من رغب في صداقتهم وعاملهم بكل كرم حتى يظفر بموتهم. وزعموا له أنهم سيضخرون بأموالهم وأرواحهم من أجله حين تدعو الحاجة إلى ذلك.

وذات يوم سأله الأب ابنه إن كان قد عمل بنصيحته وهل استطاع اكتساب الأصدقاء. وهنا أجابه الابن بأنه قد صادق العديد منهم، وأن من بينهم عشرة يثق فيهم كل الثقة وهو واثق جداً أنهم لن يتخلوا عنه وهم على استعداد لمواجهة المنية غير متهيبي المصاعب.

عندما سمع الأب ذلك منه، رد عليه بأنه مندهش أن يكون قد صادق كل هذا العدد من الأصدقاء وكلهم على هذه الدرجة من الوفاء، فهو وطوال حياته لم يكتب سوى صديق ونصف صديق وهو الذي تقدم به العمر طويلاً.

وهنا ألح الابن وأكده صادق في كل ما يقول. ولما رأه الأب على تلك الحال طلب منه أن يخترهم بالطريقة التالية. إذ أمره أن يقتل خنزيراً وأن يضعه في كيس ويقصد أصدقاءه في بيوتهم واحداً بعد الآخر، ويخبرهم أنه يحمل في الكيس جثة رجل قتلته بيديه، وإنه لو وصل الخبر إلى رجال العدالة فلن ينجو من الموت لا هو ولا الذي يساعدته على إخفاء جريمته ولو افتدوا بالدنيا وما فيها. وأن يرجوهم كأصدقاء أن يخفوا الجثة وأن يحموه إذا اقتضى الأمر.

نفذ الفتى الخطة وراح يجرب أصحابه كما أشار عليه أبوه. ولما وصل إلى بيت كل واحد منهم وحكي له عن المصيبة التي حلّت به، قالوا له جميعاً إنهم على استعداد لمساعدته في أمور أخرى، لكنهم لا يجرؤون على مساعدته في مصيبيته هذه لأنهم سيعرضون أنموالهم وأرواحهم للخطر، ورجاله كل واحد منهم لا يخبر أحداً أنه لجا إليه. كما قال له بعضهم إنهم لا يجرؤون على مساعدته على تلك الحال، ولكن وعدوه بأنهم سيطلبون العفو له إذا ما حكم عليه بالموت. ووعده آخرون بأنهم سيرافقونه حين يحملونه إلى المشفى، وسيقرون إلى جانبه حتى النهاية، وأنهم سيشاركون في دفنه بما يليق به.

عندما اختبر الفتى كل أصدقائه ولم يجد بينهم صديقاً وفيما واحداً، عاد إلى أبيه وحكي له ما جرى. عندما سمع الأب كلامه، أجابه بأن من تقدم في عمره يعرف أكثر من ذلك الصغير السن وقليل الخبرة. وأضاف قائلاً إنه ليس لديه سوى صديق واحد ونصف صديق. وطلب منه أن يلجما إليهما ليجربيهما. فذهب الابن أولاً عند ذلك الذي وصفه أبوه بنصف الصديق. وكان أن وصل بيته بعد حلول الظلام وهو يحمل كيس الخنزير على ظهره، فطرق الباب وأخبره عن حاله وكيف أن أصدقائه قد رفضوا تقديم العون له، ورجاله، بحق الصداقة التي تجمعه بأبيه أن يعينه في أمره.

عندما سمع نصف صديق أبيه ما قاله، أجابه بأنه وإن لم يكن بينهما صداقة تستدعي المخاطرة، لكنه سيتستر على فعلته إخلاصاً لصداقه لأبيه. ما أن أتم كلامه حتى رفع كيس الخنزير على عاتقه، معتقداً أنها جثة بشرية، وأخذه حتى البستان ليدهنه بين نباتات الكرنب، ثم أعاد وضع الكرنب كما كان عليه وطلب من الفتى أن يمضي بأمان.

عندما رجع الابن إلى أبيه حكي له ما جرى. فطلب منه أبوه أن يرجع في اليوم التالي إلى نصف الصديق وما أن يجتمع به، عليه أن يفتعل الشجار معه حول أي شيء، وأن يكيل له في خضم

الشجار لطمة بكل ما أُتي من قوة. ففعل الشاب ما أمره به أبوه، وحين لطمه، نظر له نصف صديق أبيه وقال له:

- ما أصبح ما فعلت يابني، ولكنني أؤكد لك إنني لن أكشف عن بستان الكرنب بسبب هذه الإهانة ولا أسوأ منها.

عاد الفتى ليقص على أبيه ما جرى له، فكان أن أرسله ليجرب صديقه الحقيقي.

وعندما وصل بيت صديق أبيه حكى له كل ما جرى له، فقال له الرجل الطيب، صديق أبيه، أنه سيحميه من الموت ومن أي ضرر ممكн.

وحدث بالمصادفة أن قُتل رجل في المدينة في تلك الأيام ولم يُعرف قاتله. وكان البعض قد ارتاد بالفتق لأنهم رأوه بكيسه يخرج ليلاً ولأيام عديدة.

وحتى لا أتقل عليك. تم الحكم على الفتى بالموت. وبذل صديق أبيه كل جهد لإإنقاده. ولما رأى أنه لن ينجح في ذلك، أخبر القضاة بأن ضميره يؤنبه ولم يعد يتحمل أكثر، وأن الفتى المحكوم بالجناية ليس هو صاحب الفعلة، بل القاتل ابنه الوحيد. واحتال عليهم كي يستجوبوه بعد أن أقنعه هو بنفسه أن يقر بالذنب، وهذا ما أكدته الابن بنفسه. قضي الأمر وأعدموا ابنه، ونجا الفتى من الموت بفضل صديق أبيه.

أنظر سيد الكوندي كيف يختبر الأصدقاء. أعتقد أن هذا المثال ينفعنا في اختيار الأصدقاء المخلصين الذين يجب تجربتهم حتى نعلم على أيهم نعتمد فيما لو تورطنا في مخاطرة كبيرة، وحتى نعلم ما ينتظروننا فيما لو حلت بنا مصيبة ما. الأصدقاء الحقيقيون موجودون، لكن معظم الآخرين ليسوا سوى أصدقاء في المسرات ولا يعتمد عليهم إلا في أوقات اليسر فحسب.

يمكننا أن نقول هذا المثال أيضاً تأويلاً روحيًا على هذا النحو: كل الناس في هذا العالم يعتقدون أن لهم أصدقاء، لكن يجب اختبارهم في أوقات الموت. عندئذ يقول أصدقاء الدنيا إن لديهم من المشاكل ما يكفيهم، وسيقول الزهاد إنهم سيدعون الرّب من أجل خلاص أرواحهم. وتقول الزوجات والأبناء إنهم سوف يرافقونهم حتى القبر وسوف يحسنون في دفنهما بالشكل اللائق. وهذا يتبيّن لهم ما يمكن انتظاره من الأصدقاء. وحين لا يجدون من يعينهم ضد الموت، مثل ذلك الفتى

الذي خاب ظنه في جميع منْ اعتبرهم أصدقاء أو فياء، فلجاً إلى أبيه، لهذا يلجؤون إلى الرب، رب العالمين، فيأمرهم الرب بتجريب القديسين، الذين ليسوا بأنصاف أصدقاء. فيفعلون. وعون القديسين وبركتهم، لا سيما سيدتنا العذراء، كبيرة لأنهم لا يكفون عن الدعاء للمذنب. وتذكرنا مريم العذراء بالعناء الذي تحملته في تربية المسيح، وكذلك يذكرهم القديسون بالعذاب والاضطهاد الذي يلقونه في سبيل الرب، ويحاولون بكل السبل التستر على خطايا البشر. ومهما أصابهم من جهتنا عنـت فإنـهم لا يفضـحـونـ أمرـناـ،ـ كـنـصـفـ صـدـيقـ الرـجـلـ ذـاكـ الـذـيـ لمـ يـفـضـحـ الـابـنـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ الضـرـبةـ الـتـيـ كـالـهاـ لـهـ.ـ وـعـنـدـمـاـ يـقـنـعـ المـخـطـئـ بـأـنـهـ لـمـ يـسـاعـدـهـ أـصـدـقاـوـهـ وـاقـرـبـاؤـهـ بـالـتـخلـصـ مـنـ الـمـوـتـ،ـ فـإـنـهـ لـاـ بـدـ وـأـنـ يـلـجـأـ إـلـىـ الـرـبـ.ـ وـالـرـبـ يـحـنـوـ عـلـىـ كـأـبـ حـقـيـقـيـ وـكـصـدـيقـ وـيـكـنـ لـنـاـ مـوـدـةـ كـبـيرـةـ مـثـلـمـاـ فـعـلـ ذـلـكـ الصـدـيقـ الـحـقـيـقـيـ،ـ فـأـرـسـلـ الـمـسـيـحـ لـيـمـوتـ طـاهـرـاـ مـنـ كـلـ الـخـطـاـيـاـ،ـ وـلـيـغـطـيـ بـدـمـهـ خـطـاـيـاـ وـذـنـوبـ الـبـشـرـ.ـ وـكـانـ أـنـ أـطـاعـهـ الـمـسـيـحـ،ـ وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ الـرـبـ وـالـإـنـسـانـ الـحـقـيـقـيـ،ـ شـاءـ أـنـ يـلـقـىـ الـمـوـتـ وـلـقـيـهـ وـخـلـصـ الـمـذـنـبـينـ بـدـمـائـهـ.

والآن سيد الكوندي، عليك أن تذكر جيداً في من هم أصدقاؤك الأوفياء والحقيقة، وما يجب عليك لتكسب المزيد منهم.

استحسن الكوندي هذه النصيحة الرائعة.

كما رأى دون خوان فيها مثالاً جيداً، وأمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات
الشعرية التي تقول:

لا وجود لصديق أفضل من الرب
فقد شاء أن يشتري خلاصنا بدمائه.

مثال 49

ما جرى لرجل

⁶¹ تركوه عارياً في جزيرة بعد أن خلعوه من الحكم

تحدى الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- باترونبيو، ينصحني كثير من الناس بأن أسعى في زيادة ثروتي ونفوذني، وهذا أمر طبيعي في مثل حالي ويسرني جداً. ولعلمي بأنك تشير عليّ بالرأي الصائب دائماً، وأنك سوف تستمر عليه في المستقبل، فأرجو نصحك لما عليّ أن أقوم به.

- سيدى الكوندي- قال باترونبيو- هذه نصيحة من الصعب القول فيها لسبعين: الأول لكي أحسن النصح فعليّ أن أطلب منك أن تفعل عكس ما تهوى؛ والثاني، لأنه يزعجني أن أتكلم بعكس ما ينفعك في الظاهر. وبما أن السبعين قد اجتمعا في هذا الشأن، فلا بد أنك تفهم الآن محنتي بعدم الميل لإبداء الرأي. لكن بما أن ولاء المستشارين هو قول ما يرونـه الأفضل لسادتهم، دون مبالاة بفرحهم أو غضبهم، لذا لن أتخلى عن مصارحتهم بما أراه مناسباً لك مهما حدث من أمور. ولابدأ بالقول إن ذلك الذي نصحك بزيادة ثروتك ومكانتك قد أصاب في وجه واحد وحسب، لذا أرى أنها نصيحة لا تصلح لك ولا تنفعك. ولكي أوضح أكثر، أو أن تسمع مني ما جرى لرجل وضعه قوله سيداً على أرض شاسعة.

فسألـه الكوندي ما جرى له.

- سيدى الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- في أحد الأراضي اعتاد أصحابها أن يجعلـوا واحداً منهم سيداً في كل سنة. وخلال تلك السنة كانوا يأتـرون بجميع أوامرهـ. وعندما ينقضـي العام ينتزـعون منه كل شيء ويتركونـه وحيداً عارياً في جزيرة مهجورة.

وشاءت الأقدار أن يختارـوا رجلاً أكثر ذكاء ونباهة منـ سبقوه لـكي يتـسيـد عليهمـ. وبـما أنه كان على علمـ بما سيفـعلـونـ بهـ بعد انـقضـاءـ السنةـ كماـ فعلـواـ معـ الآخـرينـ، فقدـ أمرـ سـراًـ وفيـ وقتـ مـبـكرـ منـ العامـ، بـبناءـ بـيتـ مـتسـعـ وـمـريحـ يـحتـويـ عـلـىـ كـلـ مـسـتـازـمـاتـ العـيشـ الرـغـيدـ فـيـ الجـزـيرـةـ التـيـ مـنـ المـقـرـرـ أـنـ يـهـجـرـوـهـ فـيـ هـيـهـاـ. وـقـدـ تـمـ بـنـاؤـهـ فـيـ مـكـانـ بـعـيدـ عـنـ الـأـنـظـارـ وـلـاـ يـصـلـ إـلـيـهـ أـحـدـ مـنـ أـوـلـئـكـ الـذـينـ اـخـتـارـوـهـ سـيدـاـ عـلـيـهـمـ.

وـأـخـبـرـ بـالـأـمـرـ بـعـضـ الـأـصـاحـابـ الـذـينـ كـسـبـ وـلـاءـهـ وـطـلـبـ مـنـهـ أـنـ يـسـعـفـوهـ بـمـاـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ الـبـيـتـ، بـحـيـثـ لـاـ يـنـقـصـهـ أـيـ شـيـءـ حـيـنـ يـكـونـ هـنـاكـ.

عندما انقضى العام وعزلوه عن الحكم ليترکوه عارياً في تلك الجزيرة التي بنى فيها بيته، وقد لجأ إليها وعاش هناك عيشة هنيئة.

وها أنت ترى سيد الكوندي لوكانور، إذا ما شئت أن تستمع إلى نصيحتي، فعليك أن تتذكر، بما أنه عليك أن تغادر الدنيا عارياً فلا يمكنك أن تأخذ منها سوى عملك الصالح. وعليك أن تكثر منه حتى تجد عند مغادرتك لها ووفوك على الأخرى مقاماً تعيش فيه عيشة هانئة. وأعلم أن حياة الروح لا تُحسب بالسنين، لأنها خالدة، والروح لا تموت ولا تفسد. وأعلم أيضاً أن الرب يحسب الأعمال الصالحة والطالحة تلك التي يعملها البشر في هذه الدنيا، ليجازيهم فيما بعد على ما يستحق مقابلها. لذا أنصحك أن تعمل الصالح من الأعمال هنا كي تجد مقاماً طيباً عندما تمضي إلى العالم الآخر، وهو العالم الذي ستعيش فيه إلى أبد الآبدية. كما أنصحك بأن تستبدل أموال الدنيا ومديح الناس بما هو خالد أبداً. ولا تسند الأعمال الصالحة بالتكبر والادعاء، فإنهما لا يوصلانك إلى ما تبغي، وإنما علمها عند الناس فلا بأس عليك لأنك لم تقم بها رياء وبهتاناً. وعليك كذلك أن تبذل ما في وسعك كي يقوم أصحابك من أجل روحك ما لم تستطع القيام به وأنت على قيد الحياة. أرى أن اتبعت ما قلته لك، فلا سوء من زيادة ثرواتك ومكانتك.

وقد الكوندي فيها مثلاً جيداً ونصيحة معتبرة، ودعا الرب أن يعينه على القيام بما نصحه به باترونيو.

كما رأى دون خوان فيها مثلاً جيداً، وأمر بتدوينه في هذا الكتاب. وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

اعمل الطيب في هذه الدنيا الفانية

حتى تكسب الدار الباقية.

مثال 50

ما جرى لصلاح الدين
مع سيدة كانت زوجة لأحد أتباعه

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونبيو قائلاً:

- باترونبيو، أعلم أنك من الفهم والنباهة، بحيث إنك الوحيد من بين جميع من أعرف يجيبني دائماً عن كل سؤال أطرحه. واليوم أريد أن أسألك عن أفضل صفة عند البشر. وأسألك عن ذلك لأنني أعرف أن على المرء أن يتحلى بالأفضل وأن يقتدي به، من أن يجمع العديد من الفضائل، فمعرفة ما يجب فعله وما لا يجب فعله فقط لا يزيد من قدر البشر ولا من نفوذهم. والعمل الناجع يتطلب العديد من الصفات، لذا أتمنى عليك أن تتصحني على الأقل في واحدة منها كي أذكرها وأعمل بها.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- إطراوتك لي ومدحك لنباهتي إنما هو من كرم طبعك، وأخشى ألا تكون مصيباً في حكمك. لتكن واثقاً أن أكثر وأسهل ما يخطئ فيه البشر هو معرفة أحوال الناس ومدى نباهتهم ومقدار ذكائهم. فالأمران مختلفان: الأول هو معرفة كيف هو الإنسان؟ والثاني هو مقاييس نباهته؟ ولكي تعلم كيف هو الإنسان فيجب عليك مراقبة ما يقوم به من أجل الرب ومن أجل دنياه. فكم من بشر يعملون في الظاهر، لكن لا خير في عملهم لأنهم حريصون على مباحث الدنيا والتفاني في خدمتها، وهم يؤدون ثمناً باهظاً على ذلك لأنهم يستترون مجد يوم واحد بعذاب أبدى. وآخرون يعملون الخير لوجه الرب وينسون دنياهم، وعلى الرغم من أن هؤلاء أفضل من اختيار السابقين ويربحون أجراً، لكن لا هؤلاء ولا أولئك يرجون الرب والدنيا معاً، وهو السبيل الواجب إتباعه.

ولكي تتبع هذا السبيل، لا بد لك أن تقوم بفعل الخير وكسب الفهم ورجالحة العقل، وهو أمر صعب المنال، إذ معناه وضع اليد في النار دون أن تحرق. لكن كل شيء ممكן الحدوث بفضل الرب وقدرته واجتهاد البشر. لذلك كان هناك دائماً ملوك صالحون ورجال قديسون مضوا في سبيل الرب دون أن يغفلوا عن حظوظهم في الدنيا.

ولكي تميز أصحاب الفهم والإدراك، عليك التمعن في جملة من الأمور، فالكثير من البشر يزوقون الكلام الجميل المعقول، لكنهم لا يتصرفون كما ينبغي، وثمة من يقود أمره وأملاكه بشكل جيد لكنه لا يعرف أو لا يريد أن يعرف أو لا يقدر على نطق ثلات كلمات صحيحة. وثمة آخرون

يجيدون الكلام والفعل معاً، لكنهم يظهرون نيتهم السيئة، فأفعالهم قد تتفعمم لكنها تضر بالآخرين. وفي الإنجيل فإن هؤلاء مثلهم مثل مجنون يحمل سيفاً في يده أو مثل الأمير السفه واسع النفوذ.

ولكي تعلم أنت وسائر البشر وتكون مصيباً في خياراتك، منْ هو الصالح عند الرب والصالح في الدنيا، ومنْ هو الذكي النبي، ومنْ هو صاحب الكلام الحقيقي، ومنْ هو المنافق سيئ النوايا، يجدر بك ألا تحكم على أحد إلا بالنظر في أعماله لمدة طويلة لا لفترة وجيزة، والنظر في أملاكه هل زادت أم نقصت، وبهذا تستطيع أن تعرف منها كل ما قلته لك.

لقد ذكرت لك كل هذا لأنك مدحتني كثيراً وقلت الكثير بشأن ذكائي، وأنا على ثقة بأنك لو أمعنت النظر بروية ما أطريتني بالقدر نفسه. ولكي أجيبك عن سؤالك عن أفضل صفة في البشر، فأرجو أن تسمع مني ما جرى لصلاح الدين مع زوجة أحد أتباعه من الفرسان.

فأسأله الكوندي عن ما حصل.

- سيدى الكوندي- قال باترونينيو- كان صلاح الدين ملكاً على بابل. وكان من عادته أن يصطحب معه بشراً كثيرين. واتفق أن أقام ذات يوم في بيت أحد أتباعه من الفرسان. وقد بذل الفارس كل ما في وسعه لخدمة ضيفه، قائماً بنفسه على خدمته هو وزوجته وأولاده. وحل الشيطان الذي لا يكل عن فعلسوء، فأنسى صلاح الدين واجبه تجاه نفسه أولاً وتجاه مضيفه وأوقعه في حب زوجة الفارس حباً شديداً.

ولأن الحب كان طاغياً، فقد طلب النصح من أحد مستشاريه السينيين وسأله عن حيلة يصل بها إلى ما يبتغيه من الزوجة. وأرجو من الرب أن يحفظكم من الأهواء الضالة، إذ لو كانت تلك مشيئته، فلن تعدم من ينصحك ويساعدك على تحقيقها.

وهذا ما حدث مع صلاح الدين، إذ سرعان ما عثر على من يرشده إلى حيلة يحصل بها على مبتغاه. إذ أشار ناصح السوء ذاك أن ينادي على الفارس ويقاده منصباً كبيراً، و يجعل تحت أمرته عدداً كبيراً من الرجال، ثم يرجئه لأيام ويرسله بعد ذلك إلى مكان بعيد. فيسهل عليه بعد ذلك تحقيق رغباته أثناء غياب الزوج.

استحسن صلاح الدين الخطة وعمل بها. وحين سافر الفارس لأداء مهمته وهو مسرور بحظه السعيد ومكانته لدى سيده السلطان، عاد صلاح الدين للنزول في بيته. وحين علمت الزوجة بمقدم صلاح الدين، خرجت لاستقباله رفقة أهلها ووضعت نفسها بخدمته. بعد الأكل، انسحب صلاح الدين إلى غرفته وأرسل يطلب حضور المرأة. أسرعـت المرأة بتلبية ندائـه وقد كانت تظن أنه يريدها لأمر آخر. فاعترف لها صلاح الدين بحبـه العميق لها. عندما سمعـت المرأة كلامـه ظاهرـت بعدم الفهم، وأجابـته بأنـها تشـكره وترـجو من الله أن يـحفظـه، وأـشـهدـت الله على مشـاعـرـها الطـيـبة نحوـه، ودـعـتـ لهـ بالـعـمـرـ المـديـدـ، وأـكـدـتـ لهـ أنهاـ تـدعـوـ لهـ دائمـاـ، وـهـ وـاجـبـهاـ نحوـ سـيـدـهاـ لأنـهـ أـنـعـمـ عـلـيـهاـ وـعـلـىـ زـوـجـهاـ بالـكـثـيرـ.

لكن صلاح الدين أجابـهاـ بأنـهـ إلىـ جـانـبـ هـذـاـ فـهـوـ يـحـبـ كـامـاـ لمـ يـحـبـ أيـ اـمـرـأـ فـيـ العـالـمـ. فـراـحتـ المـرـأـةـ تـسـرـسلـ بـالـشـكـرـ وـتـغـضـبـ الـطـرـفـ عـنـ فـهـمـ ماـ قـالـهـ. وـلـكـ مـاـذـاـ أـقـولـ لـكـ بـعـدـ؟ـ أـفـهـمـهـاـ صـلاـحـ الـدـينـ أـنـهـ يـحـبـهاـ. وـعـنـدـمـاـ سـمعـتـ المـرـأـةـ ذـلـكـ، وـقـدـ كـانـتـ عـفـيفـةـ شـرـيفـةـ، أـجـابـتـهـ قـائـلـةـ:

- سـيـدـيـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـنـيـ اـمـرـأـ صـغـيرـةـ الـمـحـتـدـ، لـكـنـنـيـ أـعـلـمـ أـنـ الإـنـسـانـ لـاـ قـدـرـةـ لـهـ عـلـىـ سـلـطـانـ الـحـبـ، بـلـ هـوـ وـاقـعـ تـحـتـ سـلـطـانـهـ. وـأـعـرـفـ أـنـكـ عـنـدـمـاـ تـعـرـفـ لـيـ بـحـبـكـ فـقـدـ يـكـونـ حـقـيقـيـاـًـ أوـ هـوـ شـيـءـ آـخـرـ، وـعـنـدـمـاـ تـعـجـبـ الـمـرـأـةـ رـجـلـاـ مـنـ الـرـجـالـ، خـاصـةـ أـنـهـ مـنـ الـأـسـيـادـ الـكـبـارـ، يـقـولـ إـنـهـاـ سـتـقـومـ بـكـلـ مـاـ يـرـغـبـ فـيـهـ مـنـهـاـ. لـكـنـهـاـ تـسـقـطـ مـنـ قـلـبـهـ بـعـدـ أـنـ يـوـقـعـ بـهـاـ وـيـلـحـقـهـاـ الـعـارـ، وـأـنـاـ أـخـشـىـ يـاـ سـيـدـيـ أـنـ يـحـصـلـ لـيـ ذـلـكـ.

فـماـ كـانـ مـنـ صـلاـحـ الـدـينـ إـلـاـ أـنـ أـمـطـرـهـ بـالـوـعـودـ. وـبـعـدـ أـنـ قـالـ لـهـ صـلاـحـ الـدـينـ كـلـ ذـلـكـ، قـالـتـ لـهـ المـرـأـةـ الشـرـيفـةـ إـنـهـ إـذـاـ وـعـدـهـاـ بـتـحـقـيقـ كـلـ مـاـ تـنـطـلـبـهـ مـنـهـ قـبـلـ إـرـغـامـهـاـ وـالـنـيلـ مـنـهـاـ، فـإـنـهـاـ تـضـمـنـ لـهـ أـنـ تـكـوـنـ رـهـنـ إـشـارـتـهـ بـعـدـ إـنـجـازـ وـعـدـهـ.

وـافـقـ صـلاـحـ الـدـينـ بـشـرـطـ أـلـاـ يـكـونـ طـلـبـهـ هـوـ تـجـنـبـ الـحـدـيـثـ مـعـهـاـ فـيـ ذـلـكـ الـأـمـرـ. فـرـدـتـ عـلـيـهـ بـأـنـهـ لـنـ تـطـلـبـ مـنـهـ ذـلـكـ وـلـاـ أـيـ شـيـءـ يـصـعـبـ عـلـيـهـ عـلـمـهـ. عـنـدـئـذـ وـعـدـهـاـ صـلاـحـ الـدـينـ أـنـ يـنـفـذـ مـاـ تـرـيدـ. فـقـبـلـتـ الـمـرـأـةـ يـدـيـهـ وـقـدـمـيـهـ وـقـالـتـ لـهـ إـنـ كـلـ مـاـ تـرـيدـهـ هـوـ أـنـ يـقـولـ لـهـ مـاـ هـيـ أـفـضـلـ صـفـةـ فـيـ الـبـشـرـ وـالـتـيـ تـضـمـنـ كـلـ الـخـصـالـ الـأـخـرىـ.

عندما سمع صلاح الدين ما قالته له المرأة، بقي يفكر ملياً ولم يستطع الظفر بجواب. ولما كان قد وعدها بعدم إرغامها على أي شيء حتى يلبي طلبها، رجاها أن تمهله بعض الوقت للتفكير في الجواب. وعدته المرأة بأنها ستكون رهن إشارته عندما يقدم لها الجواب الوافي. وانتهى الأمر بينهما عند هذا الحد.

رجع صلاح الدين إلى أصحابه وطرح السؤال على الحكماء دون أن يبدي السبب الحقيقي لسؤاله. فأجابه بعضهم بأن الروح الصالحة هي أفضل خصال البشر، لكنهم يرون أنها غير كافية في الحياة الدنيا. وقال له بعضهم الآخر إن من أفضل الصفات هو الولاء. فاعتراض بعضهم على ذلك قائلين إن الولاء جيد في حد ذاته، لكنه قابل للجتماع مع خصال أخرى مثل الجبن والبخل والعادات المذمومة، لذلك فهو غير كافٍ بذاته. وذكروا له العديد من الصفات الحميدة لكنهم لم يتوصلا إلى إجابة شافية عما سأله صلاح الدين عنه.

وحين لم يعثر صلاح الدين على الإجابة في أراضيه، مضى مسافراً رفقة اثنين من المنشدين⁶² وراح يذرع أقطاب الأرض. وهكذا عبر البحر متخفياً واتجه حتى بلاط البابا، حيث يجتمع كل المسيحيين. وهناك طرح سؤاله عليهم دون أن يحظى بإجابة وافية. وبعدها رحل حتى بلاط ملك فرنسا وغيره من الملوك دون جدوى. وأخذ الأمر منه الوقت الطويل حتى ندم على خروجه من بلاده. والحق أن الأمر لو كان متعلقاً فقط بالظفر بتلك المرأة وحسب لترك الأمر بالمرة، لكنه كان نبيل الشمائل عالي الهمة وكان يعتقد أنه لو ترك الأمر دون إجابة لتضرر بذلك كثيراً، لهذا السبب لم يتراجع عن مراده. فهيبة الرجل تتقصص كثيراً لو تخلى عن المهمة التي بدأها خوفاً أو طلباً للراحة، إلا إذا كان الأمر متعلقاً بخطيئة أو فعل سيئ. لذلك لم يقبل صلاح الدين التخلي في بحثه عن جواب شافٍ كان السبب في تركه أرضه ودياره.

ذات يوم وهو في الطريق رفقة المنشدين، التقى بحامل درع عائد من الصيد بعد أن قتل ظبياً. كان حامل الدرع حديث العهد بالزواج، وكان أبوه الشيخ من أفضل فرسان المنطقة سابقاً. وعلى الرغم من أنه فقد بصره لتقدير عمره ولم يكن بمقدوره مغادرة البيت، إلا أنه كان نبيهاً ذكياً، بحيث كان يشرف بنفسه على كل أموره الشخصية. وكان أن سأله حامل الدرع الرجال الثلاثة من هم ومن أين جاءوا؟ فأخبروه بأنهم من المنشدين.

عندما سمع ذلك فرح كثيراً وأخبرهم بأنه عائد للتو من يوم صيد رائع وسوف يكتمل سروره لو وافقوا على النزول في بيته تلك الليلة. أجابوه بأنهم متوجهون لأنهم خرجوا من بلدتهم منذ وقت طويل للاستقصاء في أمر ما، وقد قرروا العودة لأنهم لم يحصلوا على إجابة واعتذروا منه لعدم قدرتهم المكوث عنده هذه الليلة. عند ذلك ألح حامل الدرع بالأسئلة كثيراً حتى عرف عما يبحثون. فقال لهم إذا لم يجدوا الجواب عند أبيه فلن يعثروا على إجابة عند أي أحد آخر. وحكي لهم عن أبيه.

ما أن سمع صلاح الدين بذلك، وهو المنشد في نظر حامل الدرع، حتى فرح كثيراً وعزّم على المبيت عنده. عندما وصلوا إلى البيت قال الرجل لأبيه إنه مسروح جداً لأن الحظ حالفه في الصيد، كما أن رفقة هؤلاء المنشدين قد زادت من سروره. وأخبره كذلك بمتغاهم، ورجاه أن يجيبهم عن سؤالهم، لا سيما أنه قد أكد لهم لا أحد في الكون قادر على إجابتهم أفضل منه.

عندما سمع الفارس العجوز السؤال عرف أن صاحبه ليس واحداً من المنشدين وووعله بأن يجيبه بعد أن ينتهيوا من طعامهم. وأخبر حامل الدرع صلاح الدين، وهو يظن أنه أحد المنشدين، وما قاله الأب فرح به كثيراً وتحرق لمعرفة الجواب وتقل الأمر عليه انتظاراً للانتهاء من الطعام.

عندما رفعوا السماط وقام المنشدون بأداء ما يعرفونه، قال لهم الفارس العجوز إن ابنه قد أخبره بأنهم ذرعوا الأرض كلها دون أن يحصلوا على إجابة شافية عن سؤالهم. ثم طلب منهم أن يخبروه عن سؤالهم ليجيبهم بما يعرف حسب فهمه وإدراكه. عندئذٍ قال له صلاح الدين، المتخفي برداء المنشد، إنه جاء ليبأّل عن أفضل خصلة في البشر والتي هي عماد الصفات الأخرى كلها.

عندما سمع الفارس العجوز هذا الكلام عرف كل شيء. وكذلك تعرّف إلى صلاح الدين من صوته، لأنه سبق أن عاش في بلاطه زمناً طويلاً وتلقى منه كل خير. فأجابه قائلاً:

- صديقي، أول ما أود قوله إن منشدين مثلك لم يدخلوا بيتي قبل ذلك أبداً. ولتعلم أنني لكي أكون صادقاً أقول لك إنني قد تعرفت إليك، ولكن في هذا الشأن لن أقول شيئاً حتى أتكلم معك على حدة حتى لا يعرف بالأمر أحد غيرنا. أما عن سؤالك فأجيبك بأن أفضل خصلة عند البشر وهي أم ورأس كل الصفات، ألا وهي الحياة. وبالحياة يعني البشر الموت، وهي أخطر الأشياء التي توجد، وحياة الرجل يجنبه ما يشنّه حتى لو اشتتد رغبته وطغت. وبالحياة تبدأ وتنتهي كل الخصال.

عندما سمع صلاح الدين ما قاله الفارس أدرك صدقه. وفرح فرحاً عظيماً بحصوله أخيراً على الجواب النافع. وبسعادة غامرة ودع الفارس الشيخ وابنه حامل الدرع. ولكن قبل ذلك تكلم معه الفارس العجوز على حدة وأخبره أنه عرف أنه صلاح الدين وذكره بإحسانه له فيما مضى واعتنى به الشيخ وابنه كل الاعتناء حتى لا ينشر الأمر وثُكتشف حقيقته.

بعد كل ذلك توجه صلاح الدين إلى بلاده بأسرع ما يكون. وعندما وصل استقبله أهله ببالغ السرور واحتفلوا بعودته.

وبعد أن انتهى وقت الأفراح والمسرات، مضى صلاح الدين إلى بيت المرأة الشريفة صاحبة السؤال. ولما علمت بمقدمه خرجت إليه ورحت به واعتنى به كما ينبغي.

ما أن انتهى من الأكل وانسحب إلى مخدعه، نادى على الزوجة الطيبة. وحين أصبحت أمامه أخبرها صلاح الدين بما لاقاه من عناء ومشقة حتى عثر على إجابة لسؤالها وإنه على استعداد لتقديمه لها وينتظر أن تفي بدورها بما وعدت به. فرجته المرأة أولاً أن يكون صادقاً ومخلصاً بوعده وأن يبدأ بالإجابة عن السؤال، فإذا كان هو نفسه متيقناً من أن إجابته صائبة، فستقي في الحال بوعدها له.

فأخبرها صلاح الدين أنه سعيد بما تقول، وهو يقول لها إن إجابته عن سؤالها الذي طرحته عليه عن أفضل الخصال البشرية، فهو يقول إن أفضل الأشياء التي على البشر التحلّي بها وأنها أم ورأس كل الخصال ألا وهي الحياة. وعندما سمعت المرأة الشريفة إجابته فرحت كثيراً وقالت له:

- سيدني، يبدو واضحاً أنك تقول الحق، وقد وفيت بوعدك. والآن قل لي بالله عليك، هل تعرف أحداً في الدنيا كلها أفضل منك. قل الحق لأنك ملك وعلى الملوك قول الحق.

أجابها صلاح الدين إنه سيقول الحق وإنه لا يخفي عنها أنه يعتبر نفسه من أفضل الناس، لكنَّ حياءه يمنعه من قول ذلك بنفسه.

عندما سمعت المرأة الشريفة كلامه انكبت على قدميه وقالت له وهي تبكي بحرقة:

- سيدني، لقد قلت حققتين عظيمتين: الأولى إنك أفضل رجل في الدنيا، والثانية أن الحياة من أفضل خصال البشر، فإذا كنت تعرف هذا وأنت أفضل إنسان في الدنيا، فالرجاء أن تتحلى

بأفضل الخصال وتستحي مما تطلبه مني.

عندما سمع صلاح الدين رأيها الصائب ورأى كيف أن تلك المرأة المخلصة والنبية قد جنّبته ارتكاب ذنب عظيم، حمد الله وشكره على فضله. وانقلب رغبته الآثمة إلى معزة حقيقة شريفة كما ينبغي أن تكون بين كل سيد وتابعه. وإشارة لخلاصها، أرسل في طلب زوجها وكرمه هو وزوجته وكل من جاء منها بعد ذلك وعاشوا مكرّمين بين ذويهم.

وكل هذا حصل بسبب شرف تلك المرأة الطيبة ولأنها استطاعت أن تشير إلى أن أفضل الخصال في البشر هي الحياة، وهي أم ورأس كل الخصال الأخرى.

وأنت سيد الكوندي لوكانور تسألني ما هي أهم الخصال التي يجب أن يتحلى بها البشر، فأقول لك إنه الحياة، لأنه بفضلها يكون الإنسان شجاعاً وكريماً ومهذباً وباراً. والحياة يحسن الإنسان من الرغبات الآثمة. الحياة خير وقده شر ما بعده شر. وكل بشر ضال بفعل المخلل من الأمور ولا يستحي ما دام لا يراه أحد. وأعلم أن كل شيء يفتضح ويُعرف عاجلاً أو آجلاً مهما تسترت عليه. فحتى لو لم يستح المرء حين يجيء بأمر مخلل، عليه أن يتذكر الخجل الذي سيجلبه عليه حين يفتح أمره. وإذا لم يستح من هذا، فعليه أن يخجل من نفسه، لأنه يعلم أن الأمر مستتر بح ذاته. وإذا لم يفكر في أي شيء من كل هذا، عليه أن يفكر في أنه إنسان تعيس (لأنه يعلم أنه لو رأه صبي يفعل فعلته فسوف يتوقف عن ذلك حياء) وعدم التخلّي عن فعل السوء يعني أن المرء لا يستحي من الرب الذي يرى ويعلم بكل شيء وسيعاقبه العقاب المجزي.

ها أنا قد أجابتك سيد الكوندي عن سؤالك. وبهذا أكون قد أجابتك عن خمسين سؤالاً.⁶³ لقد استمتعت إليّ وقتاً طويلاً وأنا على ثقة بازدراك أصحابك، لا سيما أولئك الذين لا رغبة لديهم في سماع ولا تعلم ما ينفع. إن مثلهم كمثل دابة تحمل ذهباً، فهم يشعرون بالثقل ولكنهم لا ينتفعون بقيمتها. وهم يضجرون مما يسمعون ولا ينتفعون حق الانقطاع منه. لذلك أقول لك إنني لا أريد أن أجيبك المزيد فيما لو لديك من أسئلة أخرى بسبب ما ذكرت لك الآن من جهة، ومن جهة أخرى بسبب الإنهاك الذي سببته لي الإجابات الكثيرة عن تلك الأسئلة. لهذا أفضل أن أضع النهاية لهذا الكتاب.

استحسن الكوندي روعة هذا المثال، وقال إنه سيحقق رغبة باتروننيو بـألا يسأله المزيد من الأسئلة، وسيبذل جهده كي يحقق مشيئته.

ولما رأى دون خوان في هذا مثلاً جيداً، أمر بتدوينه في هذا الكتاب. وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

الحياة يطرد كل الشرور

ويجعل من البشر مصدر خير.

مثال 51

⁶⁴ ما جرى لملك مسيحي عظيم ومتكبر جداً

تحدى الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باتروننيو، قائلاً:

- باتروننيو، العديد من البشر يذكرون لي أن من بين الأشياء التي تمكن الإنسان من الفوز برضاء رب هي أن يكون متواضعاً. آخرون يذكرون لي أن المتواضعين يُستهان بهم من قبل الأغلبية ويُشار إليهم بكونهم ضعاف الهمة والقلب، وأن من المفید للسيد العظيم وما يجب أن ينتفع به، هو أن يكون متجرراً. ولأنني أعلم بأنه لا أحد مثلك يدرك ما يجب أن يكون عليه السيد العظيم، أرجوك أن تتصحني أي الغرضين أتفع وما يجب عليّ أن أقوم به.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باتروننيو- لكي يدرك سعادتكم ما هو أفضل وما يقع لكم بموقع حسن، يسرني أن أكلمك بما جرى لملك مسيحي كان له من العظمة والتكبر الشيء الكثير.

رجاه الكوندي أن يخبره كيف كان ذلك.

- سيد الكوندي- قال باتروننيو- في أرض لا أتذكر اسمها، كان هناك ملك شاب، ثري وعظيم، ومتجر بشكل لا يوصف. إلى درجة أن تجراه أوصله لحال وهو يستمع مرة أنشودة

القديسة سانتا ماريا التي تقول:

«Magnificat anima mea dominum»

65 فسمع فيها شطرأ يقول: «Deposit potentes de sede et exaltauit humiles» الذي يريد القول: «لقد طرح ربنا وأنزل المتجبرين المتكبرين من علائهم ومجد المتواضعين». وعندما سمع هذا، أثقل عليه كثيراً وأمر أن يمحى هذا السطر من الكتب في كل المملكة، وأن يكتبوا عوضاً عنه «Et exaltavit potents in sede et humiles posuit in terra». التي تعني: «لقد مجدَّ رب عروش المتجبرين العظاماء وحطَّمَ المتواضعين».

هذا الفعل أثقل كثيراً على الرب، لأنَّه جاء على العكس مما قالته القديسة سانتا ماريا في هذه الأئشودة نفسها، وذلك بعد أن رأت أنها أم ابن الرب التي حملت به ووضعه وهي بتول دون خطيبة، وقد رأت أنها سيدة السموات والأرض، قالت عن نفسها مُعلية من شأن التواضع على كل الفضائل

Quia respexit humilitatem amicillae suae, ecce enim ex hoc»
«benedictam me dicent omnes generationes

الذي يعني: «لأنَّ الله ربِّي قد رأى التواضع في شخصي، وأنَّني من عباده، لهذا يدعونني جميع البشر بالطوباوية: . وهذا ما حصل، لا قبلها ولا بعدها، امرأة أخرى سميت بالطوباوية، لطبيتها وللإشارة لتواضعها الكبير، استحقت أن تكون أمَّ الرب وملكة السموات والأرض، وعلاوة على ذلك أن تصبح سيدة قائمة على جوقة الملائكة».

مع ذلك، فقد حصل للملك المتجبر شيء مختلف عن هذا. ففي أحد الأيام وقد رغب في الذهاب إلى الحمام، وقد كان فخوراً رفقة حاشيته، دخل الحمام وكان عليه أن يخلع ملابسه وأن يترك كل ثيابه خارج الحمام. وبينما كان يستحم، أرسل الرب سيدنا أحد الملائكة إلى الحمام، متذداً هيئة الملك بإرادة وعزيمة الرب، فكان أن خرج من الحمام وقد ارتدى ملابس الملك ومضى الجميع معه حتى القصر. وترك عند بوابة الحمام ملابس مهلهلة ورثة من تلك التي يرتديها الفقراء الذين يطلبون الصدقة عند البوابات.

وبقي الملك، في الحمام دون أن يعلم بأي شيء من هذا، وعندما أدرك أن الوقت أزف للخروج من الحمام، نادى على الحاشية والتابعين الذين قدموا معه، ولكنه بعد أن نادى عليهم كثيراً لم يتلق أي إجابة منهم، فقد رحلوا ظناً منهم قد مضوا برفقة الملك.

بعد حين وقد أدرك أن لا أحد يجيبه، تملكه الغضب وشعر بالإهانة وبدأ يقسم بأنه سيقتله كلهم شر قتلة، فكان أن خرج عارياً ظناً منه بأنه سيلقى رجاله في الخارج ويقدمون له ما عليه أن يرتديه. ما أن وصل إلى حيث اعتقد أنه سيجد البعض من تابعيه، ولما لم ير أحداً منهم، راح ينظر من طرف آخر ولكنه لم يعثر على أحد يمكن أن يوجه إليه الكلمة.

في تلك الحال من القلق ودون أن يعرف ما عليه أن يفعله، وجداً تلك الثياب المهدلة الرثة الملقاة في إحدى الزوايا وفكراً أن يرتديها ليغطي بها عورته حتى داره، وهناك سوف ينتقم بقصوة من كل أولئك الذين استهزأوا به على هذه الصورة. ارتدى الثياب ومضى مباشرة حتى القصر، وعندما وصل هناك، رأى أحد الحراس عند البوابة، وكان يعرفه حق المعرفة لأنَّه أحد حراسه وواحد من أولئك الذين رافقوه إلى الحمام، فكان أن ناداه بصوت خفيض أن يفتح له البوابة وأن يدخله الدار خفية حتى لا يدرك أحد المهاهنة التي تعرض لها.

الحارس وقد أشهَر سيفاً قاطعاً عند الرقبة ويحمل نبوتاً في يده، سأله منْ يكون حتى يتجرأ البوح بهذه الكلمات. فقال له الملك:

- آه يا خائن! أليس كافياً الخزي الذي صنعته بي وقد تركني الآخرون وحيداً في الحمام، وكان أن عدت مهاناً بهذه الصورة؟ ألسْت فلاناً ولا تتعرف إلىَّ وأنا الملك سيدك الذي تركته في الحمام؟ أفتح لي البوابة قبل أن يأتي أحد ويتعرف إلىَّ، وإلا فقسمًا أن أجعلك تموت ميتة لا أقسى ولا أبغض منها.

فأجاب الحارس:

- يا للرجل المجنون المسكين! ما الذي تقوله؟ أمض لشأنك ولا تقل خر علات كهذه، وإنْ فسوف أعقلك أنا على جنونك، لأنَّ الملك عاد منذ لحظات من الحمام ورجع الجميع معه. لقد أكل وأستلقى نائماً، فالحذر من أن تثير اللغو حتى لا يستيقظ.

عندما سمع الملك كل هذا، فكر أنه يقول له هذا ليخرزه أكثر، فكان أن استنشاط غضباً وحزناً ورمى بنفسه عليه حتى يطاله من شعره. الحارس وقد رأى هذا ولم يرد أن يؤذيه باستخدام النبوت، فكان أن ضربه بقوة بالقبض وراح حفظ الدماء تنهال من كل الأمكنة. بعد أن شعر الملك بجراحه ورأى أن الحارس يحمل سيفاً قاطعاً ونبوتاً محكماً، وأنه لا يحمل معه ما يستطيع به من مجابهته، ولا ما يمكنه من الدفاع عن نفسه، فكر أن الحارس قد أصابه الجنون وأن أي شيء يقوله سيودي به إلى التهلكة، فكان أن فكر بالمضي إلى دار رئيس خدمه والاختباء حتى يشفى من جراحه، وبعد ذلك سينتقم من كل أولئك الخونة الذين أذاقوه المهانة.

عندما وصل إلى دار رئيس خدمه، فإذا كان ما جرى له مع الحارس من السوء بمكان، مما حصل له في بيت الخادم أسوأ بكثير.

من هناك مضى حتى دار الملكة زوجته، متخفياً بأكبر قدر من الاحتياط، وقد ظن أنه من المؤكد أن كل السوء الذي مر به لأن أولئك البشر لم يتعرفوا إليه، وقد فكر لو أن كل العالم لن يتعرفوا إليه، فالملكة زوجته، لن تقع في هذا إطلاقاً. بعد أن وقف أمامها وقد أخبرها بسوء ما مرّ به وأنه هو الملك، فما كان من الملكة وقد شكت في أن يكون الملك، وقد كانت تعتقد أنه في البيت، ولو سمحت بكل هذا الهذر سوف يحاسبها عليه ويأمر بأن تُضرب بالعصي، لذا طلبت أن يُطرد من البيت ذلك المجنون الذي يقوم بكل هذا الجنون.

الملك، سيء الطالع، بعد أن رأى سوء حظه، لم يعرف ماذا يفعل فكان أن مضى حتى المشفى مضعضاً وجريحاً، وبقي هناك لأيام عديدة. وعندما كان يصيّبه الجوع كان يمضي من باب آخر وهو يخبر الناس بمذلته وأنه يمضي بائساً على الرغم من كونه ملكاً على تلك الأرض. العديد من البشر كانوا يقولون له ذلك ومرات عديدة وفي أماكن عدة حتى ظن بأنه مجنون حقاً، وأن جنونه يحمله على التفكير بأنه ملك تلك الأرض. وعلى هذا المنوال أمضى وقتاً طويلاً وقد فكر كل من يعرفه بأنه كان مجنوناً وأن جنونه قد حصل للكثيرين الذين يعتقدون أنهم شيء آخر وأنهم في حال آخر.

وبينما كان ذلك الملك في سوء حال، فرحة رب ومحترمه التي يريد بها مسامحة المذنبين والعثور لهم على طريقة لإنقاذهم مهما كان الذنب كبيراً، فكان أن جرى أن الملك سيء الطالع

وبسبب تكبره قد وقع في هلاك ومذلة كبارين، قد بدأ التفكير بأن الشر الذي يحيط به كان بسبب خطئته وبسبب تجراه الكبير، ليشير إلى أن كل ذلك قد وقع لأنه كان قد أمر بحذف ذلك الشطر من أنسودة القديسة سانتا ماريا وأنه كان يتصرف بطيش وجنون كبيرين. وبعد أن فهم هذا بدأ يشعر بألم كبير وتوبة عظمى تسكنان قلبه، لا أحد يستطيع قوله بالكلمات. فقد كان ألمًا وأسفًا أعظم من فقده لمملكته، هي تلك المعاصي التي أقترفها بحق ربنا. ورأى بوس حاله، لهذا لم يجد شيئاً آخر غير البكاء والتضرع وطلب الرحمة من الرب سيدنا كي يغفر له ذنبه وأن يمنح روحه التوبة. لقد كان ألمه كبيراً بسبب ذنبه، إلى درجة أنه لم يتذكر ولم يضع في ذهنه طلب رحمة الرب سيدنا أن يعيد له مملكته وشرفه، لأنه لم يكن يعتبر أي شيء من هذا ولم يتمسك بشيء أكثر من طلب المغفرة عن ذنبه وإنقاذ روحه.

لتكن واثقاً، سيدي الكوندي، أن الكثير من من يقومون بالحج والصوم والزكاة والصلة والكثير من الأشياء الأخرى فقط لأجل أن يعطيهم الرب، وأن يحفظهم أو أن يعافيهم في صحة أجسادهم، في عفتهم أو في أملاكهم المؤقتة، وأنا لا أقول أنهم لا يقومون بالشيء الصائب، بل أقول إنهم لو يقومون بعمل كل هذه الأشياء لطلب المغفرة عن جل ذنبهم أو لطلب نعيم الرب، وهو ما يكسبونه بالأعمال الصالحة والنوايا الطيبة بلا نفاق ولا ادعاء، فسوف يكون ذلك أفضل لهم ويكسبون بلا شك المغفرة عن ذنبهم ورحمة الرب، لأن ما يطلبه الرب من المذنب هو أن يمضي بقلب جريح ذليل وبنية صائبة حسنة.

لهذا وبعد أن تاب الملك عن ذنبه برحمة من الرب، وكان أن رأى الرب توبته النصوح، فقد سامحه على الفور. ولأن مشيئة الرب من العظمة ألا تقاس بحد، لم يغفر فحسب كل ذنوب الملك، بل أعاد إليه مملكته وكرامته أكثر مما كان عليه، وقد عملها على هذه الشاكلة:

الملك الذي كان على هيئته وفي مكانه كملك، نادى على حارسه وقال له:

- أخبروني أن هناك رجلاً مجنوناً يدعى أنه ملك هذه الأرض ويقوم بفعل الخزعبلات،
ليعينه الرب، أي صنف من الرجال هو وأي أشياء يقول؟

وحصل مصادفة أن الحارس كان هو نفسه في ذلك اليوم الذي خرج فيه الملك عارياً من الحمام. والملك، والحارس يعتقد بكونه الملك، سأله عن كل ما جرى مع ذلك المجنون، وهذا راح

يحكى له كيف أن الناس تسخر منه وتنسلى به وهم يستمعون لما يقوله من أفعال مجنونة. بعد أن أخبر الحارس الملك بكل هذا، أمره أن يمضي لمناداته وأن يأتي به إليه. بعد حين جاء الملك الذي كان في رداء المجنون ووقف أمام الملك الذي كان في رداء الملك، فكان أن انفرد به وقال له:

- إيه أيها الصديق، يقولون لي إنك تدعى أنك ملك هذه الأرض وأنك قد فقدتها، ولا أعرف إن كان لسوء طالع أم لسبب آخر. لذا أرجوك لإيمانك بالرب، أن تقول لي كل ما تفكرين فيه وألا تخفي عني شيئاً، وأعدك أن كل شيء مما ستقوله لن يضرك بشيء إطلاقاً.

عندما سمع الملكحزين الذي يمضي بهيئة المجنون البائس كل ما جاء على لسان من يعتقد أنه ملِيكه، لم يعرف كيف يجيب؛ لأنَّه من ناحية كان يشعر بالخوف فيما لو يسأله ليتملقه، ولو أخبره بأنه الملك فسوف يقتله ويتحول إلى بائس أكثر مما هو عليه، لهذا راح يجهش بالبكاء طويلاً، وقال ذلك كرجل حزين جداً:

- سيدِي، أنا لا أعرف كيف أجيب عما تُسألي عنه، لأنني أعتقد أن الموت أفضل لي من الحياة (ويعلم الرب أنه لا رغبة لي في جاه أو شرف في هذا العالم) لهذا لا أريد أن أخفي عنكم شيئاً مما ينوه به قلبي. أقول لكم سيدِي، لأنني لا أراني مجنوناً مثلاً ما يقول الجميع ويفعلون من الأفعال التي تجعلني أعيشها بهذه الصورة منذ وقت طويل في هذه الأرض. وعلى الرغم من أن البعض يمكن أن يخطئ فلا يمكن أن يكون ذلك، ولو كنت مجنوناً كما يظن كل البشر، الطيبون منهم والسيئون، الكبار والصغار، ذوو الفهم ومن يفقدون له، فيما لو أن الجميع يراني مجنوناً، وأنا أرى ذلك وأفهمه بهذه الصورة، فمن المؤكد أن نيتِي ومحققي يخبراني إنني كنت ملك هذه الديار وقد فقدت مملكتي بحكمة الرب وعدالته بسبب ذنبي، والأكثر من ذلك، بسبب تكبري وتجيري.

عندما حكي، بحزن كبير وغزارة في الدموع كل ما جرى له، سواء عن ذلك الشطر الذي أمر بتغييره أو عن ذنبه الآخر. حينذاك وقد فهم الملك، الذي وضعه الرب بهيئة الملك، منه أنه يتآلم بسبب أخطائه أكثر من فقده لمملكته وشرفه، فكان أن قال له بأمر من الرب:

- أيها الصديق، أقول لك إن ما تقوله صائب تماماً، وإنك كنت ملك هذه الديار وإن الرب سيدنا قد سلبها منك للأسباب التي ذكرتها، وقد أرسلني أنا ملاكه لكي أحل محلك متخدناً هيئتاك. ولأن تقوى الرب لا يعادلها شيء وأنه لا يرغب من المذنب غير الاعتراف بذنبه صادقاً⁶⁶ وهذه

المعجزة تُظهر التوبة الصائبة في شيئين: الأول أن يتوب حتى لا يعود الذنب والآخر أن تكون توبة بلا ادعاء. ولأن سيدنا الرب قد أدرك توبتكم وقد غفر لكم وقد أمرني أن أرجعك لهيئتك السابقة وأن أرجعك لمملكتك. لذا أرجوك وأنصحك بأن تبتعد عن كبائر الذنوب وهو ذنب التكبر، ولأنك تعلم بأن البشر بطبيعتهم يقعون في شرك الذنوب، وإذا كان الرب يمتنع منها تلك التي هي حقيقة تمضي بالضد من الرب وعظمته وتلك التي تساهم بفقدان الروح. لتكن متأكداً أنه لم توجد في أرض إطلاقاً ولا مقاطعة أو دولة أو بشر، حيث يحكم هذا الذنب، ما لم يتم القضاء عليه وتحطيمه.

عندما سمع الملك الذي كان يمضي بهيئة المجنون كل ما جاء في كلام الملك، سقط أمامه وراح يبكي بقوة وصدق بكل ما قاله وعظمته في إشارة للرب، والذي كان مرسلًا منه، وطلب أنه من الثواب ألا يغادر حتى يجتمع كل الناس وأن ينشر بينهم معجزة ما صنعه ربنا. وهذا ما عمل به الملك. وبعد أن اجتمع الجميع، خطب الملك وقص كل ما جرى له. والملك بقدرة الرب، ظهر للجميع عليناً وحكي لهم الشيء نفسه.

حينذاك قام الملك بعدة تعليمات فيما يخص الرب سيدنا، ومن بين هذه الأشياء، أنه أمر في الاتفاق حول هذا أن يكتب في كل مملكته بحروف من ذهب ذلك الشطر الذي أمر بتغييره. وسمعت أنه حتى اليوم ما يزال يُحفظ في تلك المملكة.

عندما أنتهى كل ذلك، مضى الملك عند الرب سيدنا الذي أرسله، وعاش الملك مع ناسه بفرح وسعادة. ومنذ ذلك الوقت عمل الملك أشياء طيبة في خدمة الرب ونافعة لشعبه، وعمل أشياء عديدة أخرى نال بموجبها الشهرة في هذا العالم واستحق مجد الفردوس، الذي يريد الرب أن يكافئنا به.

كما ترى، سيد الكوندي لوكانور، إذا ما شئت مغفرة الرب والسمعة الطيبة في العالم، فلتقم بالأعمال الصالحة والأفعال الطيبة، بلا ادعاء ولا نفاق، وأن من بين كل أشياء العالم، لتحذر التكبر ولتكن متواضعاً بلا مراء ولا زيف، ولكن ليكن التواضع دائماً ما يحفظ لنا وضعنا، أن تكون متواضعين بلا ذل. التكبر المتعجرف لن يجد فيك أبداً تواضعًا يخل من شرفك، ولا بالاستحقاق، بل إن كل من يسعون لإذلالك يجدون فيك التواضع دائماً في الحياة وفي الأعمال الحسنة.

عظم الكوندي هذه النصيحة جداً وتضرع للرب أن يرشده حتى يستطيع إتمام كل هذا وحفظه.

ولأن دون خوان قد أعجبه جداً هذا المثال، فقد دونه في هذا الكتاب وخط هذين البيتين وفيهما يقول:

يَمْجُدُ الرَّبَ كَثِيرًا أَعْمَالَ الْمُتَوَاضِعِينَ الْعَادِلِينَ،
وَيَحْطُمُ بِقَسْوَةِ أَشْدَادِ الْمُتَكَبِّرِينَ.

الجزء الثاني من كتاب الكوندي لوكانور وباترونويو⁶⁷

البرهان على ما عمله دون خوان تقريراً

⁶⁸دون خايمه، سيد خريكا

أنا دون خوان، ابن الرجل النبيل الإنفانتي دون مانويل، الضابط الأقدم في مشاة مملكة Murcia، وبعد أن أتممت كتابي هذا الكوندي لوكانور وباترونويو الذي يتحدث عن الأمثال، على الطريقة التي استمعت إليها، وحسب ما جاء في الكتاب وفي المقدمة، فقد جعلته على طريقة فهمت أنها الأسهل على الإدراك. وهذا الذي قمت به ذلك لأنني لست أدبياً ولم أنشأ أن أترك فرصة التمتع به من قبل أولئك الذين لا يوسمون بالأدباء، وهم مثلث لا يمتون بصلة للأدب، مما حدا بي أن أدرج الحجج والأمثال الواضحة السهلة التي يضمها هذا الكتاب.

ولأن دون خايمه، سيد خريكا Jérica، وهو واحد من أكثر رجال العالم محبة عندي بحيث لا يعادله أحد آخر، فقد قال لي إنه يرغب في أن تتحدث كتبتي بغموض، ورجاني فيما لو كتبت كتاباً إلا يكون واضحاً تماماً، وأجزم أنه قد قال لي ذلك لبراعته ولفمه الكبير ولمعرفته التي تتأي بالحديث عن الأشياء السطحية والواضحة. ما عملته حتى هذه الساعة، وقد عملته للأسباب التي ذكرتها أعلاه، والآن لي رغبة أن أكمل هذا، وشيء آخر متى ما ساعدتني الإرادة على ذلك، سأتحدث في هذا الكتاب عن الأشياء التي أفهمها والتي من الممكن أن يستغلها البشر لإنقاذ أرواحهم وأجسادهم والحفظ على شرفهم وأحوالهم. وعلى الرغم من أن هذه الأشياء ليست نافعة بمكونها، كما لو تحدثت عن علوم اللاهوت أو الميتافيزيقيا أو الفلسفة الطبيعية، بل وحتى الأخلاق، أو أي

علوم بارعة أخرى، أفكر في أن ما ينفعني وما أجده مفيداً حسب وضعيتي، هو الحديث عن مادة الفن الآخر أو العلم. وكما أن هذه الأشياء التي أفكر في الحديث عنها هي بالنسبة لي مفيدة، سأقول وعلى بركة رب، ما كنت قد قلته في كلمات ذات منفعة مع دون خاييمه، وأن من سيفهمها فخير على خير والذين لن يفهموها عليهم لا يعلقوا الخطأ في رقبتي لأنني لم أنشأ أن أقول فيها ما قلته في كتب أخرى، بل أن يضعوا وزره على دون خاييمه الذي طلب مني ذلك، أو لأنهم لا يستطيعون أو لا يرغبون في الفهم.

وهكذا تنتهي المقدمة التي يُفهم منها سبب تأليف هذا الكتاب ولماذا تم التفكير في وضعه بهذه الطريقة، فمن الآن وقدماً ستبدأ مادة الكتاب. الرب برحمته وتقواه أن يكون بخدمته وأن ينفع به من سيقرأه ويستمع إليه، وأن يعزف عن قول أي شيء مما يجاور الممنوعات. أفكر جيداً في أن من يقرأ هذا الكتاب وكتباً أخرى كتبتها سابقاً، وأشياء قليلة أخرى مما يمكن أن تحدث في حياة وأعمال البشر، إلا يجد شيئاً منها في هذه الكتب، ذلك إنني لم أنشأ أن أدرج في هذا الكتاب من أشياء كنت قد وضعتها في كتب أخرى، بل مع الأخرى أكون قد ألفت كتاباً يجعل منه عملاً تاماً.

صيغة الكتاب هو أن يتحدث باترونويو مع الكوندي لوكانور كما سترون فيما بعد.

- سيد الكوندي لوكانور- قال باترونويو- لقد حدثتك حتى الآن بوضوح تام قدر ما أستطيع، ولأنني أعرف أنك ترغب في أن أحذرك في هذه المادة بشكل واضح، بطريقة لا تشبه ما جاء في الكتاب الآخر الذي صدر قبل هذا. فالكتاب الآخر قد انتهى، وهذا الكتاب يبتدئ بهذه الطريقة:⁶⁹

- الأشياء التي تضم مثيلاتها الكثير لا يمكن أن تصبح قاعدة عامة.⁷⁰

- الأكثر انضباطاً من البشر هو الأكثر معرفة بالحقيقة ويحافظ عليها.

- العقل الأسوأ هو الذي يترك ويفقد ما يطوله، ولا ثمن للذي في طبيعته قلة المطاولة.

- آه يا إلهي، السيد الخالق التام! كيف أندهش وقد وضعت مثيلك في الرجل الأحمق، ما أن يتحدث حتى يخطئ، وعندما يصمت يدلل على خطأه، عندما يكون ثرياً يشعر بالفخر، وعندما يصبح فقيراً لا يقدر أحداً، العمل الذي لا يعمله هو عمل نافع، وإذا كان خاماً يفقد كل ما في حوزته، متكبرٌ على منْ هو أقدر منه، ومهزومٌ أمام الذي يستطيع أكثر. من السهولة الضغط ومن

السوء التوسل. يدعو باسترخاء ويدعو بشكل سيء ومتاخر، يطالب بأي شيء ويتعنّت. يعطي متاخرًا باشمئزاز وبلا رغبة. لا يخجل من أخطائه ويمقت من ينصحه.. تملقه مزعج، غضبه باللوم. مشكوك به وفاضح للسر، يهيج بلا سبب، يجتهد حيث لا وجوب للاجتهاد. عندما يفكري يثير التأسف بدلاً من المتعة، ضعيف في الطيبات وصارم في المساوى، لا يُنصح بالقول بما يعارض إرادته، يوم سيء منْ ولد ليسمع لنصحه. إذا ما رافقوه لا يُشكّر، بل يجعلهم يتأسفون. لا يعي في قول ولا فعل، ولا يخطئ فيما لا ينفعه، ما يقوله لا يفهم منه شيء ولا يفهم ما يقولونه له. دائمًا ما يسير مخالفًا رفقته. لا يغير في ملذاته ولا يراقب مده. لا يريد الصفح ويرغب في أن يصفحوا عنه. هايل وهو المهزلة. راغب الخديعة فيما لو عرف عملها. من كل ما يتمتع به يقول إنه الأفضل وهو غير ذلك. يرغب الراحة وليعتقد الآخرون عنه. ماذا أقول بعد؟ في الأفعال والأقوال، يخطئ فيها كلها. في البقية، من هيئته يبدو كأحمق، والعديد منهم حمقى وإن لم يبدو، بل من يبدو فيهم لن يترك أن يكون أحمق.

- كل الأشياء لها نهاية، تستمر قليلاً وتظل بفضل العمل الكثير، ولا ثُهُجَر إلا بألم كبير، ولا يبقى أي شيء آخر إلى الأبد، بل يظل وحسب ذلك الذي يكون حباً بالرب.

- ليس عاقلاً من يسعى وحسب لجمع المال. بل منْ يعرف كيفية استخدامه والشرف به كما يجب.

- ليس بعقل جيد ذلك الذي يفتخر بإعطاء النصائح الجيدة، بل هو عقل أولئك الذين يقول لهم ويفعلون بها.

- في الأشياء قليلة الأهمية، من النافع الكلمات الرائعة. في الأشياء الأكثر أهمية، من النافع الأفعال الرائعة الحميدة.

- من الأفضل أن يمضي الرجل عارياً على أن يتستر بالأعمال السيئة.

- من له ابن بطبع سيئة، مخلجة ولا يقابل ذلك بالعقاب المناسب، فمن الأفضل له أن يكون بلا ابن.

- أن تسير وحدك أفضل من الرفقة السيئة.

- من الأحسن أن تعيش عازباً على أن تتزوج بامرأة عبيدة.
- لا يبقى المال المجموع بالسوء، وإن بقي فلن يدوم.
- ليس اعتقاداً في شأن بعيد ذلك الذي يضع فيه الحل الأسوأ.
- أشياء عديدة من الممكن أن تكون قريبة وأخرى بعيدة، إذاً من الأفضل أن يتمسك الإنسان بالشيء المؤكد.
- بنشوة وخمول يخطئ البشر في أشياء كثيرة، العقل الكبير منْ يعرف المحافظة على الاثنين.
- الحكيم منْ يعرف المعاناة ويحافظ على وضعه في الزمان المضطرب.
- بهمة وخطر سيعيش من يخشع مستشاريه ويعتقد أنهم يرغبون في منفعتهم أكثر من منفعته.
- منْ يزرع في الوقت غير المناسب، لن يندهش عندما لا تكون الغلة وفيرة.
- كل الأشياء الجيدة تبدو جيدة وكل الأشياء السيئة تبدو سيئة، وأخرى تبدو جيدة وهي سيئة، وتبدو سيئة وهي جيدة.
- أفضل الآمال هي تلك التي تمضي فيها في الطريق الصائب حتى لو لم تعثر على ما تريده، عن أن تمضي في الطريق المائل وتحصل على ما تريده.
- من الأفضل للرجل أن يبتعد عن السيد الظالم عن أن يكون من حاشيته.
- منْ يخدع في الحب الحقيقي، فإنه يحب. ومنْ يتملق فإنه يكره.
- منْ يضع الإرادة فوق المنطق، إنما يعرض الروح والجسد لخطر عظيم.
- أن تستخدم أكثر من اللازم لذائق الجسد، فذلك تحطيم للروح وإضعاف للجسد وتحجيم للعقل والتصرف الحسن.

- كل الأشياء تكمن في ضبط النفس، والعادة في الثقل.
- مَنْ لَا أَصْدَقاءَ لَهُ إِلَّا مِنْ بَيْنِ مَا يَمْنَحُهُمْ، لَنْ يَظْلَمُوا إِلَى جَانِبِهِ طَوِيلًا.
- شيءٌ كريهٌ مَنْ يَرْغُبُ فِي الصَّحَّةِ السَّيِّئَةِ.
- مَنْ يَرِيدُ التَّسِيْدَ عَلَى نُوِّيهِ بِالإِكْرَاهِ وَلَيْسَ بِالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ، قُلُوبُهُمْ سَتَخْتَارُ مِنْ يَتَسَيَّدُ
عَلَيْهَا.
- عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَدُوثِهِ، فَمِنَ الصَّعْبِ أَنْ تَكُونَ مُخْتَلِفًا عَنِ الرَّعِيَّةِ.
- الْبَشَرُ صَنُوْمٌ مَنْ يَرَافِقُهُ.
- الْعَقْلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَغَامِرَةِ وَالْجَاهِ وَالنَّسْبِ.
- يَعْتَقِدونَ أَنَّ الْعَقْلَ وَالْجَهَدَ شَيْئَانِ مُخْتَلِفَانِ، وَهُمَا الشَّيْءُ نَفْسَهُ.
- مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ تَخْسِرَ فِي عَمَلِكَ الْمُسْتَقِيمَ عَنْ أَنْ تَرْجُحَ فِي الْأَعْمَالِ الْمَائِلَةِ، الْإِسْتِقَامَةُ تَسَانِدُ
الْمُسْتَقِيمَ.
- لَيْسَ عَلَى الْبَشَرِ الْوُثُوقُ بِالْمَغَامِرَةِ، فَالْأَزْمَنَةُ تَنْتَقِلُ وَالْمَغَامِرَاتُ تَنْتَوِفُ.
- لَا فِي الْغَنِّيِّ وَلَا فِي الْفَقْرِ، لَا فِي الْحَظِّ الْحَسَنِ وَلَا السَّيِّئِ، مَا يُجْرِي الْبَشَرَ عَلَى النَّأْيِ عَنِ مَحْبَةِ
الرَّبِّ.
- ضَرَرٌ كَبِيرٌ يَحْيِقُ بِالْإِنْسَانِ مِنَ الَّذِي يَضَايِقُهُ عَنْ ذَلِكَ الَّذِي يَسْعَى لِلْمَسَاعِدَةِ.
- لَيْسَ حَكِيمًا مَنْ يَتَخَلَّصُ مِنْ عُدُوِّهِ وَيَسْعَى لِتَأْخِيرِهِ.
- مَنْ لَا يَتَوَجِّهُ بِالإِشَارَةِ لِنَفْسِهِ لَنْ يَسْتَطِعُ تَوْجِيهَهَا لِلآخِرِينَ.
- السَّيِّدُ الْمُدَاهِنُ مُمْقُوتٌ، الْعَنِيفُ مُكْرُوهٌ، وَالْعَاقِلُ حَافِظٌ عَلَيْهِ بِالْعَدْلِ.
- مَنْ يَسْعَى لِلْمَنْفَعَةِ الْقَلِيلَةِ عَبْرَ شَيْءٍ كَبِيرٍ، فَهُوَ فَاسِدُ الْعُقْلِ.

- طوبى للذى يعلم بعذاب الأشباح ولا يشكو من ضررها.
- الذى يستطيع قول أو فعل ما يريح، فهو مداهن، وإنما فالأفضل الحفاظ على القول أو الفعل من ضرره.
- محبُ التواضع باعتدال.
- كلما كان المصعود كبيراً، فالهبوط أسوأ.
- صلاح السيد يظهر فيما يعمله وما يسنه من قوانين.
- أن يترك السيد للشعب ما يتوجب له عليهم، سيأخذ منهم ما ليس عليهم.
- من لا يسعى في الأفعال الحسنة ما يلزمها، لن تساعدك عندما يرغب بما يلزمك.
- من الأفضل أن تعاني الجوع على أن تلتهم لقماً فاسدة.
- من الوضع لا يستفيد البشر إلا ظلماً، ومن الشرفاء الطيبين، المحبة والأعمال الحسنة.
- هناك حقيقة طيبة وأخرى سيئة.
- ضرر كبير أغلب الأحيان تلك التي تحدثها الكلمة السيئة عن العمل السئي.
- ليس عذراً أن يكون تعيساً من أحكم التعasse على آخر.
- من يُحب أكثر مما يتوجب عليه الحب، فسيكون ممقوتاً.
- الجهل الأكبر هو من لا يعرف ذاته، فكيف إذاً سيتعرف إلى الآخر؟
- الحكيم من يعرف الفوز في الخسارة، ويعرف الخسارة فيربح.
- الذي يعلم، يعرف أنه لا يعلم، والذي لا يعلم، يعتقد أنه يعلم.
- سُلم المكافأة في التفكير والسلام هي الأعمال.
- من لا يتمتع في النهايات، سيبتدئ وهو يخطئ.

- مَنْ يَشأُ الْإِنْتِهَاءُ مَا يَرْغُبُ، سَيَرْغُبُ مَا يَمْكُنُ أَنْ يَنْتَهِي.
- عَنْدَمَا لَا يَمْكُنُ أَنْ تَفْعُلُ مَا يَرْغُبُهُ الْبَشَرُ، سَتَرْغُبُ بِمَا يَمْكُنُ أَنْ تَفْعُلَهُ.
- الْعَاقِلُ يُجِهُ الْمَجْنُونُ وَلَا يُجِهُ الْمَجْنُونُ الْعَاقِلَ.
- الْمَلِكُ يَحْكُمُ، أَمَّا الْمَلِكُ الَّذِي لَا يَحْكُمُ فَلَيْسُ بِمَلِكٍ، وَإِنَّمَا مَمْلُوكٌ.
- الْكَثِيرُ مَنْ يَذْكُرُ الرَّبَّ وَيَتَحدَّثُ عَنْهُ، وَالْقَلِيلُ مَنْ يَسْعَى فِي دُرُوبِ الرَّبِّ.
- شَيْءٌ مَهْلِكٌ تَعْلِيمُ الْأَخْرَسِ وَقِيَادَةُ الْأَعْمَى وَدُفْعَةُ الْمَشْلُولِ إِلَى الْقَفْزِ، بَلْ الْأَكْثَرُ هُوَ قَوْلُ الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَةِ بَيْنَمَا تَفْعُلُ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ.
- مَنْ تَعُودُ عَلَى صَنْعِ الشَّرِّاكِ كَيْ يَوْقَعُ بِالْبَشَرِ، سَيَحْضُرُهَا لِلآخرِ وَيَقُعُ فِيهَا هُوَ نَفْسُهُ.
- نَصِيحَةٌ مَمْقوَتَةٌ تُلَكَ الَّتِي لَا تَعِيشُ الْحَيَاةَ الْجَدِيرَةَ بِهَا.
- كَمْ هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَنَادُونَ بِالْحَقِيقَةِ وَلَا يَمْضُونَ فِي طَرِيقِهَا.
- طَوْبَى لِلْعُقْلِ الْمَدْهُشِ الَّذِي جَعَلَ غَرِيمَهُ يَقُعُ فِي الْحَفْرَةِ الَّتِي أَعْدَاهَا لَهُ كَيْ يَقُعُ فِيهَا.
- مَنْ يَرِيدُ لِبَيْتِهِ أَنْ يَصْمَدَ، فَلْيَحَافِظْ عَلَى الْأَسَاسِ وَالْأَعْمَدَةِ وَالسَّقْفِ.
- قَوْلُ الْحَقِّ وَالْوَفَاءِ وَأَلَا يَتَحدَّثُ بِمَا لَا يَسْتَحِقُ، يَرْفَعُ الرَّجُلَ إِلَى مَرْتَبَةِ عَالِيَّةٍ.
- أَفْضَلُ الْأَعْضَاءِ فِي الإِنْسَانِ هُوَ الْقَلْبُ، وَهُوَ الْأَسْوَأُ كَذَلِكَ.
- مَنْ لَا يُعْلِمُ وَيَنْصَحُ أَبْنَاءَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِي زَمْنُ التَّعْنُتِ، دَائِمًاً مَا سَيُواجِهُ بِذُنُوبِهِمْ.
- أَفْضَلُ شَيْءٍ يَخْتَارُهُ الْبَشَرُ فِي هَذَا الْعَالَمِ هُوَ السَّلَامُ بِلَا عُزَّوْ وَلَا خُجلٍ.
- عَنِ الْكَلَامِ يَصْدُرُ خَيْرٌ كَثِيرٌ. عَنِ الْكَلَامِ يَصْدُرُ شَرٌّ كَثِيرٌ.
- عَنِ الصَّمْتِ يَصْدُرُ خَيْرٌ كَثِيرٌ. عَنِ الصَّمْتِ يَصْدُرُ شَرٌّ كَثِيرٌ.
- بِالْعُقْلِ وَكَبْحِ النَّفْسِ وَالْمَنْطَقِ تَفَسُّرُ وَتَحْكُمُ عَلَى الْأَشْيَاءِ.

- كم هو عاقل هو ذلك الذي عليه أن يقطع طريقاً طويلاً ويمر بمرافق صعبة لكي يريح الثقل الذي حمله ويزيد من الحاصل.
- عندما يكون الملك بعقل راجح ونصيحة طيبة وحكيم بلا خبث، فهو جيد للشعب، وعلى العكس.
- من يطرد المشرك عن معرفة الرب بسبب طمعه، فمن العدل ألا يرضى عنه الرب.
- من يمنحه الرب النصر على عدوه، فليحافظ على ذلك الذي نصره.
- إذا كان العمل لا يصنع فعلاً كبيراً، فالعمل الجيد ليس بفعل كبير. العمل عمل عندما يفعل العمل فعله. وعمل كبير وجيد هو ذلك الفعل الكبير والجيد الذي يأتي من اللا فعل.
- ظروف طبيعية ومعارك ميدانية تنسف وتقتسم الممالك الكبرى.
- قيادة السفينة، نهاية الصراع، وشفاء المريض، وزرع البذرة وجمع زوجين لا تتم إلا بنصيحة إنسان وإرادة ونعمة الرب الخاصة.
- لن يكون إنسان مجبولاً بالإخلاص التام ما لم يثبت به أعداؤه بأجسادهم وأعمالهم. فلتنتظر لماذا يؤخذ على الإنسان عندما لا يعتاد أصحابه الوثوق به.
- من ينتخب داراً في أرض حيث لا حضور لسيد عادل، مخلص ومكافئ، طبيب حكيم ووفرة من المياه، سيعرض نفسه ومن معه لعواقب لا تحمد.
- كل إنسان طيب، ولكن ليس لكل الأشياء.
- الرب يحفظ البشر من فعلسوء لأنه بإخفائه سيكون عليه عمل آخر أو أشياء سيئة كثيرة.
- من يدفع على القسم آخر يريد الكذب، فعليه جزء من الذنب.
- من يقوم بفعل الخير للطيبين وللأشرار، سيعاقب بطيبة من الطيبين والاحترام من السيئين.
- الإذعان للملك وإطاعة الأمراء، احترام كبار السن وفعل الطيبات للصغرى ونصح الأوفياء، سيكون الإنسان عندها آمناً ولن يندم.

- مَنْ يهْرَا مِنَ الضرر أَوْ سُوءَ مَا يجيءُ مِنْ عَمَلٍ رَبَانِيٍّ، لَنْ يَكُنْ وَاثِقًا بِأَنَّهُ لَنْ يَحْدُثْ لَهُ.
- لَيْسَ عَلَى الْبَشَرِ تَأْجِيلُ الْخَيْرِ، حَتَّى لَا يَضُرَّ فِي الإِرَادَةِ.
- مِنَ السُّوءِ أَنْ يَصُومُ الْفَمَ فَقَطَّ، بَيْنَمَا يَذْنِبُ كُلُّ الْجَسَدِ.
- قَبْلَ أَنْ يَخْتَارِ الْأَصْحَابَ، عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَثْقُبَ بَهْمَ وَيَغْامِرَ مَعَهُمْ كَثِيرًا.
- مَنْ يَمْدُحُكَ فِي قَوْلِ الْحَقِيقَةِ، لَنْ تَكُونَ وَاثِقًا مِنَ أَنَّهُ سَيَنْتَقِدُكَ أَكْثَرَ عِنْدَمَا تَحْضُرُ الْحَقِيقَةَ.

الجزء الثالث من كتاب الكوندي لوكانور وباترونبيو

ما قدمه باترونبيو من تبريرات للكوندي لوكانور

سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- بعد أن انتهى الكتاب الآخر وهو ما فهمت منك أنك تريده على هذه الشاكلة، فقد بدأت الحديث في هذا الكتاب بصورة أشد اختصاراً وأكثر غموضاً مما كنت عليه في الكتاب الآخر. على الرغم مما قلته لكم في هذا الكتاب هناك كلمات أقل مما في الآخر، تعلم أنه ليس تقليلاً من الاستخدام أو الفهم عما عليه في الآخر، فقبل ذلك كان كبيراً لمن يرغب بدراسته وإدراكه، ذلك أن الكتاب الآخر يضم خمسين مثلاً وفي هذا تصل المائة. ففي هذا وفي الآخر هناك أمثل متعددة، أفكر أنها كافية، وأرى أنكم ستكونون منصفين لو تركتموني أستريح من الآن ولاحقاً.

- باترونبيو- قال الكوندي لوكانور- تعرف حق المعرفة أن الإنسان بطبيعة الحال لا يستطيع الاستغناء عن ثلاثة أشياء ودائماً ما يرغب بالمزيد منها: واحدة هي المعرفة والأخرى هي الشرف والتقدير والثالثة هي الاستزادة في الحياة. وكما أن المعرفة شيء رائع، أفكر في أنك لا تريد أن تدينني لأنني أرحب في المزيد ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولعلمي أن لا أحد يضاهيك معرفة، فلتتعلم، أنني ما دمت حياً، لن أقطع من الإلحاح عليك أن تزیدني أنما تعرف وما يمنحي فرصة التعلم.

- سيدى الكوندى لوكانور- قال باترونبو- أرى الأسباب والتوايا الطيبة التي تدفعك لذلك، أقول لكم الحق إنني أطمح بالعمل أكثر وسأمنحكم الفهم حول أشياء لم أقل فيها قولي حتى الآن. لأننى أقول الحق لمرات عديدة وذلك لكسب مشار له، وليس متلماً يبدو أن ما أريد قوله ما أن يسمعه الأخرق حتى يعيده عشرات المرات من أجل فهمه ولا أريد به أن يملأ الكتاب لأننى لا أعرف بماذا يمكن ملئه. ومن هنا وقدمًا ما أريد قوله ويبيتدىء على هذه الشاكلة: - إن الثمين غالٍ، وثمنه غالٍ، ويُحفظ غالياً، وينتهي غالياً. أما الرخيص فهو رخيص، ثمن بخس، يُكسب رخيصاً وينتهي رخيصاً. الثمين رخيص، والرخيص ثمين.

- شيء رائع أن تجد من يثق في نفسه ويعمل الحسنات عن أن يخطئ، ويمضي بلا قلب كبير ذلك الذي يحمل على كاهله ثقل الدين.

- لا يجب على المرء أن يعتقد أنه لا يجرؤ على شيء بمساعدة الآخر عن ذلك الذي يجرؤ مع الآخر بمساعدته.

- بعقل يتم المحافظة على العقل. العقل يمنحك عقلاً للذى لا عقل له. دون عقل لا يتم المحافظة على العقل.

- هكذا هي شارة الرب وأفعاله وقليلون من يدركون ذلك حتى لو ذكروه كثيراً.

- العاقل ليس ذلك الذي لا يستطيع أن يكسب صديقاً، بل هو ذلك الذي لا يجعل منه عدواً.

- من يعتقد أنه يتعلم من البشر كل علم فهو خاطئ، يتعلم من يستغل ذلك وينجح فيه.

- النصيحة لو كانت كبيرة، فهذا جيد. اعمل على النصح الجيد وامنح النصيحة الجيدة، ولبِ نصيحة من ينصح سوءاً لفعل النصح الطيب. سوء النصيحة لنصح جيد يؤدي إلى سوء نصيحة. النصيحة الكبرى تلزم نصحاً أكبر. الفعل الخير للذى يريد ويعتقد بالنصيحة الجيدة.

- الألم الأكبر يجعلك تنسى ذلك الذي لم يكن كبيراً.

- من عليه أن يتحدث في أشياء عديد مرة واحدة، هو مثل ذلك الذي يريد فك كرة صوف بخيوط متسلبة.

- كل الأشياء تولد صغيرة وتنمو، الحزن يولد كبيراً وكل يوم يتضاعل.
- بكل شرف يستحق الشرف كل من يقوم بأفعال مُشرفة. الشرف يُولد الشرف، فلتحافظ عليه.
- الحكيم من الأفعى يصنع الترافق⁷¹، وممضطرب العقل يصنع من الدجاجة سماً.
- من يفقد سلطته لن يكون واثقاً أن يعود إليها متى ما رغب في ذلك.
- ليس نبيهاً من يُصغِّر من شرفه ليزيد من تلك التي لا صلة لها بها.
- من يعمل معروفاً لأنَّه قبل معروفاً، لن يعمل معروفاً لأنَّ المعروف طريق الكمال، ويجب عليه أن يعمل على المعروف. كل ذلك جيد لأنَّه عمل معروفاً. ولعمل المعروف عليه بالكمال.
- استخدام الأطعمة الفاسدة والعادات السيئة يحمل الجسد والأملاك والشهرة إلى درب الخطر.
- من يتآلم كثيراً من شيء المفقود الذي لا يستطيع استرجاعه ويغشى عليه من سوء الحظ ولعدم مقدراته على الهرب، فهو لا يتمتع بعقل سليم.
- ثقيلة جداً تركة الفقير، خاصة لو احتاج فيها الطلب من البخيل.
- الرُّشد رشد الرُّشد. وبسبب الرُّشد فالبشر غاية الرُّشد. رشد الرُّشد، الرُّشد يخلق من البشر بشراً، ففي الرُّشد يكون الإنسان. عندما يكون الإنسان رشيداً فهو أكثر إنسانية، وعندما يفتقده، لا يكون، لأنَّ الإنسان بلا رشد ليس إنساناً، بل هو من تلك الأشياء التي لا مكان للرُّشد فيها.
- الذي يعاني كما يلزم، سوف يسترجع بعد حين الدعة والمتعة.
- من المنطق أن يعيش بسوء منْ هم بقلوب مزدوجة ومستعدون لتحقيق الرغبات السيئة.
- الذين لا يؤمنون حقيقة بالرب، بسبب من أنهم لا يشعرون بدعائه عنهم.
- الرجل رجل، وعندما يكون أكثر إنسانية يكون رجلاً أفضل. لو كان الرجل العظيم إنساناً جيداً، فهم رجال جيد وعظيم. وعندما يكون الرجل أقل إنسانية، فهو رجل سيئ. ليس الرجل عظيماً

بل إنساناً جيداً. ولو لم يكن الرجل العظيم إنساناً جيداً، فلا هو بالعظيم ولا بالجيد. من الأفضل له ألا يكون رجلاً أبداً.

- السخاء في الفقر، والتقشف في الوفرة، والعفة في الشباب، والتواضع في الشرف الكبير يجعل من الإنسان شهيداً دون إراقة قطرة دم واحدة.

- من يطلب بالأشياء الكبرى لنفسه ويستحوذ على الأكثر قوة، لن يحصل على وارد جيد.

- من المنطق أن يستقبل الرجل من أبنائه ما استقبله أبوه منه.

- الكثير من أجل الأكثر، فالكثير يعلم أن في الكثرة تصنع الأكثر بكثرة. والقلة تتسحب من أجل الكثير. لا فقد في الشحة. القلة تُقومُ الكثرة. املأ القلب بالكثرة دائماً.

- لو كان الرجل الكبير متواضعاً حقاً، فسيحظى بنعيم رب.

- ما شاء رب أن يخفيه، ليس على البشر أن يسعى لرؤيته بعينيه.

- بمباركة الأب تظل بيوت الأبناء قائمة، وبلعنات الأم تنهار من جذر أساساتها.

- فيما لو كانت السلطة سلطة كبيرة، فالسلطة الكبيرة تجلب المعرفة الكبرى. مع المعرفة الكبرى إرادة أكبر، والتفكير بأن الرب كله سلطة وفي نعيمه تكمن السلطة، لا بد أن نعتقد بعظمة سلطانه.

- من يرغب في شرفه وشرف دولته، عليه أن يتتأكد من ثقة الطيبين فيه وخشية السيئين منه.

- الشك والتساؤل يوصلان الإنسان إلى الحقيقة.

- ليس على الإنسان أن يبغض كل البشر من أجل عيب فيهم، فلا بد أن يكون من بينهم من يخلو من العيوب.

- الخطأ خطأ، ومن الخطأ يولد الخطأ. من الخطأ الصغير يولد الخطأ الأكبر، ومن خطأ يجيء خطأ آخر، وإذا ما جاء من خطأ فدائماً ما يدور حول الخطأ. لا شيء من الخطأ يمكن أن يجيء بلا خطأ أبداً.

- الذي يعاني لفرح منْ يُعطي الحق والحقيقة ويجهل بها، فهو ذو عقل واهن.
- الفرسان والأعمال من السهل تسميتها وفقدانها، من الصعب جمعها والأكثر صعوبة الحفاظ عليها.
- ذو العقل الراوح له في أعدائه وقوتهم مقدار ما لهم من منزلة، وللمساعدين وقدرتهم مقداراً أقل.
- القوة ليست قوة على قوة. القوة تض محل بالقوة، وأحياناً من الأفضل أن تكون بلا قوة. ولن نجانب الحق لو قلنا: القوة أحياناً تغير القوة، وحيثما تستطيع تجنبها، من الأفضل ألا تستخدم القوة.
- العاقل منْ يسترشد بما جرى للذين سبقوه.
- ما أن تكبر الحالة، يكبر التفكير. وما أن تتضاءل الحالة حتى يكبر الهم.
- بالألم لا تعالج الأوجاع الكبيرة، بل بأدوية ناجعة.
- الحب يُزيد إلى الحب. لو كان الحب جيداً فهو الحب؛ وحب أكثر من الحب، فهو ليس بحب. حب لحب أكبر يؤدي إلى الكره.
- هناك عنابة تتسع وعنابة تتضاغر.
- ما دام بالإمكان العمل، فالأفضل استخدام المهارة وتجنب القوة.
- الأوفياء يقولون بما هو عليه، والمحталون ما يرغبون.
- الحياة الطيبة، حياة. الحياة الطيبة تمنح الحياة. منْ لا حياة له لا يمنح الحياة. منْ هو الحياة، يمنح حياة. ليست بحياة، الحياة السيئة. حياة بلا حياة ليست بحياة. منْ لا يستطيع أن يحظى بحياة، ليتنمس حياةً متكاملة.⁷²

الجزء الرابع من كتاب الكوندي لوكانور وباترونبيو

ما قدمه باترونبيو من استدلالات لـ كوندي لوكانور⁷³

سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونبيو- لقد أدركت أن هذا قد جاء بناءً على إرادتكم وبإصرار منكم، وفهمت إنما يدفعكم إلى ذلك النية الطيبة، مما جعلني أجتهد لأقول لكم أشياء لم أكن قد ذكرتها في نماذج الجزء الأول من هذا الكتاب التي تراوحت في حدود الخمسين نموذجاً بسيطاً ومباسراً، وفي الجزء الثاني هناك أكثر من مائة مثال قد جاء أغلبها غامض والكثير منها واضح المغزى، وفي هذا الجزء الثالث ذكرت خمسين نموذجاً ومائة مثالٍ.⁷⁴ وها أنت ترى أنه في هذه النماذج والأمثال قد ذكرت في الكتاب ما يقارب المائتين منها. ففي النماذج الخمسين الأولى، لقرأة كنماذج، ستجد في أكثر من موضع الأمثال الجيدة النافعة مثلها كأمثال الكتاب الأخرى.⁷⁵ وأخبرك صادقاً بأن أي رجل سيحفظ ويستغل هذه الأمثال والحكم، ستكتفيه لإنقاذ روحه وحفظ ممتلكاته وشهرته وشرفه ووجاهته. ومفكراً بما وضعته في هذا الكتاب جديرة بهذه الأشياء، وعليه أرى أنكم ستكونون منصفين لو تركتموني أستريح.

- باترونبيو- قال الكوندي- لقد أخبرتك إنني أثمن المعرفة جيداً وأسعى للحصول منها على قدر ما أستطيع، إلى درجة أنني لن أتنازل بحال من الأحوال عن ما بحوزتي من قدرة على المعرفة بقدر ما أستطيع. ومثلاً أعرف أنني لن أجده لك مثيلاً في المعرفة، أخبرك بأنني طوال حياتي لن أترك السؤال والإصرار على معرفة ما أستطيع منك.

- سيدى الكوندى لوكانور - قال باترونيو - هكذا سيكون لو شئت ذلك، وسأخبرك ما أظن أننى لم أقله لك قبل الآن، بل أرى أن ما قلته لك سابقاً قد حل في فهم سهل، لذا من الآن ولاحقاً سأخبرك بأشياء أكثر عموماً مما قلت وأخرى مبسطة جداً، وإذا ما ألحت أكثر، سأحدثك بطريقة ستجد فيها متعة الفهم من أجل فهمها.

- باترونيو - قال الكوندى - أعلم أنك تقول لي هذا بضراوة وبغضب بسبب إلحادي عليك، لكن لفهمي القاصر، رغبت في أن تحدثني أكثر ووضوحاً بدلاً من العموم، ذلك إننى أعتقد أنه مناسب لي ذلك الذى تقول، والذي شئت قبل الآن أن تحدثني عنه وهو من العموم الذى تشاء أن تبرهن به لي على معارفك.

- سيدى الكوندى لوكانور - قال باترونيو - إذا كان هذا الذى ترغبون فيه، فمن الآن ولاحقاً فكر في ما سأقوله لكم - في الأزمنة الماضية، أشياء كثيرة تبدو كبيرة وفي الحاضر ليست كبيرة، لا شيء منها يظل للبشر. (سي. أم)⁷⁶

- كل البشر ينخدعون بأبنائهم، بشهامتهم وصلاحهم وحسنهم.

- شيء عظيم ضالة العقل عندما يعتقد في ضخامة أخطاء الآخرين وضالة أخطائه. (سي. أم) - من الثقة الكبرى ينبع الاحتقار.

- على السيد أن يكون أول الخارجين في المهام المخيفة العاجلة، إلا أن تخلو الساحة من الخطر. (أس. سي)⁷⁷

- ليس على المرء أن يثرثر أمام الآخر حتى يعلم الفارق بين علمه وفهم الآخر.

- الشر الذي يراه المرء في الآخر، عليه أن ينتبه إليه حتى لا يقع فيه. (سي. أم).

- ليس على المرء أن يكون حكيناً ولا أن يغطي على فهمه أكثر من اللازم.

- لن يشعر بالصحة ولا نعيمها من لا يشعر بما يناقضها. (سي. أم).

- لا عقل للسيد الذي يرغب في خدمة أو يشعر بالامتنان من أمرئ السوء والكذاب.

- الحكماء ينتهون من الأشياء بدماثة وثناء لا بالتعنت والتكبر. (أس. سي).
- العاقل منْ يتحفظ على مخالفة منْ هو أعلى شأنًا منه، خاصة أولئك الذين أعلى منه بكثير.
- الرجل الحكيم من يبتعد عن البشر السيئ، لأنهم سيعزون السوء إليه.⁷⁸
- من يشا التباري مع منْ يستطيع، سيعرض نفسه للخطر. ومن يرحب في ذلك مع مثيل له، سيدخل في مغامرة. ومن يرحب في ذلك مع منْ هو أقل شأنًا منه، سيقع في شرك الاحتقار، فمن الأفضل أن تحيا بسلام لمصلحتك وشرفك.
- منْ ينقاد لعقله فلا ثناء عليه، ومن يكشف عن سره لذلك الذي لا يثق به، فهو ذو عقل خرف.⁷⁹
- من المفيد لكثير من البشر أن يحرصوا على العيش في سلام وبلا نزاع.
- من الحسن أن يكون السيد ذو قلب شديد، وإن لم يكن بقلب شديد، فعلى الأقل أن يكون بجسد قوي. (سي. أم) - أكثر المستشارين كمالاً وثناءً، هو ذلك الحافظ للسر والخالي من الأطماع وصاحب الفهم الحي.
- الأملاك المستغلة أو قاتلاتها للتفكير ستستمر بفرح ومتعة. (سي. أم)
- بحماسة قوية وعمل أقل، بمعاشرة نساء أكثر والنبذ والمتع السيئة، أن تكون ظالماً وقاسياً، لأن لك أعداء كثر وقليل من الأصدقاء، ستفقد سعادتك أو الحياة.
- الصفح سريعاً مدعاه ليخطئ البشر. (سي. أم)
- الحزن لا يمنح الطعام طعماً، أما المتعة فتجعل طيبة كل تلك الأشياء التي ليست بطيبة.
- العقل الناضج هو ذلك الذي يعرف كيف يداري على الوقت اللازم للثأر. (أس. سي).
- كيف يكون جنون ضعيف العقل، ولكي يبرهن على ذلك، يحاول أن يبدي نباهته، وذلك العاقل الذي يبرهن على جنونه مرات عديدة. (سي. أم).
- بإرادة قوية سيكون النزاع مع عدوه لوقت طويل، ويكون أشد قوة عندما يصارع نفسه.

- يتم التشهير للحاجة أو بفعل الإرادة أحياناً كثيرة عن تلك التي يُقال سوءاً عن أحدهم بسبب التعود على قول الحقيقة أو لأنهم يعرفون أمور بعضهم بعضاً.⁸⁰
- ذو عقل راجح من لا يسعى للانتهاء من عمل لم يحضر له بعد كل ما يحتاج له.
- ليس على أحدهم أن يكلف إمرءاً بأعمال عديدة مادام لم يشرف على حكومة بعد.
- بالطريقة ذاتها التي عمل فيها المرء لوقت طويل، عليه أن يعلم من الآن ولاحقاً ما عليه أن يقوم به. (سي. أم).

الجزء الخامس من كتاب الكوندي لوكانور وباترونيو

سيدي الكوندي لوكانور - قال باترونيو - لقد ذكرت لك سابقاً العديد من الأقوال والأمثال، بعض منها واضح والآخر غامض، وقد أدرجت في هذا الكتاب الذي أعتقد أنه يرضيكم لإصراركم عليه فقد وضعت فيه ثلثين مثلاً أخرى فيها من الغموض ما يدهش فيما لو تمكنت من فهمها، ذلك إني لا أنا ولا أي أحد من عرضتها عليه قد أدرك فحواها. لكنني كلي ثقة في أن تلك الأمثال التي تبدو غامضة ولا سبيل للإمساك بها، وبعد أن تفهمها، ستجد أنها ليست بلا جدارة من تلك الأخرى فائقة السهولة. العديد من الأشياء المكتوبة في هذا الكتاب فيها من الدقة والغموض والابتسار تلبية لرغبة دون مانويل بإتمام إرادة دون خاييمه، لن أسرد فيها لكم من الأقوال والأمثال، بل سأتحدث عن شيء آخر أكثر جدوى.

- تعلم سيدي الكوندي، أن العديد من الشؤون الروحية هي أفضل وأكثر نبلاً من الجسدية، خاصة أن الروحية أبقى والجسدية ماضية إلى الزوال. فالشيء الأفضل والأنبل هو الروح لا الجسد، لأن الجسد منحرف والروح أكثر دواماً. ولطالما أن الروح أفضل وأكثر نبلاً من الجسد، فالشيء الأفضل يجب تقديره ويحافظ عليه أكثر، وعلى هذا المنوال، لا يمكن لأحد أن يعترض على أن الروح يجب تقديرها والحفاظ عليها أكثر من الجسد.

- للمحافظة على الروح تلزم أشياء عديدة، ولنفهم القول بالمحافظة على الأرواح، هو ليس أكثر من تحفيز تلك الأعمال التي يمكنها صون الأرواح. فالقول في صون الأرواح، ليس معناه حبسها في القلعة أو حفظها في السفينة، بل معناه أن البشر بأعمالهم الشريرة قد يودون بالأرواح إلى

الجحيم. ولحمايتها من أن تمضي إلى الجحيم، فمن الأفضل إبعادها عن الأعمال السيئة التي طريقها الجحيم، وحمايتها من الأعمال السيئة، يصونها من الجحيم.

- لكن عليكم أن تعلموا أنه للفوز بالجنة، على البشر أن يحفظوا أنفسهم من عمل السوء، ومن الضروري عمل الأفعال الحسنة، والأعمال الحسنة هذه في صون الروح والتشبث بالفردوس، من الضروري أن تكمن فيها أربعة أشياء: الأول منها هو إيمان الإنسان وأن يعتقد بقانون الخلاص، والثاني يتضمن زمن فهمه وخلق ما له من فوانين وبنود وألا يشك في أي شيء منها؛ والثالث فعل الأعمال الحسنة وبرغبة صادقة لكسب الجنة، والرابع أن تحمي نفسك من فعل العمل السيئ لكي تحافظ على الروح من المضي إلى النار.

- الأول منها وهو إيمان الإنسان وأن يعتقد بقانون الخلاص: عن هذا أقول لكم الحق، إن قانون الخلاص هو الإيمان الكاثوليكي المقدس حسب ما تعتقد فيه الكنيسة المقدسة الأم في روما. وتتأكد أنه الشيء نفسه الذي تقوم فيه العجوز بالحياة أمام باب البيت على ضوء الشمس، وهو الشيء ذاته حقيقة الذي تعتقد فيه بأن الرب هو الأب، والابن والروح القدس، وهم ثلاثة أشخاص ورب واحد. وتعتقد أن السيد المسيح هو الرب الحقيقي والإنسان الحق، وأنه كان ابنًا للرب وقد تم زرعه من قبل الروح القدس في بطن الشفيعة العذراء السيدة مريم، والذي ولد منها الرب والإنسان الحق، وقد حملت به وهي عذراء، وبقيت عذراء أثناء الحمل وبعد الوضع. كما أن السيد المسيح قد رُبى وعلم مثله مثل أي صبي، وبعد أن خرج في دعوته، ألقى القبض عليه وعذب وبعد ذلك رُفع على الصليب ليموت من أجل خلاص المذنبين، وبعدها نزل حتى الجحيم ليخلص منها أبواه اللذان كانوا يعرفان بقدومه وكانا ينتظران مجئه. وبعدها بُعث في يومه الثالث وظهر لمرات عديدة، ليصعد إلى السموات جسداً وروحاً وأرسل لحواريه الروح القدس ليصادق لهم وليعلمهم الكتابة واللغات. وأرسل بهم إلى العالم ليروجوا لكتابه المقدس. ويُعتقد أنه هو من أمر بأسرار الكنيسة المقدسة، وهي اليوم حقيقة مما عليه وكما أمر بها، وكما ستجيئ لمحاسبتنا وستمنح كل منا ما استحقه، وسننبعث من جديد وسنحظى روحأً وجسداً بالمجد أو بالبؤس فيما بعد، كل حسب ما عملت يداه. هذا ما تعتقد أي عجوز حقاً وما يجب أن يعتقد به كل مسيحي.

- سيد الكوندي لوكانور، تعرف تماماً أن كل هذه الأشياء حقيقة، وهي كما يعتقد فيها كل مسيحي، وبما أن الكثير منهم لا بالعلماء ولا بالكتبة، إلا أنهم يعتقدون ببساطة بما تعتقد الكنيسة الأم

المقدسة، وبهذا الإيمان وبهذا الاعتقاد يمكن خلاصهم. ولو شاءوا أن يعرفوا كيف هو هذا وكيف يمكن أن يكون وما عليه أن يكون، وهو ما يمكن أن تعثروا عليه واضحًا في القول وفي تفكير البشر كما عليه في القول والفهم في كتاب دون خوان مانويل المعنون بـ«كتاب الأحوال»، الذي يحاول فيه أن يبرهن بالمنطق أن لا أحد في العالم أجمع، سواء كان مسيحيًا أو كافرًا، أو هرطقياً أو يهودياً أو مسلماً، لا يقول بالحق من أن هذا العالم هو من خلق الرب، وأنه من المناسب بالضرورة، أن يكون الرب هو الخالق ومُحِبِّي كل شيء، وأن كل الأشياء من خلقه. يضاف لذلك، أنه يعالج كيف كان ذلك، ولماذا وما الأسباب التي جعلته ووجب عليه أن يكون السيد المسيح هو الرب الحق والإنسان الحق؛ وكيف أن أسرار الكنيسة المقدسة لها تلك الفضيلة التي تقول عنها الكنيسة المقدسة وتعتقد بها. كذلك يعالج كيفية التأكيد بالمنطق أن الإنسان مجبول من روح وجسد، وأن الأرواح قبل بعثها ستمنح المجد أو الألم لأفعالها السيئة أو الحسنة، كل حسب ما كسبت، وبعد البعث سيرتبط الجسد والروح من جديد، وهما مجتمعان بفعلهما الخير أو الشر، معًا سينجذبان بالفوز أو الندم.

- سيدи الكوندي لوكانور في هذا الذي أخبرتم به والذي تجدونه في ذلك الكتاب، أكون قد قلت لكم الكثير عن الشيئين الأولين النافعين لخلاص الروح، وهما: الأول منهما هو إيمان الإنسان وأن يعتقد بقانون الخلاص، والثاني أن يعتقد بكل قوانينه وبنوته وألا يشك بأي واحد منها. وكما نعرف أن الشيئين الأولين هما: كيف يستطيع الإنسان بأعماله الصالحة أن ينفذ الروح ويحفظها من عمل السوء ليتجنب الجحيم، على الرغم من أنه في ذلك الكتاب نفسه قد عالجه بإسهاب تام. ولكن بما أنه من الأهمية والضرورة معرفته، التي بالمصادفة أن يقوم بعض الناس بقراءة هذا الكتاب ولا يقرأون الآخر، أريد الحديث هنا عن هذه المسألة، لكنني واثق من أنني لن أستطيع أن أقول بصورة كاملة كل ما هو جدير بذلك. فأقول عنه، وحسب خبرتي البسيطة، إن الرب يساعدني على القول وكلي رغبة بطاعتني، وأن أسرد ما يمكنني من خدمته وأن يكون بمنفعة من يقرأه وسيقرأه.

- لكن قبل أن أتحدث عن هاتين المادتين- مثلاً يمكن أو يجب أن يكون عليه البشر ليتجنبوا عمل السوء ولكيلا يقعوا في عقاب الجحيم أو أن يعملاً الحسنات لكسب مجد الجنة. سأقول قليلاً كيف هو ذاك وكيف يمكن أن تكون الأسرار المقدسة حقيقة بهذا الشكل وكيف تفهم ذلك الكنيسة المقدسة في روما. سأقول عن ذلك هنا لأنه لا يتم الحديث بوضوح عنها في كتاب دون خوان المذكور سابقاً.

- سأتحدث أولاً عن الأسرار المقدسة لجسد الرب، وهي أسرار القربان المقدسة عند منصة المذبح. وأبدأ بهذا لأنه الأصعب في الاعتقاد من جميع الأسرار المقدسة، مجتازاً بها على الوجه الأفضل والحججة البينة، وهو ما يصدق عليه الجميع. وبعون الرب وبعد أن أنجح في هذا، سيصبح إثبات الأشياء الأخرى على الوجه الحسن بالنسبة للبشر حتى لو يكونوا من المسيحيين،ولي فيه من الحجج والفهم المقنع. وهو ما سيجعلني أبحث له عن حجج ليس على المسيحيين أن يتمسكوا بها لأنهم مجبرون على الاعتقاد بها، وذلك لأنها الحقيقة ولأن هذا ما تعتقد به الكنيسة المقدسة. وعلى الرغم من أن هذا كافٍ كإثبات لهم، فلا خلل في الأمر أن يكونوا على معرفة بالبراهين التي جاءت سابقاً في ذلك الكتاب. وهو يبرهن بالحجج أن علينا المعرفة والتصديق بالضرورة القاطعة أن الرب هو الخالق وصانع كل الأشياء، وأنه موجود في كل شيء ولا عمل يكون بدونه.

- كذلك تمت البرهنة على أن الرب قد خلق البشر على هذه الصورة ليس بحب الطبيعة وحسب، بل إن الرب قد خلقهم بإرادته الخاصة. وأيضاً قد خلقهم متشكلاً من الروح والجسد، وهم العنصران مضافاً إليهما الروحي. متشكلان من شيء دائم وآخر عرضة للتغير، وهم الروح والجسد اللذان عبرهما تحصل على المجد أو العقاب، فمن المناسب أن يكون الرب رباً وبشراً، وهذا كله يبرهن عليه بشكل تام في ذلك الكتاب الذي تحدث عنه.

- لقد تمت البرهنة على أن السيد المسيح هو الرب الحقيقي، وهو رب كل القدرة التامة. ولا أحد يمكنه النكران أن السر المقدس الذي أمر به ليس من باب الفضيلة التي أمر بوضعها. لكن لو أن أحدهم قد عزى ذلك للإيمان وأنه ليس براغب في الاقتراب من باب الإيمان هذا إن لم تتم البرهنة بالحججة، فأقول أنا، إضافة لحجج القديسين وفقهاء الكنيسة المقدسة، أذكر هذه الحجة:

- حقيقي أن سيدنا المسيح، الرب الحق والبشر الحق، متحللاً في يوم الخميس حول المائدة رفقة حواريه، وهو على علم بأن اليوم التالي سيكون موعد صلب جسده، وعلى علم بأن البشر لن يستطيعوا الخلاص من سلطة الشيطان- في سلطته سقط الكثير بفعل ذنوب الإنسان الأول، ولا أحد بمنأى عنها إلا بقدرة السر المقدس المعمول من قبله- فقد شاء، بعزم صلاحه، أن يعني بدلاً عنهم في درب الآلام، وهو بهذا السر المقدس المجبول من جسده يكون قد أطلق كل القديسين المحبوبين في اليموس⁸²، فلا قدرة لهم على المضي إلى الفردوس دون القربان المصنوع من جسد المسيح. ويفكر القديسون وفقهاء الكنيسة، وهم على حق، بأن الخير الأعظم ومجد الفردوس لا يتوصل به

البشر ولا قدرة لهم عليها دون درب آلام المسيح وما استحقته القدسية مريم وبقية القدسين. - عبر درب الآلام المقدس والمُجد تم إنقاذ وخلاص كل أولئك الذين كانوا حتى تلك اللحظة في اليمبوس، وسينقذ كل أولئك الذين ماتوا وانتهوا رأساً في الإيمان الكاثوليكي المقدس. والسيد المسيح، كبشر، كان لا بد أن يموت ولا يبقى في العالم، وهو الجسد الحق من أجل كل أولئك الذين وجب خلاصهم، أراد أن يترك لنا جسده الحق التام وكما شاء لكي ينقذ كل الطيبين والمخلصين من المسيحيين. ولهذا السبب، تناول الخبز وباركه وقسمه وزعّه على حواريه قائلاً: «خذوا وكلوا، فهذا هو جسدي»، وبعدها تناول الكأس وشكر الرب وقال: «اشربوا الكلم من هذا، فهذا هو دمي». وهناك أمر بقربان جسده المقدس. يجب أن تعلموا أن السبب فيما يقولون إنه تناول الخبز وباركه وقسمه، هو هذا: في كل مرة كان السيد المسيح يبارك فيه الخبز، ففي الحال سينقسم هو بنفسه كما لو ينقسم بسكين حادة. لهذا يقال في الإنجيل إن الحواريين قد تعرفوا إليه بعد بعثه من تقسيم الخبز. وفي تقسيم الخبز بطريقة أخرى مثلما يقسمه الآخرون، فليس على الكنيسة المقدسة أن تشير إلى تقسيم الخبز، لكنها تقوم بذلك لأن السيد المسيح كان يقسم الخبز دائمًا مبيناً ما يعمل بشكل رائع.

- وقد ترك هذا السر المقدس كذلك لكي يبقى بذكره. وبهذا يتم إثبات أن السيد المسيح هو رب الحقيقي وهو كإله استطاع أن يعمل كل هذا، ومؤكد أنه قد عمل وأمر بهذا القربان، ولا أحد يستطيع إنكار سبب أمره في طريقة عمله إلا ذلك الذي لا يمتلك فضيلة المسيح، الرب الحق، الموضوعة فيه.

- التعميد، إضافة لذلك، فكل إنسان مدرك، عليه أن يعلم أن هذا السر المقدس واجب وحاجة كبرى. وكما تعرفون، فعلى الرغم من أن الزواج فعل قد أمر به الرب، وهو من الأفعال المقدسة، إلا أن الإنجاب لا يمكن أن يكون دون متعة، وإن كان بترتيب وضرورة، لهذا كل من ولد ويولد سيكون من اجتماع رجل بامرأة ولا يقصى أحد من كونه قد ولد من خطيئة هذه المتعة. وعن هذه الخطيئة وصفته الكتب بـ«الخطيئة الأصلية»، أي حسب لغتنا «خطيئة الولادة». وكما أن كل إنسان بهذه الخطيئة لا يدخل الجنة، لهذا، فنعمه الرب أن جعل لنا وسيلة لغسل هذه الخطيئة، ولتنظيفها، أمر ربنا، في الشريعة الأولى: الطهور. وعلى الرغم من إكمالها لل المقدس متى ما استمرت تلك الممارسة، ولكي تعرفوا أن ذلك كان منظماً، وكلها كان ممثلاً عن الشريعة المقدسة التي وصلت لنا اليوم. وعليكم أن تعلموا بالإشارة إلى فعل التعميد المقدس، أنه سابقاً كانوا يطهرون الرجال، والذي

بطريقة وأخرى كان ممثلاً لما كان يجب أن يكون. ولكن لتعلموا أن السر المقدس الحقيقي على ما عليه، فالظهور لم يكن يجري سوى على الذكور، ولم تكن هناك طريقة للإنقاذ من الخطيئة الأصلية إلا بالظهور، وعليه فالإناث لا يمكنهن أن يقمن بهذا الفعل المقدس، أي لا يستطيعن أن يبرأن من الخطيئة الأصلية. عليه ستركون أن الظهور كمثل للنظافة وقد أمر به الإيمان الكاثوليكي المقدس الذي أمر به ربنا يسوع المسيح. وعندما أمر هو بهذا السر المقدس، شاء أن يأمر به بعد أن يكون قد أجرى على نفسه قربان الظهور، وذلك لأنه كما قال قد جاء لإكمال الشريعة ولم يأت لنقضها أو التقليل من شأنها. وقد أكمل الشريعة الأولى وهي الظهور، فقد أمر بالثانية وهي أن يتعمد من قبل شخص آخر، وكان أن تقبلها من سان خوان الباوتيستا (يوحنا المعمدان). لهذا تعلمون أن السر المقدس الذي أمر به هو التعميد الفصل الحق لغسل الخطيئة الأصلية، ففكروا به جيداً وستركون السبب الذي أمر به.

- كما هو موضح أعلاه، فقد قيل إن الإنجاب لا يعفي بدوره من متعة، وضد هذه المتعة، التي ينتج عنها شيء ليس بالنظيف، قد وضع واحداً من العناصر الأكثر نصاعة والمشاركة كوسيلة للغسل، إذ إن أكثر الأشياء قذارة إنما تنطف بالماء، وكذلك يقال عندما يعمد الطفل: «أعمدك باسم رب والابن والروح القدس»، ويغطس في الماء. ولترى فيما بعد إن كان هذا السر المقدس قد تم عمله بعقلانية، ففي القول «أنا أعمدك باسم رب والابن والروح القدس»، فهناك يقال ويسمى الثالوث المقدس ويظهر قدرة الأب ومعرفة الابن ورحمة الروح القدس. ويُقال إن بهذه الأشياء الثلاثة، وهي رب وفيه الماء، سيعتنى ذلك المخلوق من الخطيئة الأصلية التي ولد معها؛ والكلمة تحيل إلى الماء، وهي المادة التي تحول إلى سر مقدس، وهذا الأمر عن السر المقدس الذي أمر به السيد المسيح صحيح وعادل، بحيث يستقبله بالتساوي النساء مثلهن كالرجال. لهذا فالسر المقدس ضروري جداً والأمر به من قبل السيد المسيح منطقي، وقد أمر به بهذه الصورة كربٌ حقيقي، ولا يمكن القول بسبب معاكس لما يكون عليه السر المقدس، إن لم يكن تماماً كما جاءت به أمنا الكنيسة المقدسة في روما.

أما بالنسبة للأسرار المقدسة الخمسة الأخرى وهي التوبة وتثبيت العقيدة والزواج والأمر الكهنوتي والمسحة الأخيرة، وفيها سأقول لكم المزيد من الأسباب وفي كل واحد منها، لتدركوا

كفايتها، لكنني سأتركها بينكم في شيئين فقط حتى لا أطيل كثيراً في هذا الكتاب، وأخرى لأنني إن منْ يستمع لما أقول، سيعلم أن الحجة نفسها للأول جديرة بتثبيت الآخر.

أقول إن الحجة قد انتهت بهذه الشاكلة وكما عليها أن تنتهي، فسأعود للحديث عن الوسيتين اللتين بهما يستطيع الإنسان أن يحافظ على نفسه من عمل السوء والمضي إلى آلام الجحيم، وكيف يستطيع عمل الخير للفوز بالفردوس.

سيدي الكوندي لوكانور، كما قيل سابقاً، فإن أصعب شيء أن تكتب كل تلك الأشياء التي على الإنسان أن يعمل بها حتى لا يضطر للذهاب إلى الجحيم وبها يفوز بالجنة، لكن يمكن القول باختصار إن عليه التثبت بالأعمال الحسنة والابتعاد عن عمل الشر. وهذا حقيقي، أو ما يجب أن يكون، كما يقول البعض «حقيقة أكبر وعقل أقل»، لهذا فمن الأفضل التشجع على القول حول الأشياء التي اعتقاد أنها لا تنتمي لي تبعاً لمعرفتي المتواضعة. لذا أعلن أنه من الأفضل أن ذكر كيف يمكن عمل هذين الشيئين؛ ولأجلها أقول التالي: الأعمال التي على البشر أن يقوموا بها كسباً لمجد الفردوس، أولاً، من المناسب أن تقوم بها وأنت في وضع الخلاص. وعليك أن تعرف أن حالة الخلاص تلك لا تنفع كل الأعمال التي تقوم بها إن لم تكن في توبة خالصة، وعليه لن تكسب الجنة بذلك. وهذا من العدل والمنطق، لأن الجنة معناها رؤية الخالق وهي المجد الأكبر من كل شيء في الوجود. وليس من العدل أو المعقول أن يكسبها الإنسان وهو في حالة خطيئة مميتة. بل يحصل عليها من أعماله الحسنة التي تحمله فوراً إلى التوبة الحقيقة، وهذا من الأفعال الطيبة. إضافة لذلك، ستتساعده الأعمال الحسنة في هذا العالم على أن يحظى بصحة جيدة وشرف وغنى وكل طيبات العالم الأخرى. في مثل هذا الوضع الحسن، أعمال الإنسان التي توصله إلى نعيم الجنة هي تلك المتعلقة بالزكاة والصوم والصلوة والحج، وكل الأعمال الرحيمة. لكن كل هذه الأعمال الطيبة التي على الإنسان أن يقوم بها كسباً للجنة، من الأفضل أن يعملها بأشكال ثلاثة: أولاً، أن يقوم الإنسان بالعمل النافع، ثانياً أن يقوم به بشكل جيد، وثالثاً أن يقوم به بإرادته. وها أنت ترى سيدي الكوندي، على الرغم من أنني قد قلتها بطريقة جيدة كي تفهم، ولكي تكون أكثر سهولة، أقولها لك بوضوح أكثر.

- أن يقوم الإنسان بالعمل الصالح فكل هذا من أجل رب. فمن المناسب أن يقوم به بشكل جيد وبرغبة صادقة، وليس غروراً أو نفاقاً ولا أي نية أخرى، بل لخدمة رب وحده. وليعمل به

كذلك وفقاً لإرادته، لهذا عندما يقوم بعمل ما، فلينظر وفقاً للإرادة إن كان ذلك العمل عملاً طيباً أم سيئاً، وعندما يختار ذلك لأنه يرى فيه عملاً طيباً وأن يتمنى عن الأخرى لأنه يدرك أنه عمل سيئ. وما أن يقول الإنسان بهذا العمل الطيب وعلى هذه الشاكلة، إنما قد كسب مجد الجنة. ولكنه لو شاء عمل الحسنات لغور في نفسه أو نفاق أو الفوز بشهرة العالم، وحتى لو كانت أعمالاً حسنة، فهو لا يعملها بطيبة ولا بإرادة منه، لأن إدراكه قد اختار ذلك الطريق بعيد عن الصراط المستقيم والنية الصالحة. وبهذا سيحصل له ما حصل لكاركاسونا مندوب الحاكم، بعد موته قد فعل أعمالاً طيبة، ولما لم يقم بها بطيب نية، فلم تتفعله بالذهاب إلى الجنة ومضى إلى الجحيم. وإذا ما رغبت بمعرفة ما جرى لمندوب الحاكم، فما عليك إلا أن تطلع عليه في الفصل 40 من هذا الكتاب.

كذلك لكي يحافظ الإنسان على نفسه من الأعمال التي تؤدي به إلى الجحيم، فمن المناسب الحفاظ هنا على ثلاثة أشياء: أولها لا يقوم الإنسان بعمل سيئ، وثانيها لا يعمله بسوء وثالثها لا يقوم به بإرادته. فالإنسان لا يستطيع أن يقوم به بسوء تماماً إلا وهو يعمله على هذه الصورة: أن يكون عملاً شريراً، أن يقوم به بسوء وأن يعمل به مع إدراكه بسوء ما يفعل. وكما ذكرت لك مثل مندوب الحاكم في كاركاسونا بعمله الطيب، ولكنه لم يفعله بشكل جيد لهذا لم يفز بأي جائزة، فها أنا ذكر لك مثالاً آخر عن فارس كان من سوء الحظ أن قتل سيده وأبيه، وإن كان قد فعل السوء، فهو لم يقم به عن إرادة، فهو في الحقيقة لم يقم بعمل سيئ ولم ينزل العقاب على فعله. وبما أن هذا المثال لا يرد في الكتاب، فها أنا أقصه عليك هنا، بينما لا أقص مثال نائب الملك لأنه مذكور في الكتاب كما قلت أعلاه.

- حدث أن أحد الفرسان كان له ابنٌ من أفضل حملة الدروع.⁸³ وبما أن السيد كان يقوم على رعاية أبيه الذي يعيش معه في بيته، فلم يهتم بطريقة ما يحافظ بها على وجود ابنه معه، مما دعاه للبحث عن سيد آخر يخدمه. - وللمزايا التي يتحلى بها الشاب وتفانيه في خدمة سيده، في وقت قصير رسّمه فارساً وصار إلى حال أفضل. وكما أن أحوال وأفعال العالم لا تدوم طويلاً، حصل أن اختلف السيدان اللذان يعمل لديهما الابن من جهة والأب من جهة أخرى على درجة تحتم فيها أن يتباريا.

الأب والابن، كل واحد مع سيده، وكما أن المغامرات تحدث في النزاعات، فكان أن حدث ما يلي: أن الفارس، أب الآخر، وقع في نزاع مع ذلك السيد الذي كان على نزاع مع سيده، وهو نفسه

الذي يعمل معه ابنه. وقد فهم الابن أن ذلك السيد لو وقع أسيراً أو سقط ميتاً فسيكون هذا مدعاهة فخر وشرف لسيده، فراح في نزاع مع سيد ابنه إلى أن وقع الاثنان على الأرض وكان الأب قد صعد على صدر السيد إما ليأسره أو ليقتلنه. أما الابن وقد كان في خدمة سيده قدر ما يستطيع، فقد رأى أن سيده قد خر صريعاً على الأرض، وعرف أن ذلك الذي يتحكم به هو والده.

هذا الوضع قد تركه في هم كبير بلا شك، لكنه وقد كان متائلاً لما حصل لسيده، راح يصرخ بأصوات عالية على أبيه منادياً عليه باسمه، منبهأً عليه أن يترك سيده، حتى لو كان ابنه، إلا أنه كان من تابعي السيد الآخر، وقد كان متاكداً إن لم يسعفه بسرعة سيكون مصيره الموت.

أما الأب، ولسبب ما لم يسمع ما كان يُقال أو لم يعر اهتماماً لذلك، لم يتركه بالمرة. عندما رأى الابن سيده في خطر وأن والده لا يرغب في تركه، وقد تذكر ولاعه لسيده وما عليه أن يقوم به، ف nisi أو طرح خلف ظهره واجبه الطبيعي نحو أبيه، وعلم أنه لو هبط بسرعة عن فرسه، بسرعة الجياد الحاضرة آنذاك، فإنه سيصل بسرعة لإنقاذ سيده قبل أن يذوق طعم الموت. فكان أن وصل على جواده مطلقاً أصوات التنديد بأبيه أن يترك سيده في حاله ومنادياً له باسمه. وما أن رأى أن والده لم يكن بتارك سيده بأي حال من الأحوال، فقد شعر بالغضب والألم وهو يرى حال سيده، فقام بضربة واحدة أن يجرح والده في ظهره، وكانت ضربة قوية اخترقت الدرع والجسد في آن واحد، بل وأكثر، وكانت الضربة من القوة أن اخترقت جسد سيده كذلك، فمات الاثنان في الحال.

وكذلك قام فارس آخر من أتباع ذلك السيد الميت، وقبل أن يعرف بمорт سيده، كان قد قتل سيد الطرف الآخر، وهكذا انتهى ذلك النزاع وكل طرف في سوء حال ومصيبة.

بعد أن توقف النزاع، وقد علم الفارس بما جنته يداه وما حصل له بقتل سيده وأبيه في ضربة واحدة، فقد توجه مباشرة حتى قصور الملوك وبيوت السادة في تلك المقاطعات، وقدم نفسه مكبلاً اليدين والحلب يطوق رقبته. هناك أخبر الملوك والساسة ب فعلته، وإن كان يستحق الموت خيانة لقتله سيده ووالده دفعه واحدة، ورجاهم أن يحكموا عليه بما يستحق جراء فعلته. ولكن لا أحد منهم رأى أنه قام بارادته بفعل الخيانة، وهذا ما سيشفع له كما وجد السادة ما كان عليه أن يقوم به.

وما أن علم الملوك والساسة بما حصل له فعلاً، فقد فكر الجميع في أنه لا يستحق العقاب على فعلته، مما حصل له بسبب سوء الحظ لا غير. وأنثوا كثيراً على ولائه، إلى درجة أنه طعن والده في

محاولة لإنقاذ سيده. وكل هذا لأنه قد جاء بفعل سيئ دون إرادة منه بفعل السوء حقاً.

- على هذا سيد الكوندي لوكانور، عليك أن تعلم عبر هذه الأمثل أن السبب في مضي البشر إلى الجنة يكمن في فعل البر، عملاً حسناً وبالإرادة. أما تلك التي تؤدي به إلى النار، فهي ولا بد أن تكون أعمالاً شريرة فعلاً وإرادة. كله مجبول بالنسبة، وهو ما قاله الشاعر «*quicquid agant*» والذى يريد به القول «أي شيء يفعله البشر، فالحكم عليه بالنسبة».

والآن سيد الكوندي لوكانور، وقد حدثتك بما أعلم حول الوسائل التي على البشر اتباعها للفوز بالفردوس والحفظ عليه من المضي للجحيم. ولكي تعلم أي خديعة تطال الإنسان وهو يضع كل ثقته في هذا العالم، أن يكون مع فخره أو غروره، وفي الآمال المعقودة بشرفه وبنسبه وثراته وفي شبابه وفي كل ما يحمله العالم من سعادة قدر ما يستطيع. سأحدثكم عن شيئين، حسب فهمي، على البشر أن يقوموا بهما.

- الأول، أي شيء هو الإنسان، وفي هذا أعتقد أن من يفكر به لن يثمن البشر كثيراً. وأخرى، أي شيء هو العالم، وكيف يعيش البشر فيه، وأي هبة يمنحها لهم بما يفعلون. ومن يفكر بهذا، بفهم عميق، سيدرك أنه ليس عليه أن يقوم بفعل شيء نتج عنه فقد الشيء الآخر، بل أن يسعى ليستمر بلا نهاية.

الشيء الأول، ما هو الإنسان. حقاً أفكر من الصعب قول كل شيء، لكن بإرادة الرب، سأقول لكم أشياء كافية لتدركوا ما أريد قوله.

كما تعتقدون، سيد الكوندي، إن من بين جميع الحيوانات التي خلقها رب في هذا العالم، ولا حتى في المنحى الجسدي، لم يخلق مثل البشر في كماله وفي نقصه. الكمال الذي منحه رب للبشر يكمن في الفهم والحق والحرية الشخصية، وشاء أن تكون مكتملة في الروح والجسد، وعن هذه الحال، لن أحدهم أكثر، لأن دون خوان قد استعرضه في مواضع مكتملة في كتب أخرى، بل سأحدثكم عن الأخطاء والرذيلة الكامنة في البشر، في الأشياء قريبة الشبه بما تفعله الحيوانات الأخرى، بل عن أشياء لا تفعلها الحيوانات الأخرى.

دون شك أن الرذيلة الأولى في البشر تولد من المادة، جزء منها من الأب والجزء الآخر من الأم. وبما أن هذا الكتاب مدون بالرومانثية⁸⁴ مما يستطيع قراءته أنس كثر من رجال ونساء، وسيشعرون بالخجل من ذكر ذلك، وإن كانوا سيسامحون حرج من أمر بكتابته حقاً. لهذا لن أمضي كثيراً في توضيح الأمر، لكن من يقرأه حتى لو كان قاصراً في الفهم، سيفهم كل هذا الذي يجيء ذكره.

بعد أن يتشكل الوليد في بطن الأم، سيكون غذاؤه من تلك الأشياء الغزيرة التي تفرزها البطن بطبيعة الحال ولا تبقى في جسد المرأة سوى في فترة حملها. من هذا شاء الرب أن تحوي أجساد النساء تلك السوائل الكثيفة القادرة على إطعام المخلوق. كذلك الحيز المحاصر به يحتوي على الأخرة السيئة الرديئة القاتلة، إن لم يكن بفضل تلك الغلالة التي خلقها رب وزرعها ما بين جسد المخلوق وهذه الأخرة، فلا يمكن أن يعيش المخلوق إطلاقاً.

إضافة لذلك فمن الضروري أن يعيش المخلوق في بطن أمه من الآلام والجهد الكثير. كما أنه وبمرور سبعة أشهر على وجوده يصبح مخلوقاً كاملاً ولا داعي فيما بعد لتغذيته من تلك السوائل الكثيفة، وبنقص فيها سيحتاج ويقوم بقطعها تلك الأغشية الحاضنة له، ولا يظل بعد ذلك في بطن أمه. وتلك حالة من يولد بسبعة أشهر، ويمكنهم أن يعيشوا كما لو كانوا قد أكملوا أشهرهم التسعة. وعندما لا يستطيع تقطيع أغشيتها المحاصرة، سيظل متالماً من الجهد الذي بذله وسيبقى طوال شهره الثامن ضعيفاً ومجهداً. فإذا ما ولد في ذلك الشهر الثامن، لا يستطيع الحياة أبداً. ولكنه لو بقي حتى شهره التاسع، يكون قد استراح واستعاد نشاطه، ومتى ما نزل من بطن أمه يكون حياً ولا يجاهبه الموت للأسباب التي ذكرتها. ولكنه ما أن يستغل أكثر أيام الشهر التاسع فسيكون بصحة وعافية طوال حياته. وهناك من يقول عن أولئك الذين يكسبون أياماً إضافية من شهرهم التاسع، سيكونون أصحاء وأقوىاء وإن كانوا يشكلون خطراً على أمهاتهم. وها أنتم تدركون أن أي وسيلة من هذه التي ذكرت، فلا بد أن يعاني العديد الصعب والمزيد من الغضب والأخطاء الجمة.

كما أن الحديث عن الآلام والأخطار التي يمر بها المخلوق في ولادته، لا أحد داعياً للحديث عنها، فلا أعتقد أن هناك من لا يعرف عن هذا شيئاً. والمخلوق عندما يولد لا فهم ولا إدراك عنده كي يعرف عمل الأشياء بنفسه، لكن ربنا شاء أن يقوم المولود بثلاثة أشياء: واحدة هي البكاء، والثانية هي الرجفة والثالثة الإبقاء على اليدين مضمومتين. وفي البكاء يفهم أنه قد جاء إلى الدنيا

وعليه أن يعيشها بألم وكرب وما ينتظره منها أشد المآسي وكرباً. أما في الرجفة فيفهم أنه يجيء للدنيا مرتعباً، وفيها سيعيش عرضة للفزع والشوك، وما ينتظره سيكون أشد فزعاً. أما في ضم اليدين فيفهم أنه يجيء إلى الدنيا أكثر طمعاً مما يستطيع ولن يستطيع أن يملك فيهما الوفرة التامة.

بعد أن يولد الإنسان، تكون لديه من القوة لتحمل المزيد من المأساة والأهوال، فتاك الخرق التي يدثرون بها درئاً من البرد والحر أو الريح، كمقارنة بجلد الجسد، فلا خرق ولا أي شيء آخر يصل إليه حتى لو كان رفياً، ما لم يبدأ خسناً وكأنه كله أشواك. يضاف إلى ذلك، وبما أنهم لا فهم لديهم، ولا أعضاؤهم مكتملة، ولا تركيبة لهم يستطيعون فيها إنجاز أعمالهم كما يجب، فهم لا يستطيعون الكلام ولا أن ينبهوا إلى ما يشعرون به. الذين يرعنون ويحافظون عليهم يظلون أنهم يبكون لشيء ما، والحقيقة أنهم يبكون لشيء آخر، مما يضعف غضبهم وشكواهم. كما أنهم ما أن يبدأوا بالكلام حتى يمرروا بحياة صعبة، إذ إنهم لا يستطيعون قول أي شيء ولا يسمحون لهم بفعل أي شيء حسب رغبتهم، وهكذا يمضون في حسرة وضد من إرادتهم.

ومنذ أن يبدأوا الفهم، ذلك إن إدراكهم لم يكتمل بعد، يطمعون في الأشياء ويرغبون دائماً فيما هو مضرٌ لهم. وما لديهم لا يسمح لهم به ويجبون على عمل عكس ما يرغبون لذلك يكون غضبهم أكبر فلا شيء أكثر إجحافاً عندهم من نقض الإرادة: لهذا يمضون معظم وقتهم في غضب وتململ.

وما أن يصبحوا ناضجين ويكتمل لديهم الفهم، يقضون وقتهم في غضب وشك أكبر، إما بسبب الأمراض أو البؤس أو الآلام والأضرار التي تلحق بهم. ولি�ضع كل واحد منكم يده على قلبه، فسيجد أنه لم يمر يوم دون أن يكون ممثلاً بالغضب والألم أكثر منه بالمعنى.

وبعد أن يدخلوا في الشيخوخة، وهذا للقول لا غير، فأجسامهم نفسها مثل كل الأشياء التي يرونها، سيعاملونها بغضب، وكل تلك الأشياء بدورها تغضب منهم. وكلما اشتدت الشيخوخة، زاد الغضب واشتد، وفي النهاية كل شيء آيل للموت الذي لا يمكن الإفلات منه، مما يجعل المرء يبتدىء من نفسه ومن كل تلك الأشياء التي يرغب في عملها وسيصاب بالغم والدمار. وفي هذا لا يمكن أن تبرئ أحداً، كما لا يمكن أن تجد وقتاً مناسباً للموت. ويموت الصبي أو الشاب أو الشيخ، فالكل سواسية إزاء قسوة الموت وصلافته. فلو مات فقيراً ومعدماً، برفقة أو بأعداء فهم ممقتون، أما لو

مات ثرياً وشريفاً، سيحزن رفاقه وسيشعر أعداؤه بالفرح، وهو من السوء مثل أسى الأصدقاء. والثري يحصل له ما يقول به الشاعر «Dives divitias».. إلخ. ويعني: «الثري يصنع ثروته بالعمل الشاق ويجمعها بخوف كبير ويهرجها بأسى كبير».

وعلى هذا نفهم أنه بكل الأسباب، وأن كل إنسان مهما كان وعيه وتفكيره في كل شروطه، عليه أن يدرك أنه مهما كان بذلك الثقل فلن ينتفع بشيء.

إضافة لكل ما قلته سابقاً، فالإنسان كائن ضعيف قياساً ببقية الحيوانات، إذ لا شيء لديه بينما بقية الحيوانات تتلiven الجلد والشعر والأصداف والريش الذي يحميها من البرد والزمهرير والأداء، لكن الإنسان في هذا لا يملك شيئاً من كل هذا، ولا يستطيع العيش دون أن يكون مدثراً ويرتدي الملابس الخارجية.

والحيوانات تتغذى بطريقة ليس من المفترض أن يحضرها لها أحد، بينما البشر لا يستطيعون التغذية دون مساعدة من آخرين ولا علم لهم بكيفية العيش فيما لو لم يقم الآخرون ذلك. بل وأن ما يعلموه في الحياة، لا يعرفون كيفية المحافظة عليه تماماً كما تفعل الحيوانات بالاستمتع والمحافظة على صحة أجسادها.

وعلى هذا سيدى الكوندي لوكانور، ها أنت ترى بوضوح أن الإنسان محمّل بالأخطاء، فلتفكروا هل من السوء إذاً أن يتصرف بغرور وعزّة نفس غير مبررة.

أما الأخرى التي تتحدث عن العالم، فتتكرر في ثلاثة أجزاء: الأول منها ما هو العالم، والثاني كيف يعيش البشر فيه، وثالث الأشياء أي جائزة يفوز بها أولئك الذين يعملون له.

من المؤكد سيدى الكوندي، منْ يرحب في الحديث عن هذه الطرق الثلاث بشكل وافي، عليه أن يتمكن من المادة جيداً حتى يدونها في الكتاب. لكنني أخشى لكترة ما تحدثت به، أن تكون أنت وكل من قرأ هذا الكتاب تعتبروني ثرثاراً وتغضبون لهذا، لذلك لن أحثكم كثيراً بقدر ما أستطيع في هذه المسألة، وهو ما ستجدونه في نهاية الكتاب. لهذا أرجو منك ألا تلح على أكثر، لأنني لن أجيبكم عنها، ولن أقدم لكم من الأسباب أكثر مما ذكرت سابقاً. أما الآن وهو ما أريد أن أحثكم عنه فعن أول تلك الأشياء الثلاثة: ما هو العالم؛ وهو بالتأكيد سيكون شيئاً عظيماً القول فيه، وسأل قوله باقتضاب لتفهمه عني بشكل أفضل.

هذا الاسم «العالم» اتخذ اسمه من «الحركة» ومن «الانتقال»، ذلك أن العالم في حركة دائمة وتنقل دائم ولا يقف على حال، لا هو ولا الأشياء التي تكون فوقه في سكون، وللهذا سُمي بهذا الاسم. كل الأشياء هي من خلق العالم، والعالم مخلوق الرب، وقد صاغه الرب في حالة حسنة وسيدوم بهذه الحال مadam الرب يرغب بذلك. والرب وحده يعلم متى ينتهي وماذا سيحصل فيما بعد انتهاء.

والحالة الثانية هي كيف يعيش البشر فيه؛ وهذا أيضاً وبلا شك من الصعب القول فيه بتمامه. فالبشر كلهم يعيشون في هذا العالم على أحوال ثلاثة: الأول أن بعضهم يضع فيه كل إرادته وفهمه بأشياء العالم مثل الثراء والشرف والسعادة، ويسعون لإكمال إرادتهم بأي طريقة يستطيعون، لا البحث في شيء آخر بل في هذا نفسه، فلا معرفة لديهم ولم يعلموا أحد ما تكون عليه أحوال من يعيشون في العالم الآخر. والحالة الثانية أن آخرين يعيشون طامعين بفعل الأعمال التي تحملهم لمجد الفردوس، لكنهم لا يستطيعون النأي عن كل ما هو مناسب للحفاظ على أعمالهم وأحوالهم، ولهذا يعملون وأكثر وفق هذا التصور ويحافظون على أرواحهم قدر المستطاع. أما الحالة الثالثة فآخرون يعيشون في هذا العالم كأنهم أغراهم عنه، وقد أدركوا أن السبب الأساسي في كل هذا أن البشر قد خلقو لإنقاذ الروح، لهذا يولدون في العالم لأجل هذا الشيء، فلا يقومون بعمل شيء آخر غير تلك الأشياء التي يرونها تساهم في إنقاذ الروح.

الحالة الأولى، في أولئك الذين يضعون كل إرادتهم وإدراكيهم في أشياء العالم، فمن المؤكد أنهم مخدوعون ويجهدون أنفسهم بلا داعي، بجهد كبير ورأس قليل الفطنة، فلا يوجد بشر في هذا العالم تماماً قادرون على القول فيه، ذلك أنكم تعرفون أنه لا أحد في هذا العالم يدفع عشر ماركات أو حتى مائة من أجل هذا الشيء، فالجميع لا يفكرون في أن ما جال في تفكيرهم إنما هو حكم باطل. فمن يمنح الروح، وهي من أطيب خلق الرب، للشيطان وهو عدو الرب، سيربح المتعة أو الشرف الزائل الذي لن يدوم غير يومين- أو على الأكثر ليوم واحد بمقارنة مع قسوة الجحيم، بل إن ذلك الذي في هذا العالم من تلك المتعة وذلك الشرف أو تلك الشهوة الآيلة للضياع، فلن تدوم إلا قليلاً، فلا شهوة مهما كانت عظيمة فإنها في عرف الماضي، فلا تغضب من ذلك، إذ لا متعة مهما عظمت أن تدوم للأبد أو تطول فآجالاً أم عاجلاً تنتهي بأسف كبير. كما أنه لا شرف يظل عالياً، وهو لا يكلف البشر شيئاً لو فكروا بالمدن والأعمال والغضب وما ينتج عنها من عناء كبير للحفاظ عليها

وزيادتها. فلينظر كل واحد ولি�تذكر ما حدث في كل واحدة من هذه الحالات: ومن شاء أن يقول الحق، سيجده كله فيما قلت.

هناك أيضاً من يعيش في العالم طامعاً بالعمل لإنقاذ الروح، لكنه لا يهجر رغبته في الحفاظ على شرفه وأحواله، وهذه على حالها يمكن أن تخطئ أو أن تصيب في القليل. فلو حفظوا كل هذه الأشياء التي يرغبون في الحفاظ عليها، فمن الأفضل أن يسعوا لإنقاذ الأرواح، لأنهم فيه يصيّبون ويعملون العمل الحسن. صحيح أن الكثير من الملوك والرجال العظام وأناس بأحوال أخرى قد حافظوا على شرفهم وأبقوا على أحوالهم، والعمل فيه كله، عرروا كيفية الحفاظ على أرواحهم وكانوا من القديسين. ومثل هؤلاء لم يخدعوا العالم، ولم يُمنحوا الجائزة التي اعتاد العالم أن يمنحها للذين وضعوا كل آمالهم فيه وليس في شيء آخر، وهؤلاء يكسرون كلتا الحياتين، الحياة الناشطة وحياة التأمل.

أما الذين يعيشون كالغرباء في هذا العالم ولا يضعون إرادتهم إلا في تلك الأشياء المنقذة للأرواح، فهوّلأء قطعاً يختارون الطريق الصائب. لذا أقول وأتجرأ على القول إنهم قد اختاروا الطريق الصواب حقاً، لأنه من هذه الحياة وكما قال الإنجيل،⁸⁵ قد اختارت مريم الحصة الأفضل والتي لن تُنزع منها أبداً. وإذا ما أستطاع البشر كلهم المحافظة على هذا الطريق، فسيكونون دون شك الأكثر أمناً وفعلاً لأولئك الذين يحافظون عليه. ولأن ذلك سيكون معناه دمار العالم، فلم يشأ سيدنا أن يكون كل العالم من البشر العاطل عن العمل، لهذا لا يمكن اتهام العديد من البشر الذين لا يجدون أنفسهم في أي واحدة من هذه الحالات الثلاث.

بل إن رب بنعمته شاء لنا أن نعيش في الحال الثانية أو الثالثة، وأن يحفظ من يعيش في الأولى، فالمؤكد أنه لا أحد يرغب في العيش على هذه الوتيرة، لا يلقى نهاية سيئة. وأخبركم، من الملوك حتى الرجال الأقل شأناً، لم أعثر على رجل رغب في العيش على تلك الحال ولم ينته نهاية سيئة في جسده، مع الشك بأن روجه تمضي في طريقها إلى المكان السيئ. فالشيطان دائماً ما يعمل قدر ما يستطيع من أجل أن يترك البشر طريق الرب لقاء أشياء العالم الأخرى، مع استعداد أن يمنّ لهم هداياه، كما يحكى في هذا الكتاب في الفصل 45 منه، عندما منح الشيطان هديته لدون مارتين وكان صاحباً له.

والآن سيدى الكوندي، إضافة للأمثال والحكم التي في هذا الكتاب، فقد أخبرتاك بما يكفي حسب ما أعتقد ل تستطيع الحفاظ على روحك، بل وللحفاظ على الجسد والشرف والأعمال والحال، فالمجد للرب، إذ حسب فهمي القاصر، أعتقد أنني قد أتممت وأنهيت كل ما أريد قوله لك.

لهذا أضع نقطة الختام لهذا الكتاب.

أنها دون خوان مانويل في سالميرون،⁸⁶ ليوم الاثنين لـ 12 يوماً من شهر يوليو (تموز)،
من العام 1373.⁸⁷

(انتهى الكتاب)

المراجع المختارة

طبعات الكوندي لوكانور الرئيسة

- الكوندي لوكانور... بإدارة غونثالو دي آرغوت إي مولينا- Gonzalo de argote y Molina للشهير جداً السيد دون بيدرو مانويل..، إشبيلية... هرناندو ديث، عام 1575. هناك طبعة فاكسミル بمقدمة لـ أ. ميارس، برشلونة، بوفيل، 1978.
- كتاب باترونبيو او الكوندي لوكانور.. تحقيق: م. ميلا إي فونتانليس M. Mila y Fontanals 1853، برشلونة، خوان اوليبارس، Fontanals
- كتاب باترونبيو، تحقيق ب. غايانغوس P. Gayanagos في؛ كتاب النثر قبل القرن الخامس عشر، مكتبة الكتاب الأبسان، ج 41، مدريد، Ribadeiria، 1860.
- كتاب باترونبيو أو بالاسم الآخر الكوندي لوكانور.. بيعو، مكتبة أوخينيو راف، 1898، جزآن، ط 2، في بيعو، 1902.
- كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونبيو Text und anmerkungen aus dem nachlasse von Herman Knust. Herausgegeben von Adolf Birch-Hirschfeld, Leipzig, dr. Seele&co, 1900
- الكوندي لوكانور، تقديم وهوامش ف. سانشيس كانتون F. Sanches Cantón مדרيد، مكتبة كابييخا، 1920.

- الكوندي لوكانور... تحقيق وملحوظات أولية وتحليل ببلوغرافي بقلم إدواردو خوليا
Eduardo Juliá، مدريد، مكتبة سوارث العامة، 1933.

- دون خوان مانوييل وقصص العصر الوسيط، اختيار وملحوظات ماريا غويري
دي منندث بيدال Maria Goyri، مكتبة الطالب الأدبية، المجلد 27، 1936.

- كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونيو. مقدمة وطبعه وملحوظات بيدرو
أنريكيث أوريينيا Pedro Enriquez Ureña، بوينس آيرس، لوسادا، 1939، طبعات أخرى
1942، 1945، 1947.

- الكوندي لوكانور، طبعة دراسة وملحوظات آنخيل غونثالث بالنثيا Angel Gonzalez Palencia
Gonzalez Palencia، سرقسطة، إسبانيا، المكتبة الكلاسيكية إيبرو، رقم 6، 1940. إعادة طبع في
1942، 1945، 1956، 1960 و 1965.

- الكوندي لوكانور. طبعة كاملة بتحقيق أنريكيه مورينو بايث Enrique Moreno Baez
Baez، بالنثية، كاستاليا، 1953، إعادة طبع في 1962، 1965، 1967، 1969، 1970 (ط 7)،
المتضمن الأجزاء 2 و 3 و 4 و 5.

- كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونيو. مقدمة وقاموس المعاني لـ خوان م. لوبى
بلانش Lope Blanch، المكسيك، الجامعة الوطنية المستقلة، مجموعة الكلاسيكيات، 14، سلسلة
الأدب، 1960.

- الكوندي لوكانور أو كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونيو. طبعة ومقدمة
وملحوظات خوسي مانوييل بليكوا Blecua، مدريد، كاستاليا، كلاسيكيات كاستاليا 9، 1969.

- كتاب الكوندي لوكانور وباترونيو، طبعة خرمان أورجونا German Orduna
بوينس آيرس، هويمول، 1972.

- كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونيو. طبعة ألفونسو إي. سوتيلو Alfonso I. Sotelo
Sotelo، مدريد، كاتدرا، 1976. إعادة طبع في 1980 و 1990.

- كتاب الكوندي لوكانور. طبعة دراسة وملحوظات رينالدو آيربي شاووس Reinaldo Ayerbe-ChauxK. 1983. مדרيد، الحمراء، 1983.

- الكوندي لوكانور، في أعمال دون خوان مانوييل الكاملة، المجلد 2. طبعة ومقدمة وملحوظات خ. م. بليكوا Blecua، مدريد، غريروس، 1983.

- الكوندي لوكانور. طبعة وملحوظات ك. آبار و ب. بالانكو C. Alvar y P. Palanco، برشلونة، بلانيتا، 1984.

- كتاب الكوندي لوكانور. طبعة معاصرة، دراسة وملحوظات ر. آيربي شاووس و أ. ديرموند R. Ayerbe-Chaux y A. Deyermond، مدريد، الحمراء، 1985. إعادة طبع في 1988 و 1989.

- الكوندي لوكانور. طبعة ماريا خيسوس لاكارا María Jesús Lacarra، مدريد، إسبانيا كالبى، اوستراى، 1990.

سجل الأحداث التاريخية (كوروناوجيا)

1282 على مشارف صقلية: العرش الآراغوني يزبح بيت آنجو Anjou.

تمرد الأمير الإنفانتي سانشو ضد والده ألفونسو العاشر.

ولادة دون خوان مانوييل في إسكلالونا (طليطلة) في الخامس من شهر مايو (أيار).

رامون لول Ramon LLull كتاب بلانكيرنا Blanquerna.

1284 Cantigas de Santa María ألفونسو العاشر يكمل عمله أناشيد القديسة مريم.
موت ألفونسو العاشر.

سانشو الرابع، ملكاً على قشتالة.

موت الإنفانتي دون مانوييل، الأب.

يرث مقاطعة مورسيه Murcia ألفونسو الثالث، ملك كاتلونيا وآراغون و بالنثية.

فلبيه الرابع الجميل، ملكاً على فرنسا

ترجمة كتاب الكنز لـ برونيلتو لاتيني Brunetto Latini- (1285- 1295)

1287 اجتياح مانوركا: يتم ضمها لعرش آراغون

رامون لول: كتاب الروائع.

إنجازاته العلمية في السوربون.
1288 ب. ديسكلوت Desclot ينتهي من كتابه التاريخ Crónica رامون لول يعرض

ماركو بولو في الهند.

مساعدة ألفونسو دي لا ثيردا بنواياه على عرش قشتالة.
1290 اجتماع سانشو الرابع مع فليبي الجميل في بايونا Bayona: الملك الفرنسي يعد بعدم

طرد اليهود من إنجلترا.

موت أم دون خوان مانويل، دونيا بياتريث دي سوبويا.

تأسيس جامعة لشبونة.

ولادة سيم توب دي كاريون.

موت بياتريث دي دانتي.

كتاب أز هار الفلسفة.

المنمنات الزجاجية Frescos de Cimabue في كنيسة سان فرانثيسكو دي آسيس.

1291 خايمه الثاني (1291-1327). يبتدئ التوسيع المتوسطي لـ آراغون.

ضياع آخر الدول اللاتينية في المشرق.

كونفدرالية سويسرا.

.Terifa 1292 غزو طريفه

وفاة ر. بيكون- Bacon. دون أن يكمل كتابه Compendium studii theologae.

جاكوب دي لا فوراجين La Voragine: كتاب الأسطورة الذهبية.

1293 أناشيد و وثائق الملك دون سانشو.

ولادة رايسبروك Ruysbroeck

مؤسسة الدراسات العامة في الكالا دي هناريس Alcalá de Henares

1294 بونيفاشيو Bonifacio - السابع (1303-1294) المدافع عن ربوبية السلطة البابوية.

أول موقعة حربية ضد العرب: رجال دون مانويل يهزمون الحسن ابن أبو بكر ابن زيان.

يستقبل سانشو الرابع في بينيافيل: سيجتمع به فيما بعد في مدريد، قبل موته.

موت برونينتو لاتينو.

1295 وفاة سانشو الرابع؛ يخلفه على العرش ابنه فرناندو الرابع.

سلام آناغني Anagni بين لاراغون، أنجو والبابا.

ملتفاً بالخلافات على العرش. يفقد مدينة أشلي، ويكسب من ماريا دي مولينا مقاطعة آلاركون.

يعود ماركو بولو إلى مدينة البندقية.

الغزو الأكبر في أعلى البحار.

تاریخ قشتالة، تاریخ کامبیادور، تاریخ ملوك قشتالة، تاریخ أحد عشر ملکاً (1295-1312).

1296 رامون لول: شجرة العام.

لوحات جيوفتو Giotto - في آسيس.

1297 المغول يغزون الهند.

1298 كاتدرائية برشلونة.

ماركو بولو، في الحبس، يسرد على روستشيللو Rustichello حكاية رحلاته.

رامون لول: شجرة فلسفة الحب.

1299 قشتالة في حرب مع آراغون والبرتغال.

يتزوج دونيا إزابيل، أميرة مايوركا.

1300 دونز سكوتون يلقي محاضراته في أوكسفورد.

ولادة خوان رويث.

كابالكانتي Cavalcanti: قصائد Rimas

تاریخ مفترض لكتاب الفارس ظفار Caballero Zifar (1300- 1305)

1301 إعلان وصول فرناندو الرابع لسن الرشد.

موت زوجته دونيا غيزابيل.

1303 يصل روجر دي فلور على القسطنطينية

الوعد بالزواج من إنفانتا كونستانثا، ابنة خايمه الثاني ملك آراغون، ذات الأربعة أعوام.

يعترف بالأragوني كملك على مورسيه وسيدها الطبيعي، مع الوعد بمساعدته ما عدا في

حالة الحرب مع قشتالة.

1304 وفاق بين القشتاليين والأragونيين.

يتنازل ألفونسو دي لا ثيردا عن حقوقه المزعومة.

تنتقل مدينة إلشى تحت السيطرة الأragونية. يغير آلاركون بـ قرطاجنة.

ولادة بتراك (1304 - 1374)

1306 طرد اليهود من فرنسا.

موت دونيا فيولا نتني مانويل، شقيقة الكاتب وزوجة ألفونسو ملك البرتغال. توقيع عقد الزواج بـ دونيا كونستانثا، مع الوعد بعدم إتمام الزفاف حتى تصل إلى عمر 12 سنة.

يكتب أرنالدو فيلانوفا Vilanova - كتابه موجز عن الحياة الروحية و تفسير عن الوضوح.

1307 يبدأ دانتي بتأليف الكوميديا الإلهية.

تأسيس جامعة كويمبرا Coimbra.

1308 الحلف القشتالي-alaragoni لمعاودة استرداد غرناطة.

ثورات مدنية في باريس.

إجراءات ومحاكمة فرسان الهيكل (1314-1308).

وفاة دنس سكوتو Scoto.

1309 فرناندو الرابع يحتل جبل طارق.

روبرتو دي آنجو- Anjou ملكاً على نابولي (1343-1309).

الإقامة البابوية تنتقل إلى آفينيون، حيث يتتالى على العرش اثنا عشر بابوياً (1309-1377).

يحضر لقاء آريثا Ariza حيث يقرر كل من ملك قشتالة وملك آрагون المهموم على غرناطة.

قصر دوكال في مدينة البندقية (1309-1424).

1310 يترك دون خوان مانويل والإنفانتي دون خوان الحملة.

يُدرس أوكام Ockam - في أوكسفورد.

1311 مجلس فيينا يعمل على قمع فرسان الهيكل.

يتزوج بدونيا كونستانثا.

1312 وفاة فرناندو الرابع.

ألفونسو القاصر، ملكاً على قشتالة وليون (1312 - 1350).

حركة النبلاء الفوضوية.

مجلس وصاية متألف من ماريا دي مولينا والأميران إنفانتي دون خوان ودون بيبرو.

يفقد لقب مقاطعة مورثيا؛ يعين عليها ديبوغ لوبيث دي هارو.

دانتي: عن الملكية .*De Monarchita*

مجلس فيينا يعلن جامعة سلمونقة *Salmanca* واحدة من بين أهم أربع جامعات أوروبية.

1313 سينودو دي ثامورا *Zamora*: إجراءات ضد اليهود.

ولادة بوكاشيو .*Boccaccio*

1314 وفات فليبيه الجميل و كلمنت الخامس.

1315 بلاط بورغوس.

تنظيم الأخوة العامة للدفاع عن المدن والضياع من جور النبلاء.

وفاة رامون لول.

يُدرس إرخارت *Erckhart* في مدرسة الدومينikan في كولونيا.

1318 هرطقة فالدين في بوهيميا و بولونيا.

منمنمات جيتو *Giotto* الزجاجية في كنيسة سانتا كورث في فلورنسا.

1319 وفاة دون خوان و دون بيبرو في غرناطة.

تواجه ماريا دي مولينا أطماع النبلاء.

يُعين متولياً على قشتالة.

1320 مجازر اليهود في نابارا (1328 - 1320).

حرب أهلية في إنكلترا.

ما بين 1320 - 1325 ينهي تحرير كتاب التاريخ المختصر.

كتاب تاريخ عشرون ملكاً.

1321 وفاة ماريا مولينا.

ينسق زواج ابنته كونستانثا مع الملك، زواج لن يتم إطلاقاً.

وفاة دانتي.

1322 بيان البابا خوان الثاني والعشرين حول الفن الجديد Ars Nova.

1323 درجة القداسة لسان توماس.

1324 وفاة ماركو بولو.

رواية آماديس بنسختها الأولى.

1325 وصول ألفونسو الحادي عشر إلى سن الرشد.

وفاة دون ديونيس ملك البرتغال.

الأزتيك يؤسسون مدينة تينوتتشيشلا Tenochtitlan.

بلاط بلد الوليد يوافق على زواج ابنته على ألفونسو الحادي عشر.

بين 1325 - 1326: كتاب القنص.

مونتانير Montaner: كتاب التاريخ (1325 - 1332).

جامعة باريس تقوم برفع حكمها على التوماوية Tomismo.

1326-1328: كتاب الفارس وتابعه.

1327 وفاة خايمه الثاني.

ألفونسو الرابع ملكاً على آراغون (1327-1336).

حرب وبعدها فترة سلام مع ألفونسو الحادي عشر.

يتزوج بدونيا بلانكا نونيث لارا، التي سيرزق منها بولد هو دون فرناندو.

يببدأ بتدوين كتاب الأحوال.

ولادة فرانسيس أكسيمبنس Eiximenis.

وفاة آرخارت.

يُتعرف بترارك إلى لاورا.

1328- Capeta نهاية سلالة كابيتا

وصول فليبيه دي فالوي السادس Felipe de Valois إلى عرش فرنسا.

لويس دي بافيرا Baviera إمبراطوراً.

1329 ينتهي تشييد كاتدرائية ريمز Reims

1330 أوائل الغزارة الأتراك لأوروبا.

يفتح معرض مدينة ديل كامبو.

يسترد مقاطعة مورثيا.

قبل هذا العام يدون كتاب الفروسيّة، العمل المفقود.

آ. هيتا Hita أول تحرير لكتاب الحب الطيب.

يببدأ بترارك بكتابة الأشعار بالعامية.

1331 ولادة الحاكم لوبيث دي آبلا.

1332 مدينة آلابا Alava - تلتحق بقشتالة.

ينهي كتاب الأحوال.

1333بني ميرين يحتلون جبل طارق.

مجاعة في كتالونيا.

1334 بنديكتو الثاني عشر، بابا الكنيسة (1342-1334).

حرب مع ملك قشتالة. ألفونسو الحادي عشر يهاجم دون خوان مانويل

بعد أن رفض هذا مساعدته بحصار جبل طارق.

ينسق زواج ابنته بولي عهد العرش البرتغالي.

بناء جنان العريف وتوسيع الحمراء.

أجراس ديل دومو Campanile del Duomo) مدينة البندقية من عمل جيوفتو.

1335 يتغرب من جديد. الملك يهاجم بينيافيل، دون خوان يلجا إلى فالنسية. في 12 من

تموز

ينهي كتاب الكوندي لوكانور.

1336 وفاة ألفونسو الحادي عشر.

بيدرو الرابع ملكاً على آراغون وكاتالونيا (1387-1336).

توحيد أراضي العرش الآراغوني والتحالف مع قشتالة.

من هذا العام أو قبله بدون كتاب الأسلحة، وأيضاً كتاب الأبد (ما بين 1334-1340).

وفاة ر. مونتانيير.

دون خل دي ألبورنوث، مطران طليطلة.

بوكاشيو يبدأ بكتابه Filocolo.

1337 قطيعة بين فليب دي فالويس السادس وأدواردو الثالث ملك إنكلترا: بداية حرب المائة سنة.

حالة سلام من جديد مع ألفونسو الحادي عشر.

وفاة جيوفتو.

ولادة فرويسارت Froissart

1339 ولادة ابنته خوانا مانويل والتي ستتزوج عام 1350 مع أنريكيه تراستامارا Trastamara

تشييد الكرملين.

1340 معركة السلامو- Salado: ألفونسو الحادي عشر يهزمبني ميرين. يشارك في معركة السلامو.

زواج ابنته كونستانثا بالأمير إنفانتي دون بيدرو.

ولادة ج. شاوسر Chaucer.

ولادة ألفونسو ألباريث دي بياتساندينو Villasandino

1341 الطاعون الأسود يجتاح آسيا.

ولادة إي. ديشامب Deschamps

1341 تدوين المدخل العام.

قبل هذا العام بدون تفسير ارتقاء مريم العذراء.

بترارك: كتاب أفريقيا.

1343 بيبرو الرابع ملك آراغون يضم جزر البليار.

خوان روبيث دي هيتا ينتهي من تدوين كتاب الحب الطيب.

بوكاشيو: كتاب- Fiamentta

1344 ألفونسو الحادي عشر يحتل الجزيرة الخضراء.

يدخل منتصراً إلى الجزيرة الخضراء بجانب الملك.

كتاب تاريخ ألفونسو الحادي عشر الكبير.

1345 ينسق زواج ابنه فرناندو.

غارثيا كاسترو خيريث: فوج أمراء أخيديو كولومنا (1344 - 1345).

1347 جامعة براغ.

1348 الطاعون الأسود (1348 - 1351).

وفاته يوم 13 تموز. ينقل جثمانه إلى دير بينافيل.

بوكاشيو: كتاب الديكاميرون.

1349 يوسف الأول يؤسس جامعة غرناطة.

1350 وفاة ألفونسو الحادي عشر. بداية حكم بيبرو الطاغية Pedro El cruel والصراعات الداخلية في قشتالة.

Notes

[1←]

الكوندي: أو (الكونت) باللغة الإنكليزي ونحن ترکناها كما هي لأنها عنوان الكتاب ولقب المعرف بها. والكوندي أو الكونت لقب تشريفي يُمنح لأرقى العوائل النبيلة ذات الصلة بعليه القوم وملوكها. والعديد من الكوندات وصلوا إلى الحكم كملوك في تاريخ إسبانيا أو دول العالم الأخرى. (المترجم).

[2←]

كما وتمت معاينته سابقاً، فهي كلمات أساسية في كتاب دون خوان مانويل. (hacienda العمل والفعل) هو مجموع الأعمال والأحداث التي تشكل حياة الإنسان في مظهره الخارجي. أما (estado) الحال والوضع فهو الشرط القضائي والاجتماعي للشخص، أو «الطريقة التي يعيشها البشر أو يكونون فيها». Partidas, t, xxiii,(lib,4).

[3←]

تظهر الملاحظة ذاتها أيضاً في (المدخل العام) لأعماله وفي (كتاب العقاب)، ص 32-33 وص 147، عمل مذكور (Blecua)، الكلية التقليدية تتكرر في الأسفل: المؤلف يتقدم بتواضع لكسب تعاطف القارئ.

[4←]

سبق تعريفها: لغة العامة التي تتشق من اللاتينية والتي أصبحت اللغة القشتالية الإسبانية فيما بعد. (المترجم)

[5←]

حاكم سياسي عسكري للأراضي الحدوية المتاخمة للمسلمين.

[6←]

الدوبلات: عملة نقدية ذهبية صكها ألفونسو العاشر.

[7←]

حكاية: صورة أو رسم أو تحظيط، ففي طبعة غايانغوس (BAE، 41، 231، ملاحظة رقم 5) أشار إلى أن «الطبعة الرئيسة لكتاب باترونيو كانت مزخرفة بالرسوم». وهذه الجملة التي تتكرر تقريباً في ختام كل مثال، لا بد وأنها تعرف بإحدى الرسومات الموجودة في المجلد الأصلي. راجع: خ. م. بليكوا في طبعته للعمل، مدريد، كاستاليا، 1969، ص 61، ملاحظة 100. من الآن ولاحقاً سندف هذه الجملة الأخيرة التي تنتهي، دون تغيير معين، كل الأمثلة.

[8←]

المسلمون (Moros) المستخدمة بكثرة في كل النصوص تشير إلى العرب المسلمين أو بقائهم من الموريسكيين في شبه الجزيرة الإيبيرية أو الأندلس. (المترجم)

[9←]

لا ترد من الأنجليل، بل في حزقيال 33، 11.

[10←]

أطيان Solares هي كل تلك الأراضي التي يضع يده عليها في القرى والضياع.

[11←]

المسيحية تعتبر من يسقط في المعارك ضد المسلمين من الشهداء «أولئك الذين يموتون وبلا شك هم من القديسين والشهداء الأحقاق، ولا ذنب لهم غير تلك المينة نفسها». وهم أيضاً «حتى لو لم يموتون بالسلاح، وقد أمضوا حياتهم بالحرب ضد المسلمين، ومن لم يسقطوا موتاً بسلاح، فالجهد والأعمال والخوف والنية الصالحة والإرادة القوية تجعل منهم شهداء»، يقول الشيء نفسه دون خوان مانويل في كتاب الأحوال.

[12←]

جنوا مدينة إيطالية (المترجم)

[13←]

أنثى الثعلب، وسماها العرب ثعلة وأم عوبل، ونحن أبقينا عليها باللغة المفهوم في الوقت المعاصر (ثعلبة).
(المترجم)

[14←]

الأمير الإنفانتي أنريكيه (1303 - 1303) ابن فرناندو الثالث وعم دون خوان مانويل. تواجه مع شقيقه ألفونسو العاشر الذي هزم ونفاه من إسبانيا عام 1259. عاش في تونس وفي إيطاليا، حيث أمضتها سجينًا لمدة 21 عاماً. في عام 1295 عاد إلى مملكة قشتالة، حيث تبوأ منصب الوصي على الملك فرناندو الرابع خلال فترة عمره القاصر ما بين 1295 و 1303.

[15←]

قصيدة كبيدو Quevedo العشارية الأبيات المشهورة التي تقول: «يحكى أن حكيمًا ذات يوم...» (في عمله الحياة حلم، فصل 1، مش 2) مستلهمة من هذا المثال.

[16←]

الثرمس: كلمة من أصل عربي وترد هكذا في النص، وهي من البقوليات الرخيمصة المعروفة (المترجم).

[17←]

Dean من اللاتينية وتعني حرفيًا: الزعيم أو رأس جماعة تتتألف من عشرة أشخاص (رهبان في دير). وهو الذي يترأس الجماعة في الكنائس الكاتدرائيات، ويكون الثاني في التسلسل بعد رئيس الرهبان.

[18←]

القيمة الفنية للقطعة، التي يتكرر موقعها الرائد في النقد، وتتأثرها في الأدب المتشعب (ينظر من ضمن نماذج أخرى؛ كتاب تجربة الوعود لـ خ. رويث آلاركون، والصيغة المعاصرة من اقتباس خ. ل. بورخيس التي ضمنها في كتابه تاريخ الخزي العالمي، مدريد، دار آليانثا، 1997 (1975)، ص 119.. أو القصيدة الجميلة التي أهدتها له آثوريين في (القيم الأدبية)، الأعمال الكاملة، ج 2، مدريد، 1947، ص 1040)، قد جعل من هذا المثل أن يكون الأكثر شهرة من نماذج الكتاب الأخرى. ينظر أيضاً؛ قصة إي. أندرسون إمبرت التي ضمنها في كتابه بيدرو الخفيف، مدريد، دار آليانثا، 1976، ص 110-114.

[19←]

Nigromancia أي السحر الأسود، وأصلها من الكلمة الإغريقية نكرومانتيا «التنبؤ عن طريق الموتى»، متأثرة باللفظ اللاتيني Niger- (أسود) المسببة للسحر الأسود، فغلب عليها المعنى. «فن البغيض لإحداث أشياء غريبة وبالضد من الأمور الطبيعية عبر استدعاء الشيطان والاتفاق معه». (Dic Aut)

[20←]

من الشعوب герمانية في شمال أوروبا. (المترجم)

[21←]

سانشو دومنغو (1170-1221) مؤسس الطريقة الدومينيكانية، ولد في كالاهورا ووُعظ في الناس ومات في المدينة الإيطالية بولونيا. حضور القديس يمنح الحكاية عنصراً واقعياً ويقربها من القارئ. يجب ألا ننسى، من جانب آخر، صلة المؤلف بالطريقة الدومينيكانية.

[22←]

عن هؤلاء الفرسان الثلاثة، لاحظ كيف يعلن المؤلف الأفضلية للأول. (لاحظ المثال 28 أيضاً). أما ثالث الفرسان، فعلى ما يبدو أنه حاكم كاثور لا بايو دي كوريأ.

[23←]

سكان مملكتي ليون ونابارا (المترجم)

[24←]

في عنوان المثال يتحدث عن جماعة أما في محتواه فالدعوة تنتهي من شخص واحد. (المترجم)

[25←]

Fulan: الكلمة عربية الأصل (المترجم)

[26←]

الخييماء هو ذلك الفن الذي كانوا يسعون عبره بتحويل كل شيء إلى ذهب. - (وهو غير علوم الكيمياء المعروفة «المترجم»).

[27←]

Pícaro الشاطر والعيار والحِيَال نفسه الذي جاء في المقامات العربية وهو (الصلوک/ البيكاريسك) المعروف عالمياً. (المترجم)

[28←]
قطع نقدية من الذهب.

[29←]
اسم على ما يبدو قد ابتكره دون خوان، وربما يكون من أصل عربي.

[30←]
Aljuba ثوب عربي، نوع من الغبان بأكمام قصيرة وضيقة يصلح للرجال والنساء من كل المراكز الاجتماعية لأنه يمكن خياطته من نسيج رخيص أو من أقمشة غالية.

[31←]
عباءة من الحرير أو أي نسيج دقيق وثمين.

[32←]
لقد تم التأكيد بشكل متتابع حول الموقع المركزي لهذا المثال. إذ ينسج فيه الدون خوان سيرة حياة رجل مترن وكامل الأوصاف عبر حكاية الشاب النبيل، وفي الوقت نفسه عبر مثل الحكمة والطيبة التي تتجسد في السلطان العربي يوسف صلاح الدين (الأيوبي) كمثال للمستشار. وصلاح الدين نفسه يظهر أيضاً في المثال رقم 40، وقد كان سلطاناً على مصر وسوريا وتدخل في الحروب الصليبية. وقد وصلت شهرته إلى درجة أن بثوا عنه في أوروبا العديد من الأساطير التي جعلت منه أو يكاد بطلاً مسيحياً ورمزاً للحكمة.

[33←]
إيسكار وكويار: بلدان قريبتان، الواحدة في مدينة بلد الوليد والأخرى في شقوبية.

[34←]
إشارة غير مباشرة إلى أنه يتبول في فراشه (المترجم).

[35←]
راهب لا يختلف عن البقية سوى بكونه يقوم أول الجميع بالصلوة والقداس. (المترجم)

[36←]
مرض انفاخ الأصابع، ورم طفيلي (المترجم).

[37←]
المُعْتمد: ملك إشبيلية وشاعرها (1040 - 1095)، جعل من بلاطه مركزاً لقاء الشعراء ورجال الأدب، وقد هزم من قبل المرابطين، وُنفي ومات في الصحراء. دون خوان مانويل ينعته بابن عباد لأنتمائه لبني عباد، وزوجته

الرميكية، كانت جارية لرميك، والتي ستنسمى فيما بعد بـ اعتماد بعد أن تقيم علاقتها بالمعتمد. وهذه الملاحظة يرد ذكرها في أخبار المقربي (ربما يعني نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، «المترجم»). وترد في كتاب دوزي Dozy المعنون كتاب مسلمي الأندلس، مدريد، منشورات ترنا، 1982، مج 4، خاصة الصفحة 118 وما يليها.

[38←]

الجملة ترد بالعربية. (المترجم)

[39←]

في هذا المثال يتضح حجم التناقض ما بين الدومنيكان والفرنسيسكان، خاصة حضوره في الحقل الجامعي في باريس. دون خوان مانويل يشير بوضوح انحيازه للدومنيكان في موضع عديدة من الكتاب. وفي الفصل 51 من كتاب الأحوال، يقول: «على الرغم من أن الفرق والأديان كثيرة، قديمة جداً ومقدسة، لتعلموا أن فريقين اثنين لا غيرهما الصالحان إنفاذ الأرواح وبوفاق مع الإيمان الكاثوليكي المقدس (...) وهو فرقه الراهب المبشرين وفرقه الراهب الصغار «الفرنسيسكان» (...)، ولتعلموا أنه على الرغم من وجود العديد من الطرائق الجيدة المقدسة في العالم، إلا أنني أعتقد أنها تكمن في (الراهب المبشرين) وليس في أي فرقة أخرى. <مصدر مذكور، ص 493>

[40←]

الأوقات المنسية، الأجزاء المختلفة من المهنة الربانية التي اعتادت الكنيسة أن تقيم صلواتها على اختلاف أوقات اليوم.

[41←]

يعتبر واحداً من أمثلة الكتاب المعروفة جداً. ومن المحتمل أن يكون البذرة المؤسسة لمسرحية ثريانتس القصيرة (مسرح العجائب).

[42←]

يسترعى الانتباه من وجهة نظر أسلوبية، تدخل الرواية في تعداد ما يراه وافياً وما يعلمنا بمعرفته بنوعية الحكاية عندما يثير الاهتمام دون نتيجة، لهذا، يسهب بالحديث. انظر المثال 27.

[43←]

نوع من الصقور المدرية على صيد طيور مالك الحزين. وعنها يتحدث المؤلف في الفصل السادس من كتاب القصص، طبعة مذكورة، ص 519.

[44←]

الكلمة ترد بالعربية *sacre*، أي صقر وهو الشاهين المعروف (المترجم). - وفي الهامش الإسباني يرد التالي: نوع من النسور المعروفة بريشها الأشقر تقريباً والمنقار والأرجل بلون مزرق. موصوف في الفصل الثالث من العمل المذكور سابقاً.

[45←]

تمت الإشارة بشكل دائم لنقطات الاشتراك مع عمل شكسبير (ترويض المتوجة)، أما الرأي عموماً اليوم فهو أن التشابهات ما بين النصين مصادفة بحثة (المترجم).

[46←]

بفهم من لقب المعلم على أنه حكيم زمانه (المترجم)

[47←]

قطعة نقدية من آثار العرب في الأندلس (المترجم)

[48←]

على الرغم من أنه يذكر فيها معركة هاثيناس Hacinas- التي يرد ذكرها في التاريخ العام الأول في قصيدة فرنان غونزالث، فالحكاية على ما يبدو من صنع خيال المؤلف.

[49←]

: السركل أو القهرمان أو من ينوب عن الملك (الزعيم أو النبيل الرئيس في القرية)، وهو الذي يحكمها خاصة في وقت الحرب).

[50←]

الحكم الثاني، خليفة قرطبة ما بين 961 و 976.

[51←]

قيود تحكم في الأرجل وبراشن طيور القنص. تذكر أن دون خوان مانويل هو مؤلف كتاب القنص.

- (والغماء: عصابة تحجب النظر «المترجم»)

[52←]

آلة موسيقية تشبه المزمار. (الكلمة ترد بأصلها العربي: بوق «المترجم»)

[53←]

العبارة يضعها المؤلف بالعربية تماماً. (Wa hadi ziyadat al-Hakam.)

[54←]

في عام 1236.

[55←]

ترد في النص (Beguina) من ينتمي إلى هذه الفرقة الدينية التي أنشأها لامبرت ليبيغي (القرن الثاني عشر) ومنه جاء اسم الفرقـة. إضافة إلى المعنى التاريخي للمصطلـح، فعند دون خوان تعـني معنى أخلاقياً وهو «الزائف الإيمان والمنافق»، في كتاب (القطط المتدينـة) «تعـني النفاق» يـنظر؛ المثال 41 من كتاب الأـدب، فصل 1.».

[56←]
متى، 7، 16.

[57←]
الحصة أو نتاج ما يخرج من الأغنام أو الأرض.

[58←]
يُذكر بليكوا بأن: «بيبرو نونيث دي فوينتي الميخر قد حاز لقب الوفي لأنه أنقذ ألفونسو الثامن، وهو ما يزال طفلاً بالهرب معه إلى آتيناثا من صوريا؛ أما غوتيرث رويث دي بلاغيو فقد كان على صلة قرابة مع الأول ومع رودريغو غونثالث دي لارا، الصريح، حيث كان كوندياً على آستورياس سانتيانا في زمن ألفونسو السابع. وحوالي عام 1141 كان في أورشليم القدس». (عمل مذكور سابقاً، 1962، ص 217).

[59←]
معاصران للمؤلف. لقد حصل ألبار نونيث دي كاسترو على سلطة كبيرة من الملك ألفونسو الحادي عشر لكي يضمن تأييده في نزاعه ضد دون خوان مانويل. الذي سيلتحق فيما بعد بهذا وسيقاتل معه ضد الملك، دافعاً حياته ثمناً لتمرد. أما غارثيلاسو دي بيجا فقد أرسله ألفونسو الحادي عشر لقتال دون خوان مانويل. وبخروجه من قرطبة عام 1326، أكد أن التنجيم قد أعلن موته قريباً، وهو ما حدث بعد دخوله إلى مدينة صوريا بوقت قصير.

[60←]
الجملة كاملاً ترد في النص باللغة العربية. (المترجم)

[61←]
هذا المثال بأصوله الدومنيكانية المحتملة، بالإضافة إلى المثال السابق يعتبران المثالان الوحيدان من الكتاب بجانبهما الحكائي يتضمنان كلمات نهائية بتحليل روحاني من قبل باترونيو، وهي في تمثيل متوازي مع ما يجيء من أشعار ختامية.

[62←]
Juglares المنشدون أو الشعراء الجوالة، وهي مهنة كانت شائعة في تلك العصور الوسيطة. (المترجم)

[63←]
من هذه الجملة يعتقد النقاد أن المثال التالي رقم 51 مضاف لاحقاً لطبعات الكتاب. (المترجم)

[64←]
النقد بصورة عامة لم يتقيد بوجهة نظر موحدة حول أصلية هذا المثال. انظر ديفونتو و بليكوا في الاعمال الكاملة المذكورة سابقاً ص 462 و 121 على التوالي.

[65←]

[66←]
.11، 33/ حزقيال

حول أسلوب هذه الأجزاء الأخيرة من الكتاب، تصنفها ماريا غويري Maria Goyri (مقال في طبعة كنوت، في مجلة Romania، 29، 1900، 600-602) بكونها «إجراء طفلية حقيقة»، بينما تقول ماريا روسا ليدا Maria rosa Lida «التنوييعات العبرية. المشغولة بالمنطق والشرح- تظهر بدهة في التجريب الأسلوبي غير معتمد في أداب القرن الوسيط الإسباني، الذي يفصح أحياناً للأديب عن البلاغة اللاتينية» (1969، ص 131). دون شك فإن هدف دون خوان مانويل «يتمثل في الإجراء الأسلوبي الذي لا يُضاهى، إذ إنه ليس حالة جمالية خالصة، بل وأخلاقية. إذ يستند على إجراء محدد ليوصل لنا خبرته ومعرفته، لكن هذا الإجراء يجب عن شيء أكثر من مجرد إرادة تشبيهية، لأنه موضوع من نفس المادة الناقلة، بالمعنى الذي يقوله لنا، ولأنه يُدرج إلى ما قيل بالصعوبة المتنمية.» (D. Devoto, -1972,468)

[68←]
نبيل من آراغون، كانت أراضيه مجاورة لأراضي دون خوان مانويل الذي ساعد في معاهدات مختلفة مع ملك آراغون.

[69←]
العديد من الأحكام والشذرات التي يضمها هذا الجزء والجزآن التاليان مستلة في أغلبها من مجاميع ظهرت في إسبانيا خلال القرن الثالث عشر. وهي تلك التي تتطوّي تحت ما يسمى (أزهار الفلسفة وسر الأسرار)، البوئيم أو لقيمات الذهب وهذه الأخيرة الأكثر تأثيراً. ينظر أيضاً ملاحظات كنوت Knust، 1900، ص 418، و ديفوتو Devoto، 1972، ص 469

[70←]
كل الأمثلة التي ستجيء لاحقاً لم نعلم لها مقارنة مع الأمثال العربية، ولم نُعرّبها بالبحث عن مقارباتها في الأمثال العربية احتراماً منا للمثل الإسباني وللكتاب ولكن يجد الباحث فيه في المستقبل أوجه التشابه والاختلاف مع أمثالنا العربية، وهذا من حصة بحث ومكان آخر لا علاقة له بترجمتنا. (المترجم)

[71←]
مضاد للساعات السامة ويستخلص من الأفعى نفسها.

[72←]
الأخذ بنظر الاعتبار دراسة د. آ. فلوري- D.A. Flory المذكورة في Studies، ص 87-89

[73←]

يسعى دون خوان مانويل في هذا الجزء بقدرة وشدة كبيرتين على (الحديث الغامض)، لهذا يغير مواضع الكلمات. **مُغِيراً التركيبة النحوية Hiperbaton** والذى يسمح بتمثيلات مختلفة في المعنى. مع الأخذ في الاعتبار ملاحظات سانشيت كانتون (1920) وسي. ميشائيل باسكوتينيوس في (Zum sprichwortschatz des Bausteine zur romanischen philologie. Festgabe fur a.) في (Don Juan Manuel mussafia, Halle, Niemeyer, 1905) ص 474، العمل معتمد في د. ديفوتو، 1972، ص 594-608.

[74←]

المؤلف بطبيعة الحال يشير إلى الأجزاء 2 و 3 و 4 الأخيرة بمعزل عن الكتاب الرئيس الأول الكبير. (المترجم)

[75←]

المؤلف يفرق بين (ejemplo) المثال أو النموذج أو القول وبين (proverbio) العبرة أو الحكمة أو الموعظة أو المثل الشائع. (المترجم)

[76←]

حسب نسخة وطبعه (سي.أم. C.M) (المترجم)

[77←]

حسب نسخة وطبعه (أس. سي- S.C) (المترجم)

[78←]

.يرد في دفوتو Devoto، 1972، ص 475، يختلف المثال في نسخة سي. أم. C.M

[79←]

يرد في ماريا غويري Maria Goyri، مقال مذكور سابقاً، ص 601.

[80←]

.يرد في دفوتو Devoto، 1972، ص 477

[81←]

يرد في ماريا غويري Maria Goyri، مقال مذكور سابقاً، ص 601.

[82←]

اليمبوس أو المطهر: ما بين الجنة والنار. (المترجم)

[83←]

التابع وحامل الدرع أو مساعد الفارس بحمل عدة السلاح وما شابه. وهي مهنة (سانشو) تابع (الدون Escudero كيخرته) في الرواية الشهيرة لـ ثربانتس. (المترجم)

[84←]

سبق تعريفه: يقصد اللغة القشتالية الإسبانية الأولى، لغة العوام آنذاك تفريقيها عن اللاتينية لغة المثقفين. (المترجم)

[85←]

.42، 10، لوقا،

[86←]

قلعة في أراضي مورثيا تم الظفر بها من المسلمين.

[87←]

يرجع لعام 1335. يجب الأخذ بنظر الاعتبار فرق 38 عاماً المتبعة ما بين التسلسل التاريخي لعصره وبين زمننا الحاضر.